

أخاثة كريستي

مذكرات



15.5.2016

تعال قل لي كيف تعيش

مذكراتها في سورية والعراق



ترجمة أكرم الحمصي

أغاثا كريستي

تعال قل لي كيف تعيش مذكراتها في سورية والعراق

ترجمة أكرم الحمصي



تعال قل لي كيف تعيش



Author: Agatha Christie
 Title: Come Tell Me How You Live
 Translator: Akram Alhomsy
 cover designed by: Majed Al-Majedy
 P.C. : Al-Mada
 First Edition: 2015

المؤلف: أغاثا كريستي
 عنوان الكتاب: تعال قل لي كيف تعيش
 ترجمة: أكرم الحمصي
 تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
 الناشر: دار المدى
 الطبعة الاولى: 2015

Copyright © Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد : حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الممرات- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول info@daralmada.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2269	دمشق: شارع كرجية حداد- مشرف من شارع 29 أيسار al-madahouse@net.sy ص.ب. 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.



إلى زوجي، ماكس مالوان، إلى "الكولونيل، و"بامبس"، و"ماك"،
و"غيلفورد"، و"ب."

أهدي، بكل الحب، هذه الوقائع المتعرجة.

تمهيد

هذا الكتاب هو جواب، جواب على سؤال كثيراً ما يطرح عليّ.
« أنت، إذن، تنقبين في سورية، أليس كذلك؟ أخبريني عن الأمر.
كيف تعيشين؟ في خيمة؟ » الخ، الخ...

معظم الناس، على الأرجح، لا يرغبون في معرفة الجواب. فالأمر،
بالنسبة إليهم، مجرد تجاذب لأطراف الحديث. ثم يظهر، بين الفينة
والأخرى، شخص أو اثنان يعنيهما الأمر بالفعل.

وهو، كذلك، السؤال الذي يطرحه علم الآثار على الماضي : تعال
قل لي كيف عشت؟

ونعثر على الإجابة باستخدام المعاول والمجارف والسلال :

”تلك كانت قدور الطهو التي استخدمناها“. وفي تلك الصومعة
الكبيرة كنا نحفظ بقمحنا. وبتلك الإبر المصنوعة من العظام كنا
نخيط ثيابنا“. ”تلك كانت بيوتنا، هذا حمامنا، وهنا نظام الصرف
الصحي لدينا!“. ”وهنا، في هذه الآنية، توجد الأقراط الذهبية التي
قدمت لابنتي بائنة“. ”هنا، في هذه الجرة الصغيرة، مساحيق تجميلي.
كل قدور الطهو من نموذج شائع للغاية. سوف تعثرين على المئات
منها. نحن نشترىها من الخزاف عند الزاوية. أتقولين وولورث؟
أهكذا تدعونها في عصركم؟“ .

يصادفنا، بين الفينة والأخرى، قصر ملكي، وفي بعض الأحيان

معبد، وفي مناسبات أقل مدفن ملكي. هذه الأشياء رائعة. نقرأ عنها في العناوين الرئيسية للصحف وهي مادة للمحاضرات ويتم عرضها على الشاشات ويسمع عنها الجميع! بيد أنني أظن، بوصفي أعمل في التدقيق، أن التشويق الحقيقي يكمن في الحياة اليومية- في حياة الخراف- حياة المزارع- حياة صانع الأدوات- حياة صانع الأختام والمائم الحيوانية، بل، في الواقع، في حياة الجزار، والخباز، وصانع الشمعدانات.

تحذير أخير يجب أن أقدمه كي لا يصاب أحد بالخيبة. هذا الكتاب ليس عميقاً، وهو لا يلقي الضوء على علم الآثار من زوايا مثيرة للاهتمام، ولا يقدم وصفاً جميلاً للمناظر الطبيعية، ولا يتصدى للمشكلات الاقتصادية، ولا يتأمل في القضايا العرقية - وليس فيه من تاريخ.

إنه في الواقع مجرد كأس صغيرة من الجعة - مجرد كتاب صغير للغاية يحفل بالأعمال اليومية والأحداث اليومية.

جلسة على تل

(مع الاعتذار الواجب للويس كارول)

سأخبرك كل ما أستطيع
إن كنت ستحسن الإصغاء؛
التقيت بشاب واسع الاطلاع
يجلس على تل.
«من أنت يا سيدي؟» قلت له.
«وعم تبحث؟»
انتشر جوابه في رأسي
كلطخة دم على صفحة من كتاب.
قال: «أفتش عن أوان قديمة
من أيام ما قبل التاريخ،
ثم أقيسها بالكثير
والكثير من الطرق المختلفة.
ثم أبدأ (مثلك) بالكتابة؛

لكن كلماتي أطول بمرتين
من كلماتك، أكثر علماً بكثير.
إنها تثبت خطأ زملائي!«
لكنني أنا كنت عندها أفكر في خطة
لقتل مليونير

وإخفاء جثته في عربة
أو في ثلاجة كبيرة ما.
فهمت، وقد أعياني الرد
وانتابني شيء من الخجل:
«تعال أخبرني كيف تعيش!
ومتى، وأين، ولماذا؟»
نبرته اللطيفة تنضح فكراً:
«خمسة آلاف عام مضت
هي، عندما أفكر فيها،
أفضل العصور التي عرفت.
أما أنت، فعليك تعلم ازدرأ ما بعد الميلاد
والتسلح بالبراعة وحسن الأداء،
عندها يمكنك القدوم معي والتنقيب
دون أن تلتفتي إلى الوراء».
لكنني كنت أفكر كيف أدرس

بعض الزرنيخ في الشاي
و لم أستطع في الحال أن أضبط
عقلي على ما قبل الميلاد.
نظرت إليه، وتنهدت برفق،
وجهه، بدوره، كان هنيئاً...
وهتفت: «تعال قل لي كيف تعيش؟،
وماذا تعمل بالضبط؟»
فقال: «أصطاد أشياء صنعها
رجال في كل مكان حلوا فيه،
أصورها وأصنفها
وأوضبها وأرسلها إلى أرض الوطن.
هي أشياء لا نبدلها بالذهب،
(علاوة، في الواقع، على النحاس!)
بل على رفوف المتاحف نعرضها
فهذا هو السلوك الصحيح.
أستخرج أحياناً مئام
ومئائل صغيرة مليئة بالفسوق،
لأنهم في أيام ما قبل التاريخ تلك
كانوا بدائين إلى أقصى الحدود!
بهذه الطريقة نتسلى،

هي ليست طريقة للإثراء
لكن علماء الآثار يحيون طويلاً
ويتمتعون بأفضل صحة».
في تلك اللحظة سمعته، لأنني كنت للتو
قد أُنجزت خطة
لوقاية جثة من الفناء
بنقعها في محلول ملحي.
فشكرته كثيراً لأنه حدثني
بالكثير من حسن الاطلاع،
وقلت إنني سأذهب معه
على متن حملة...
والآن، إن غمست بمحض المصادفة
أصابني في الحمض
أو حطمت آنية خزفية ما (بشكل أخرقاً)
لأنني لا أتمتع برباطة الجأش،
أو إن رأيت نهراً متدفقاً
وسمعت صرخة من بعيد،
أتنهد، لأنها تذكرني كثيراً
بذلك الشاب الذي تعلمت معرفته -
بطلته الدمثة، وكلامه البطيء،

أفكاره معلقة بماض بعيد،

وجيوبه مثقلة بكسر خرفية،

وهو يحاضر بعلم وتواضع،

ويستخدم كلمات طويلة لا أعرفها،

وعيناه، بتوهج وألق،

تجوسان الأرض هنا وهناك،

في سعيه الحثيث كي يريني

أن هناك أشياء يجب أن أعرفها

وأنتي معه ينبغي أن أمضي

كي أنقب في أحد تلك التلال!

الفصل الأول

ذاهبون إلى سورية

سننطلق إلى سورية في بضعة أسابيع!

التسوق، في فصل الخريف أو في فصل الشتاء، من أجل جو حار أمر تكتنفه صعوبات جمّة. إذ يكتشف المرء، في الوقت غير المناسب، أن ملابس الصيف الماضي التي كان يأمل بتفاؤل أن تفي بالغرض لا تفي بالغرض في الواقع. لسبب وحيد هو أنها تبدو (كالملاحظات الباعثة على الإحباط التي يمكن للمرء أن يقع عليها في لوائح ناقلي الأثاث) «مخدوشة، مكشوفة، وعليها ندوب». (ناهيكم عن أنها انكسخت وبهت لونها وصار شكلها غريباً!).

فإلى الأسواق والمتاجر، إذن، حيث:

«بالطبع سيدتي، لم يسألنا أحد عن هذا النوع من الأشياء حتى هذه اللحظة بالذات! لدينا هنا أطقم قصيرة ساحرة للغاية - بقياسات كبيرة وألوان قائمة».

آه! يا للقياسات الكبيرة المنفرة. كم هو مهين أن يكون قياسك كبيراً! وكم هو مهين أكثر أن يلاحظ الناس على الفور أن قياسك كبير.

(على الرغم من أن هناك أياماً أفضل تهتف فيها بائعة يلفها معطف رزين طويل أسود قاتلة: «لكن هل سيدتي حقاً امرأة بالغة؟»).

أنظر إلى الأطقم القصيرة ذات لمسات الخملة غير المنتظرة
والحواشي المثنية. وأشرح له بحزن أن ما أريده هو حرير يمكن غسله
أو قطن.

«ربما ترغب سيدتي في أن تجرب قسم الأسفار لدينا».

تجرب «سيدتي قسم الأسفار «لدينا»- لكن دون كبير أمل. ما تزال
الأسفار حتى اليوم محاطة بعوالم من الأوهام الرومانسية. إنها تحمل
لمسة من فردوس مفقود- الفتيات هن من يذهبن في أسفار- الفتيات
النحيلات واليانعات اللواتي يلبسن بناطيل من كتان لا يتجدد، واسعة
للغاية حول القدمين وتلتصق بالجسم عند الوركين، فتيات يمارسن
الرياضة بفرح ببذل اللعب. فتيات يحتفظ المتجر من أجلهن بثمانية
عشر نوعاً مختلفاً من السراويل القصيرة!

ييدي المخلوق اللطيف المكلف بقسم الأسفار «لدينا» تعاطفاً
واضحاً.

«آه، لا، سيدتي، ليست لدينا قياسات كبيرة» (يا للهول! قياسات
كبيرة وأسفار؟ أين الرومانسية في هذا؟)
ويضيف:

«لن تناسبك، ألا تظنين ذلك؟»

أوافق بحزن أنها لن تناسبني.

تغلب قبعات السفاري على القسم الاستوائي «لدينا». قبعات
سفاري بنية. قبعات سفاري بيضاء. قبعات سفاري ذات تصاميم
خاصة. وإلى جانب قبعات لينة مزدوجة، عابثة بعض الشيء، يزهر
القرنفلي والأزرق والأصفر فيها كأزهار استوائية غريبة. وهناك

أيضاً حصان خشبي كبير وتشكيلة من سراويل ركوب الخيل.

لكن- أجل- هنالك أشياء أخرى. ها هو ذا ثوب يناسب زوجات
بناة الإمبراطورية. ثم قماش الشانتون! معاطف وتنورات من الشانتون
بتصاميم بسيطة- هراء الفتيات ليس موجوداً هنا- تناسب الأجساد
الكبيرة والأجساد الضامرة! أنتقل إلى حجرة فيها تصاميم وقياسات
متنوعة. وما تكاد تمضي بضع دقائق حتى أستحيل زوجة صاحب!

ما تزال تساورني بعض الشكوك- لكنني أقمعها- فالثوب، في
نهاية المطاف، لطيف وعملي ويمكنني أن أندس فيه.

ينتقل اهتمامي إلى اختيار النوع المناسب من القبعات. والواقع أن
النوع المناسب من القبعات لم يعد موجوداً اليوم، وعلي أن أكلف
أحدًا بصنعها من أجلي، وهو أمر ليس بالسهولة التي يبدو عليها.

إن ما أريده تحديداً، وما أنا عازمة على الحصول عليه، وما هو من
شبه المؤكد أنني لن أحصل عليه، هو قبعة من اللباد ذات أبعاد معقولة
تناسب رأسي. قبعة من ذلك النوع من القبعات التي كان الناس
يضعونها على رؤوسهم منذ عشرين عاماً تقريباً عندما يصطحبون
كلابهم في نزهة أو يذهبون للعب جولة من الغولف. أما الآن، فلم
يعد هناك، ويا للحسرة، سوى الأشياء التي يعلقها المرء على رأسه-
فوق إحدى عينيه، أو فوق إحدى أذنيه، أو على قفا عنقه - بحسب
ما تمليه آخر صيحات الموضة - أو القبعة اللينة المزدوجة التي يزيد
قطرها عن ياردة كاملة.

أشرح للبائع أن القبعة التي أريد شراءها هي قبعة ذات تاج يشبه تاج
القبعة اللينة المزدوجة لكنها تتمتع بربع قياس حافظتها.

«لكنهم يصنعونها عريضة من أجل الوقاية التامة من الشمس يا

سيدتي».

«بالطبع، لكن المكان الذي سأسافر إليه تسوده، باستمرار تقريباً، رياح عاتية ليس من شأنها إبقاء قبعة ذات حافة على رأس المرء أكثر من دقيقة».

«يمكننا إضافة جبل من المطاط يا سيدتي».

«أريد قبعة ذات حافة لا تزيد عن هذه التي على رأسي».

«بالطبع سيدتي، قبعة بتاج ضحل ذات مظهر جميل للغاية».

«لا أريد قبعة ذات تاج ضحل! تلك القبعة ستفي بالغرض تماماً».

لقد انتصرت! نختار اللون - واحداً من تلك الظلال الجديدة التي تحمل أسماء جميلة على شاكلة: ترابي، صدئي، طيني، حجري، غباري، الخ...

ثم بضع مشتريات ثانوية - مشتريات تبنني غريزتي أنها ستكون غير ذات نفع أو أنها ستوقعني في مشاكل جمّة. حقيبة سفر ذات سحب مثلاً. الحياة في أيامنا هذه تخضع لسلطة السحاب التي لا ترحم وتعقيداته التي لا تعد ولا تحصى. بلوزات ذات سحب يقفل باتجاه الأعلى، تنورات ذات سحب يقفل باتجاه الأسفل، بدلات تزلج تنتشر السحابات في كل أرجائها. أثواب نسائية صغيرة ذات سحبات لا فائدة منها بالتأكيد، بل هي موجودة لمجرد المرح.

لماذا؟ وهل هناك ما هو أكثر خطراً من سحب ينقلب عليك بلووم؟ فهو يورطك في مآزق أكبر بكثير من تلك التي يوقعك فيها أي زر أو مشبك أو لاقط أو إيزيم أو خطاف.

اجتاحت والدتي، في الأيام الأولى للسحابات، موجة من الحماسة

لهذا الابتكار اللذيذ، فاقنتت مشدين صنعا من أجلها مزودين من
 الأمام بسحاب يقفل إلى الأعلى. لكن النتائج كانت مؤسفة إلى أبعد
 حدا فلم يقتصر الأمر على أن عملية شد السحاب إلى الأعلى كانت
 مفعمة بالكثير من الألم- بل إن السحاب كان يرفض بعناد أن يحل!
 فتحول خلع المشد إلى ما يشبه عملاً جراحياً! وقد بدت والدتي لبرهة
 من الوقت، بالنظر إلى الاحتشام الفيكتوري الفرح الذي كانت عليه،
 قادرة على العيش مع المشد ما بقي لها من أيام- كامرأة عصرية في
 مشد حديدي!

ولذلك كنت أنظر إلى السحاب بكثير من الشك، على الدوام.
 يبدو أنه يبدو أن كل حقائب السفر بلا استثناء هي من النوع المزود
 بسحاب.

«أساليب الشد القديمة بطلت يا سيدتي» يقول البائع وهو يرمقني
 بنظرة إشفاق.

ثم يضيف مقدماً عرضاً توضيحياً: «الأمر، كما ترين، بسيط
 للغاية».

بساطته لا شك فيها بالتأكيد- ثم، عندئذ، أفكر في أن الحقيبة
 خاوية.

أقول وأنا أتهد: حسناً. على المرء أن يجاري الزمن».

وأشتري الحقيبة وبعض الهواجس ما تزال تتباني.

أنا، الآن، المالكة الفخورة لحقيبة سفر ذات سحاب ومعطف
 زوجة باني الإمبراطورية وتورتها وقبعة مقبولة بالإجمال.

ما يزال هنالك الكثير مما ينبغي فعله.

هكذا، أنتقل إلى قسم القرطاسية وأشتري عدداً من أقلام الحبر وأقلام التخطيط. وأعلم، من خبرتي السابقة، أنه على الرغم من أن قلم الحبر يتصرف بطريقة نموذجية في إنكلترا، فإنه يعتبر نفسه، في اللحظة التي يطلق له فيها العنان في الصحراء، حراً في الإضراب عن العمل ويتصرف على هذا الأساس سواء برشقي ورشق ثيابي ومفكرتي وكل ما هو مفيد بالحبر بشكل عشوائي، أو بأن يرفض، يخفر، أن يقوم بما يزيد عن رسم خدوش غير مرئية على سطح الورقة. اشتري كذلك قلمي رصاص متواضعين. أقلام الرصاص، لحسن الحظ، ليست مزاجية. وعلى الرغم من مهارتها الكبيرة في التواري عن الأنظار دون ضجة، إلا أنه يوجد في متناول يدي مصدر دائم لأقلام الرصاص. فما نفع المهندس المعماري، في نهاية المطاف، إن لم يكن لاقتراض أقلام الرصاص منه؟

يضم بند المشتريات التالي أربع ساعات يد. الصحراء ليست رفيقة بالساعات. فما أن تمضي بضعة أسابيع هناك، حتى تكف الساعة في يدك عن القيام بعملها. يقال إن الوقت نمط تفكير. ثم تتخذ خياراً من اثنين، إذ تكف عن العمل لثمان أو تسع مرات يومياً لفترات تبلغ عشرين دقيقة في كل مرة، أو تبدأ في الركض إلى الأمام من غير تمييز. وأحياناً تتناوب، بحياء، على الأمرين. قبل أن تتوقف أخيراً عن العمل بشكل نهائي. فيضع المرء في معصم يده الساعة رقم اثنين وهكذا. وهنالك بند مشتريات إضافي قوامه ساعتان يد رخيستان استعداداً للحظة التي سيقول زوجي لي فيها: «هل لك أن تقرضيني ساعة كي أعطيها لرئيس العمال؟»

يتمتع رؤساء عمالنا العرب، بغض النظر عن كفاءتهم، بما يمكن

وصفه بأنه يد ثقيلة على كل أنواع الأدوات الزمنية. وتحديد الوقت يتطلب منهم، في مطلق الأحوال، قدراً كبيراً من الجهد الذهني. إذ يمكنك رؤيتهم بساعات يد كبيرة، مستديرة، كوجه القمر يضعونها، بجدية بالغة، رأساً على عقب ويحدقون فيها بتركيز مؤلم بحق كي تكون الإجابة، في نهاية المطاف، باطلة! وهم، فضلاً عن ذلك، يعبتون هذه الكنوز بقوة تعجز معظم النوابض عن الصمود أمامها!

لذلك يحدث أحياناً أن لا ينتهي الموسم إلا وقد تمت التضحية بساعات الحملة الواحدة تلو الأخرى. وبذلك تصبح ساعتنا اليد الرخيستان هاتان وسيلة لإرجاء ذلك اليوم المشؤوم.

التوضيب

هنالك عدة مدارس للتوضيب. إذ يبدأ البعض في التوضيب قبل مدة من موعد السفر تتراوح بين أسبوع وأسابيعين. وهناك من يرمون في الحقيبة بضعة أشياء قبل ساعة ونصف الساعة من موعد السفر. وهناك الموضبون الحريصون ولا النهمون للمناديل الورقية! وهناك من يزدرون المناديل الورقية ويوضبون حقائبهم كيفما اتفق، متكلمين على قادم الأيام! وهناك من يخلفون وراءهم كل ما يحتاجون إليه عملياً! وهناك من يأخذون كميات كبيرة من أشياء لن يحتاجوا إليها على الإطلاق!

شيء واحد يمكن قوله باطمئنان عن التوضيب الآثاري - إنه يقوم، بصورة رئيسة، على الكتب. أية كتب ينبغي أخذها - أية كتب يمكن أخذها، أية كتب يوجد متسع لها - أية كتب يمكن (بكثير من الحزن!) أن تترك؟ لدي قناعة راسخة أن كافة علماء الآثار يوضبون حقائبهم على الشكل التالي: يقررون العدد الأقصى من حقائب الثياب التي

ستسمح لهم شركة واغون لي، ذات طول الأناة، بنقلها. ثم يحشون هذه الحقائق بالكتب حتى حافتها. ثم يُخرجون، على مضض، بضعة كتب ويضعون في الفراغ الذي حصلوا عليه بهذه الطريقة القمصان والمنامات والجوارب، الخ.

يتكون لدي، عندما أنظر إلى غرفة ماكس، انطباع مفاده أن فراغ الغرفة برمته مملوء بالكتب! وألتقط، من خلال فرجة بين الكتب، وجه ماكس القلق.

يسألني: «هل تظنين أنه سيكون لدي متسع لكل هذه الكتب؟»

الإجابة بالنفي هي على قدر من البداهة يبدو في الإفصاح عنها الكثير من القسوة.

يدخل إلى غرفتي في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر ويسأل بلهفة: «هل هناك في حقائبك من متسع؟»

كان على خبرتي الطويلة أن تنبهني إلى ضرورة الرد بحزم بأن «لا»، لكنني أتردد ويقع علي الحكم على الفور.

«إن كنت تستطيعين أن تضيفي غرضاً أو اثنين»

«ليست كتباً؟»

ينظر إلي كما لو أن المفاجأة تكاد تصيبه بالإغماء ويقول: «بالطبع كتب - وأي شيء آخر يمكن أن تكون؟»

ثم يتقدم، ويكبس مجلدين كبيرين فوق ثوب زوجة باني الإمبراطورية الذي يتمدد بأناقة على قمة حقيبة.

أطلق صرخة احتجاج، لكن بعد فوات الأوان.

«هذا هراء!»، يقول ماكس، «هنالك الكثير من المتسع!» ويضغط

بقوة على غطاء الحقيبة الذي يأبى أن يغلق بعناد.

ثم بلهجة متفائلة: «إنها ليست مليئة تماماً حتى في هذه اللحظة».

لحسن الحظ، يتحول اهتمامه، في تلك اللحظة، إلى ثوب من الكتان المطبوع، المطوي والممدد في حقيبة أخرى. «ما هذا؟»
أجيبه إنه ثوب.

يقول ماكس: «مثير للاهتمام. واجهته مليئة بموضوعات الخصوبة».

من أكثر البواعث على ضيق المرأة حين تكون زوجة لعالم آثار معرفته الخبيرة بما يكتنف أشد الأشكال براءة!

يلاحظ ماكس، عرضاً، في الخامسة والنصف من بعد الظهر، أنه يحسن به أن يذهب ويتتاع بضعة قمصان وجوارب وأشياء مماثلة. لكنه يعود بعد ثلاثة أرباع الساعة ساخطاً لأن كافة المتاجر تقفل أبوابها في السادسة مساءً. وعندما أقول له ذلك، يجيب بأنه لم يلاحظ هذا الأمر من قبل.

يقول الآن إنه لم يعد لديه ما يفعله باستثناء «ترتيب أوراقه».

أخلد إلى الفراش في الحادية عشرة مساءً تاركة ماكس جالساً إلى مكتبه (الذي يمنع ترتيبه أو مسح الغبار عنه تحت طائلة أشد العقوبات) غارقاً في رسائل وفواتير وكتيبات ورسوم فخاريات وأعداد لا تحصى من الكسر الخزفية وعلب ثقاب متنوعة لا يوجد فيها أي عود ثقاب بل حبات غريبة مغرقة في القدم.

يدخل إلى غرفة النوم في الساعة الرابعة صباحاً والإثارة بادية على محياه وفي يده كوب من الشاي كي يعلن أنه عشر، أخيراً، على ذلك

المقال المشوق للغاية عن اللقى الأناضولية الذي أضعه في شهر تموز المنصرم. قبل أن يضيف إنه يأمل أنه لم يوقظني.

أجيبه بأنه أيقظني بالطبع وأنه من الأفضل له أن يحضر كوباً من الشاي لي أيضاً!

يعود مع الشاي ويقول إنه عثر، كذلك، على عدد كبير من فواتير كان يظن أنه سددها. أنا، بدوري، أعاني من هذه الخيرة. وتنفق، نحن الاثنين، أن الأمر مخزن.

في التاسعة صباحاً، أستدعي بوزني الثقيل، كي أجلس على حقائق ماكس المتورمة.

يقول ماكس بتواضع: «إن لم تستطعي إغلاقها، فلا أحد آخر يستطيع!»

ننجح، أخيراً، في إنجاز المهمة الخارقة للطبيعة البشرية بالاستعانة بالوزن الساحق، وأعود إلى معضتي التي هي، كما أبلغتني عنها نظرتي النبوية بالضبط، الحقيقة ذات السحاب. لقد بدا الأمر في متجر السيد غوتش، وكانت الحقيقة خاوية حينذاك، كان السحاب يسيراً وجذاباً ويختصر الجهد والوقت. كم بدت حركته جيئة وذهاباً سلسة! أما الآن، وقد امتلأت الحقيقة عن آخرها، فيبدو إغلاقها أشبه بمعجزة تفوق قدرات البشر. كان علي جمع الحافتين معاً بدقة رياضية، وفي اللحظة التي يبدأ السحاب فيها في التحرك ببطء، تبدأ التعقيدات بسبب زاوية كيس الإسفنج. وعندما أنجح في إغلاقها بعد لأي، أحلف أيماناً مغلطة بأنني لن أفتحها ثانية إلا بعد أن نصل إلى سورية!

بيد أنه يتبين لي، بعد شيء من التفكير، أن هذا الأمر مستحيل تقريباً. فماذا عن كيس الإسفنج الذي ذكرته؟ هل سأمضي خمسة

أيام في السفر دون استحمام؟ لكن عدم الاستحمام يبدو، في هذه اللحظة، أفضل بكثير من فتح الحقيبة ذات السحاب!

نعم، لقد حانت اللحظة الآن ونحن نقلع بالفعل. خلفنا وراءنا الكثير من الأمور المعلقة، وخذلتنا المصبغة كالعادة. إذ لم يف منظفو الملابس، لبالغ حزن ماكس، بعهدوهم - لكن أية أهمية لذلك بعد؟
إننا ذاهبون!

نخال، للحظة أو اثنتين، أننا لن نذهب! فحقائب ماكس ذات المظهر الخادع تفوق قدرة سائق سيارة الأجرة على حملها. فيتصارع معها بمعونة ماكس وينجحان، في نهاية المطاف، في رفعها إلى سيارة الأجرة بمساعدة أحد عابري السبيل.

تحملنا السيارة إلى فيكتوريا.

عزيزتي فيكتوريا، بوابة العبور إلى العالم خارج إنكلترا، كم أحب رصيفك القاري. كم أحب القطارات على كل حال - وكم أحب نشوة تنشق تلك الرائحة الكبريتية - البعيدة كل البعد عن الروائح النفطية الثقيلة الباردة المنبعثة من السفينة التي تصيبي بالإحباط على الدوام بما تبثني به من أيام قادمة سيصيني فيها الدوار، أما القطار - القطار الكبير الذي يشخر مستعجلاً الانطلاق فهو حلسو المعشر، بمحركه الكبير الذي ينفث مطلقاً سحباً من البخار وكأنه يقول بنفاذ صبر: «علي أن أنطلق - علي أن أنطلق - علي أن أنطلق!»، فهو صديق! لأنه يشاركك المزاج - فانت، بدورك، تقول: «علي أن أنطلق - علي أن أنطلق - علي أن أنطلق...»

يتحلق الأصدقاء عند باب عربة النوم الخاصة بنا في انتظار رحيلنا.

تبادل العبارات الحمقاء المعهودة. تنسكب الكلمات الشهيرة الأخيرة من بين شفتي، على شكل تعليمات خاصة بالكلاب، وأخرى بالأطفال، وعن ضرورة مراسلتنا، وعن إرسال كتبنا، وعن أشياء نسيناها «أظن أنك ستجدونها على البيانو، لكنها قد تكون على رف الموقد في غرفة الاستحمام». كل الأشياء التي قيلت من قبل، ولا حاجة بنا، في نهاية المطاف، إلى قولها من جديد!

ماكس محاط بأقربائه، وأنا بأقربائي.

تقول شقيقتي وعيناها مغرورتان بالدموع إنها تشعر أنها لن تراني ثانية. لا أتأثر كثيراً بما قالته لأن هذا الشعور ينتابها في كل مرة أمضي فيها إلى الشرق. تسألني عما يجب أن تفعل إن أصيبت روزاليند بالتهاب زائدة. لا يوجد ما يستدعي إصابة ابنتي ذات الأربعة عشر ربيعاً بالتهاب الزائدة، والإجابة الوحيدة التي تخطر في بالي هي: «لا تجري العملية بنفسك!» لأن شقيقتي معروفة بسرعة لجونها إلى المقص في مواجهة البثور ومن أجل قص الشعر وصنع الملابس - وعلي أن أقر أنها تفعل ذلك بنجاح كبير في العادة.

أتبادل الأقرباء مع ماكس، وتمثني حماتي العزيزة على العناية بنفسني مفترضة أنني أعرض نفسي بشرف لخطر شخصي كبير.

تنطلق الصافرات وأخاطب صديقتي وسكرتيرتي ببضع كلمات أخيرة مسعورة. هل ستقوم بكل ما لم يتم إنجازها وتوبخ المصبغة ومنظفي الملابس. بما يستحقونه وتزود الطاهي برسالة توصية جيدة وترسل الكتب التي لم أستطع توضيها وتستعيد مظنتي من سكوتلانديارد

وتكاتب، على نحو ملائم، الكاهن الذي اكتشف ثلاثة وأربعين خطأ
نحوياً في كتابي الأخير وهل ستشتري بذور الجزر والقرع من أجل
الحديقة؟ نعم، ستقوم بكل ذلك - وسترسل إلي بريقة في حال وقوع
أزمة في الوطن أو في عالم الأدب. أقول لها أن لا مشكلة. فهي مفوضة
بالتصرف. بموجب وكالة قانونية وتستطيع القيام بكل ما يحلو لها.
فتنظر بشيء من التوجس وتقول إنها ستمارس أكثر درجات الحرص.
صافرة أخرى! أودع شقيقتي وأقول لها بانفعال إنني، بدوري، أشعر
أنني لن أراها من جديد وأن روزاليند قد تصاب بالتهاب في الزائدة.
تقول شقيقتي هذا هراء، فما الذي يستدعي إصابتها بذلك؟ نقفز إلى
عربتنا، ويشخر القطار ويتحرك. لقد أقلعنا.

ينتابني، على مدى خمس وأربعين ثانية، شعور رهيب قبل أن
تعاودني البهجة من جديد مع مغادرتنا محطة فيكتوريا. ها نحن أولئك
قد بدأنا رحلتنا الجميلة والمثيرة إلى سورية.

هنالك ما هو مميز في عربة النوم على الرغم من أنها ليست مريحة
بقدر ركن في عربة عادية من الدرجة الأولى. لكننا نستقل عربة النوم،
على الدوام، بسبب حقائب ماكس التي لا يمكن لأية عربة عادية
أن تتسامح معها. كما أن ماكس لا يغامر بكتبه الثمينة بعد تسجيل
الأمثلة.

نصل إلى دوفر كي نجد البحر هادئاً. بيد أنني أنسحب إلى «صالون
السيدات» وأتمدد هناك وأستغرق في مشاعر التشاؤم التي تبعثها فيّ
حركة الموج. لكننا سرعان ما نصل إلى كاليه حيث يقدم المضيف
الفرنسي رجلاً ضخماً يرتدي زياً أزرق كي يتدبر أمر حقائبي قائلاً:

«ستجدينه سيدتي في الجمارك». أسأله: «وما هو رقمه؟». فيجيبني المضيف على الفور مؤنباً:

«Madame! Mais, c'est le charpentier du bateau!»⁽¹⁾

أخجل قليلاً— ثم أفكر، بعد بضع دقائق، إنها ليست إجابة حقاً. لماذا؟ لأن كونه *le charpentier du bateau* لا يسهل مهمة تمييزه بين بضع مئات من الرجال الذين يرتدون الزي الأزرق ويصرخون جميعاً: «*Soixante treize?*» الخ... كما أن مجرد صمته لن يكون، بدوره، علامة كافية. وفضلاً عن ذلك، هل يوهمه كونه *le charpentier du bateau* أن يميز، بثقة مؤكدة، امرأة إنكليزية في منتصف العمر وسط حشد من الناس؟

ينضم إلي ماكس عند هذه المرحلة من تأملاتي ويقول إنه حصل على حمال من أجل أمتعتي. فأشرح له كيف أن *le charpentier du bateau* أخذ أمتعتي، فيسأل ماكس لماذا سمحت له بذلك؟ ينبغي أن تبقى كافة الحقايب معاً. أوافق على ما قال لكنني ألتمس العذر بأن ذكائني يخونني على الدوام عندما أكون في البحر. يقول ماكس: «آه، حسناً، سنقوم بجمعها عندما نصل إلى الجمارك» حيث سننتقل هناك إلى جحيم صراخ الحمالين وإلى لقاء النموذج الوحيد لامرأة فرنسية غير محببة— هي موظفة مكتب الجمارك، وهي كائن حرمة الطبيعة من السحر والأناقة ومن كافة النعم الأنثوية. تنخس الحقايب وتحقق فيها وتسال بعدم تصديق: «*Pas de cigarettes?*»⁽²⁾، قبل أن تنخر على مضض وتخربش على حقائبنا بالطباشير بعض الأحرف الهيروغليفية

١- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "سيدتي! لكنه نجار السفينة!" (المترجم)

٢- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "لا سجائر" (المترجم)

الغامضة ونخرج من هناك إلى قطار الشرق وإلى الرحلة عبر أوروبا.

قبل سنوات وسنوات، عندما كنت أسافر إلى الريفييرا أو إلى باريس، كان مرأى قطار الشرق السريع في كاليه يسحرني على الدوام وكنت أتوق إلى السفر فيه. أما الآن، فقد أصبح هذا القطار صديقاً قديماً، لكن التشويق لم يخب تماماً. إنني أسافر فيه الآن! أنا في داخله! بل أنا، في الواقع، في العربة الزرقاء التي كتبت عليها من الخارج العبارة البسيطة التالية: «كاليه- اسطنبول». إنه قطاري المفضل دون ريب. أحب إيقاعه الذي يبدأ بنغمة أليغرو وهو يتمايل ويتحشرج ويقذف الركاب من جانب إلى جانب في استعجاله المجنون لمغادرة كاليه والغرب، ثم يتباطأ بالتدرج إلى مستوى نغمة راينتاندو في تقدمه نحو الشرق قبل أن ينتهي الأمر به إلى نغمة ليغاتو واضحة.

أرفع الستارة في الصباح الباكر من اليوم التالي وأراقب الأشكال الباهتة للجبال في سويسرا، ثم ننزل إلى سهول إيطاليا مروراً ببلدة ستريزا الجميلة وبحيرتها الزرقاء. ثم نصل، في وقت لاحق، إلى المحطة الأنيقة التي هي كل ما متاح لنا رؤيته من مدينة البندقية، ونطلق من جديد على طول ساحل البحر إلى تريستا ثم إلى يوغسلافيا. تتناقص سرعة القطار بالتدرج وتصبح الوقفات أطول وتبدأ الساعات المعلقة في المحطات في عرض مواقيت متضاربة. أسماء المحطات مكتوبة بأحرف ذات أشكال مثيرة ومظهر غير مألوف. المحركات ضخمة يشي مظهرها بأنها مرتاحة وتنفث دخاناً شديراً كالحل السواد. فواتير عربة الطعام مكتوبة بعمولات تبعث على الحيرة كما تظهر زجاجات مياه معدنية غير مألوفة. هنالك رجل فرنسي ضئيل جالس إلى طاولة قبالتنا، وهو منكب بصمت على دراسة فاتورته منذ بضعة دقائق.

ثم يرفع رأسه وتلتقي عيناه بعيني ماكس. فيرتفع صوته المشحون
بالانفعالات بالشكوى:

«*Le change des Wagons Lits, c'est INCROYABLE!*»^(٣).

وفي الجهة الأخرى من الردهة، يطلب رجل أسمر ذو أنف معقوف
قيمة فاتورته بالعملات التالية: (أ) الفرنك، (ب) اللير، (ج) الدينار،
(د) الليرة التركية، (هـ) الدولار. وعندما يعود إليه نادل عربية الطعام
بالمطلوب بعد لأي، ينكب المسافر على الحساب بصمت ثم يسدد،
بما هو عليه من دماغ مالي بارع، قيمة الفاتورة بالعملة المواتية لجيبه.
ويشرح لنا كيف أنه استطاع، بهذه الطريقة، توفير ما يعادل خمسة
بنسات بالعملة الإنكليزية!

يصعد موظفو الجمارك الأتراك إلى متن القطار في الصباح
ويتحركون بروية ويبدون اهتماماً كبيراً بأمعتنا. يسألونني لماذا لدي
كل هذا العدد من الأحذية؟ إنها كثيرة للغاية. لكنني أجيبهم أنني
لا أحمل سجائر لأنني لا أدخن، فلماذا لا أصطحب بضعة أزواج
إضافية؟ يقبل موظف الجمارك هذا التفسير، إذ يبدو له عقلاً. ثم
يسألني ما هذا المسحوق في هذه العلبة الصغيرة؟

أقول إنه مسحوق للحشرات، كي أجد أن الأمر غير مفهوم. إذ
يتجهم وجه الرجل ويبدو متشككاً. لا بد أنه يشبه في كوني مهربة
مخدرات. يقول بنبرة اتهام إن هذا المسحوق ليس للأسنان ولا للوجه،
فلأني شيء يستخدم إذن؟ فأقدم فاصلاً إيمائياً ممتعاً أحك جلدي
بطريقة واقعية وأقبض على المتطفل. ثم أنثر المسحوق. آه، أصبح الأمر

٣- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أسعار الصرف لدى واغون لي لا تصدق!"
(الترجم)

مفهوماً يلقي رأسه إلى الخلف ويزجر ضاحكاً ويردد كلمة تركية ما. هذا ما يعنيه المسحوق بالنسبة إليهم! ويردد النكتة أمام أحد زملائه. ثم يغادران وقد بدا أنهما استمتعا بها كثيراً. يصل الآن سائق القطار كي يلقننا بعض التعليمات. سوف يعودون بجوازات سفرنا وسوف يسألوننا عن مقدار المال الذي نحمله، فنجيهم لدينا «*effectif*?» *vous comprenez*»^(٤). أحب كلمة *effectif* - إنها تعني بدقة كمية المال الفعلية المتوفرة نقداً. ويتابع السائق قائلاً «ستقولون إنكم تحملون هذا القدر من المال السائل تماماً!» ويخبرنا بالمبلغ، فيعترض ماكس قائلاً إننا نحمل أكثر من ذلك. «لا يهم. إن أخبرته بذلك ستتسبب لنفسك بالمتاعب. سوف تقول له إنك تحمل رسالة ائتمان أو شيكات سياحية والقدر المطلوب من المال السائل». ويضيف مفسراً ما يقول: «إنهم لا يهتمون بما تحمله فعلاً، هل تفهم؟ لكن الإجابة يجب أن تكون *en règle*»^(٥). سوف تقول أحمل هذا القدر من المال».

يأتي، في هذه اللحظة، السيد المكلف بالمسائل المالية ويدون إجاباتنا قبل أن نجيب. كل شيء *en règle*. أما الآن، فنصل إلى اسطنبول وننسل بين بيوت غريبة ذات مغاليق خشبية ويظهر على ميمنا البحر وقلاع ثقيلة من الحجر.

هذه المدينة، اسطنبول، تصيبك بالجنون - لأنك تعجز عن رؤيتها عندما تكون فيها! إذ لا يستطيع المرء أن يرى اسطنبول، فعلياً، إلا عندما مغادرته الجانِب الأوروبي إلى الشاطئ الآسيوي عبر مضيق البوسفور. جميلاً يبدو صباح هذا اليوم، صباح صاف، مشرق،

٤ - بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "بالقدر المطلوب، هل تفهمون؟" (الترجم)

٥ - بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "قانونية؟" (الترجم)

وشاحب لا أثر للضباب فيه ومآذن المساجد تطاول السماء.

يقول سيد فرنسي: «آيا صوفيا غاية في الجمال».

يوافقه الجميع على ما يقول باستثناء مؤسف وحيد من جانبي. فأنا، ويا للحسرة، لم أعجب بآيا صوفيا يوماً. قد يكون ذلك عيباً مشؤوماً في ذائقتي. لكن هذا هو الواقع. إذ بدا حجمه لي، على الدوام، غير مقبول. تشعرني أفكار المنحرفة بالعار، فألتزم الصمت.

الآن إلى القطار الذي ينتظرنا في محطة حيدر باشا، حيث يُقدم لنا، مع انطلاقه إفطار كنا الآن في أمس الحاجة إليه! ثم نمضي يوماً جميلاً في رحلة على طول ساحل بحر مرمرية الذي تتناثر فيه جزر تبدو مبهمه وجميلة. أفكر للمرة الألف في أنني أرغب في اقتناء واحدة من هذه الجزر. كم هي غريبة تلك الرغبة في امتلاك جزيرة! وهي رغبة يعاني منها معظم الناس، إن عاجلاً أم آجلاً. إنها ترمز، في العقل البشري، إلى الحرية والوحدة والتحرر من كافة الهموم. بيد أنها تعني، برأيي الشخصي في الواقع، الأسر لا الحرية. إذ سيضطر المرء، على الأرجح، من أجل تدبير شؤون مدينته، إلى الاعتماد على البر كليا، وسيضطر باستمرار إلى كتابة لوائح طويلة من مشتريات البقالة وسيعاني الأمرين في تدبير اللحم والخبز وسيقوم بكل أعمال تنظيف المنزل بنفسه لأنه لن يجد سوى قلة من خدم المنازل الذين يوافقون على العيش في جزيرة بعيداً عن أصدقائهم وعن دور السينما في غياب أية وسيلة للتواصل مع زملائهم. لكنني كنت أتخيل، على الدوام، أن الأمر، في حالة الجزر الواقعة في بحر الجنوب، سيكون بالغ الاختلاف! هناك، يجلس المرء طوال اليوم بكسل ويتناول أفضل أنواع الفاكهة معفياً من غسيل الأطباق والسكاكين وشوك الطعام ومن المشاكل التي تسبب

بها الدهون للبلوعة! بيد أن الواقع هو أن أفراد المجموعة الوحيدة من سكان جزر بحر الجنوب التي قيص لي مقابلتها كانوا يتناولون أطباقاً من لحم العجل الحار المطهو بالغلي البطيء والمغلف بالدهن وكانوا جالسين إلى مائدة غطاؤها غاية في القدارة.

لكن لا، فالجزيرة، أية جزيرة، هي جزيرة أحلام، وينبغي أن تكون كذلك! جزيرة لا أعمال كنس فيها ولا مسح للغبار وترتيب للأسرة ولا كي للملابس أو غسيل للأواني أو دهون أو مشكلات طعام أو لوائح بقالة أو صيانة مصابيح أو تقشير للبطاطس أو تخلص من القمامة. ففي جزيرة الأحلام لا يوجد سوى الرمل الأبيض والبحر الأزرق - وربما منزل مقبول يتوسط موقعه مشرق الشمس ومغربها - وشجرة التفاح والطيور المغردة ...

يقاطعني ماكس، عند هذه النقطة من تأملاتي، سائلاً إياي عما أفكر فيه. أجيبه ببساطة: «الجنة!».

فيقول ماكس: «آه. انتظري حتى تري نهر جفجفج!».

أسأله إن كان جميلاً بالفعل، فيجيبني إنه لا يعلم لكنه، في الواقع، جزء مثير للغاية من العالم لا يعلم عنه أحد شيئاً بالفعل! يشق القطار دربه في ممر ضيق مخلفاً البحر وراءه.

نصل، في صباح اليوم التالي، إلى البوابات الكيكلية ونطل على واحد من أجمل المناظر التي رأيتها في حياتي. الأمر أشبه بالجلوس على حافة العالم والنظر إلى الأسفل، إلى الأرض الموعودة فيحس المرء بما لا بد من أن يكون موسى قد أحس به بالتأكيد. لأنه هنا، كذلك، ليس هناك من سبيل إلى الدخول... فذلك الجمال الرقيق، الضبابي، الأزرق القاتم هو أرض لن يتمكن المرء من بلوغها. إذ أن البلدات

والقرى الحقيقية عند بلوغ ذلك المكان هي العالم اليومي العادي، لا هذا الجمال الساحر الذي يدعوك إلى النزول...

يصفر القطار فنصعد من جديد إلى مقصورتنا.

ثم إلى حلب. ومن حلب إلى بيروت التي سيقابلنا فيها مهندسنا المعماري وحيث سيتم هناك التمهيد للاستطلاع الأولي في الخابور وجفجغ الذي سيقودنا إلى اختيار أكمة مناسبة للتنقيب.

فالعلمية برمتها تبدأ من هنا، كما في حال السيدة بيتون^(٦). اصطد أرنبك أولاً.

وكذلك الأمر في حالتنا. اعثر على أكمتهك أولاً. وهذا، بالضبط، ما نحن في صددده.

٦- إيزابيلا ماري بيتون (١٨٣٦-١٨٦٥) كاتبة إنكليزية معروفة بكتبتها في الطهو والتدبير المنزلي (المترجم)

الفصل الثاني

رحلة استطلاع

بيروت. بحر أزرق، خليج مقوس، خط ساحلي طويل من جبال زرقاء ضبابية. ذلكم هو المشهد من مصطبة الفندق. ومن غرفتي، المطلة على اليابسة، أشاهد حديقة من أزهار بنت القنصل القرمزية. سقف الغرفة مرتفع وهي مطلية بطلاء مائي أبيض وتشبه، في هذا الجانب، السجن إلى حد ما. يضيء وجود مغسلة عصرية كاملة بصنوبريها وأنايب التصريف لمسة من حداثة جريئة^(٧). فوق المغسلة خزان كبير ذو شكل مربع يتصل بالصنوبرين ومزود بغطاء يمكن تحريكه. الخزان في الداخل مملوء بماء رائحته آسنة وهو متصل بصنوبر الماء البارد فحسب.

إن وصول تمديدات الماء إلى الشرق محفوف بالشراك. فكم من مرة يتدفق الماء البارد من صنوبر الماء الساخن والماء الساخن من صنوبر الماء البارد! وكم أتذكر على نحو جيد حوض استحمام في حمام «غربي» مجهز حديثاً حين تدفقت من صنوبر الماء الساخن كميات هائلة من ماء يغلي دون أن أحصل ولو على قطرة ماء بارد واحدة ودون أن أتمكن من إغلاق صنوبر الماء الساخن، ثم يعلق مزلاج الباب!

وفيما أنا أتأمل في أزهار بنت القنصل بحماسة وفي تجهيزات

٧- ملاحظة: كتبت هذه السطور قبل افتتاح فندق سان جورج الحديث.

الاستحمام باشمئزاز، أسمع نقراً على الباب. يظهر رجل أرمني
مربوع القامة يتسم بلطف. يفتح فاه ويشير بإصبعه إلى حلقومه
وينبس بنبرة مشجعة: «(Manger!)» .

بهذه الحيلة البسيطة يستطيع أقل الناس ذكاء أن يفهموا أن الطعام
يقدم الآن في غرفة الطعام.

هناك، أجد ماكس في انتظاري مع مهندسنا المعماري الجديد ماك،
الذي بالكاد أعرفه. سوف ننطلق في غضون بضعة أيام في حملة
تستمر ثلاثة شهور ندرس فيها المواقع المحتملة. وسوف يذهب معنا،
بصفة دليل وفيلسوف وصديق، حمودة، الذي عمل سنوات طوالاً
رئيساً للعمال في أور، وهو صديق قديم لزوجي وهو من سوف يرافقنا
بين مواسم التنقيب في شهور الخريف تلك.

ينهض ماك من كرسيه ويرحب بي بتهديب ويجلس إلى مائدة حافلة
بأطعمة لذيذة وإن تكن دهنية بعض الشيء. أتوجه إلى ماك يبضع
عبارات يفترض بها أن تكون ودية فيصدها ببراعة بالرد بكلمات
مثل: "آه، حقاً؟" أو "بالفعل" أو "غريب".

أشعر بشيء من الانقباض وتهيمن علي فناعة مزعجة أن معمارينا
الشباب سيرهن عن كونه واحداً من أولئك الأشخاص الذين ينجحون،
بين الفينة والأخرى، في جعلني بلهاء من شدة الخجل. الشكر لله أن
تلك الأيام التي كنت أخجل فيها من كل الناس قد ولت منذ زمن
بعيد. فقد اكتسبت، مع بلوغي منتصف العمر، قدراً معقولاً من رباطة
الجأش وحسن التصرف. ولذلك أهني نفسي، بين الحين والآخر،
على أن تلك المسألة السخيفة وقد ولت إلى غير رجعة! وأقول لنفسي
بسعادة: "لقد تغلبت عليه". ثم يظهر، في لحظة الثقة بالنفس تلك،

شخص غير متوقع يردني، من جديد، إلى حالة الغباء المذعور.

لا يجديني نفعاً القول لنفسي إن هذا الشاب ماك قد يكون، هو نفسه، خجولاً للغاية وإن خجله هو ما يجعله يشكل درعه الدفاعي - إذ تبقى ماثلة أمام عيني حقيقة إدراكي أنني، في مواجهة أسلوبه المترفع البارد وحاجبيه اللذين يرفعهما برقة وانتباهه اللبق بكلمات أعلم تمام العلم أنها لا تستحق عناء الاستماع إليها، أتضاءل أمامه بطريقة بادية للعيان وأجد نفسي أتقوه بكلمات أدرك تماماً أنها محض هراء. ومع انتهائنا من تناول الطعام، يعاجلني ماك بتوبيخ آخر.

إذ يقول بلطف رداً على تصريح مؤسف حول البوق الفرنسي صدر مني: "إنه ليس بالتأكيد كذلك؟"

وهو، محق تماماً بالطبع. فالبوق الفرنسي ليس فرنسياً.

يسألني ماكس، بعد الغداء، عن رأيي بماك. فأجيبه بحذر إنه لا يبدو عليه أنه يتكلم كثيراً. فيقول ماكس إنه شيء ممتاز. ويضيف لا أعلم ما يمكن أن يكون عليه الأمر حين أكون محتجزاً في الصحراء مع شخص لا يكف عن الكلام! "لقد اخترته لأنه يبدو من النوع الصموت!".

أقر أن في منطقته شيئاً من الوجهة. ويمضي ماكس إلى القول إنه ربما يكون خجولاً حقاً، لكنه سرعان ما سينفتح. ثم يضيف بلطف: "ربما يكون مذعوراً منك".

أعتبر الفكرة مشجعة وإن لم أشعر أنني مقتنعة بها.

لكنني أحاول إعطاء نفسي علاجاً عقلياً سريعاً.

فأقول لنفسي أنت، أولاً، في سن تصلحين معها أن تكوني أما لساك. وأنت، كذلك، كاتبة - كاتبة معروفة. وإلا لما كان اسم إحدى

شخصياتك قد اختير حلاً لواحدة من أحجيات صحيفة التايمز (وهي علامة على ذروة الشهرة!). وأنت، فضلاً عن ذلك، زوجة قائد الحملة! بالله عليك، إن كان لأحد أن يزجر أحداً لكنت أنت من سوف يزجر الشاب، لا الشاب من سوف يزجرك.

نقرر، في وقت لاحق، الخروج لتناول الشاي، فأذهب إلى غرفة ماك كي أسأله القدم معنا وكلي تصميم على الظهور بمظهر طبيعي وودود.

الغرفة مرتبة على نحو لا يصدق، وماك جالس على بساط مطوي ذي نقوش مربعة يكتب في دفتر يومياته. يرمقني بنظرة استفهام مهذب.

”ألن تأتي معنا لتناول الشاي؟“

ينهض ماك.

”شكراً لك“.

”أتوقع أنك قد ترغب، فيما بعد، في استكشاف المدينة. التسكع في مكان جديد أمر ممتع“.

يرفع ماك حاجبيه بلطف ويقول ببرود: ”حقاً؟“

أنكمش قليلاً، وأتقدمه إلى الرواق حيث ينتظرنا ماكس - يشرب ماك كوباً كبيراً من الشاي وهو غارق في صمت سعيد. أما ماكس، فيتناول الشاي في الحاضر وأفكاره بعيدة عنا أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.

ثم يخرج من شروده فجأة مع انتهائه من التهام آخر قطعة من الحلوى ويقترح علينا أن نمضي كي نرى تقدم العمل في تجهيز سيارتنا الشاحنة.

نذهب على الفور كي نلقي نظرة على السيارة الشاحنة - وهي هيكل سيارة نقل من طراز فورد يتم تزويده بجسد محلي الصنع. كان

علينا أن نرضخ للأمر الواقع لأنه لا يمكن الحصول على سيارة مستعملة بحالة جيدة على نحو مرض.

تسير أعمال تجهيز جسد السيارة بتفاؤل مؤكد على طريقة "إن شاء الله"، بل إن الأمر برمته يبدو أفضل من أن يكون حقيقياً على نحو يثير الشكوك. يبدي ماكس بعض القلق من عدم ظهور حمودة الذي كان يفترض به أن يلاقينا، في هذا اليوم، في بيروت.

يسخر ماك من فكرة مشاهدة المدينة ويعود إلى غرفته كي يجلس على بساطه ويكتب في دفتر يومياته. أما أنا فإنتابني الفضول لمعرفة ماذا يكتب في دفتر اليوميات.

استيقاظ مبكر. يفتح باب غرفتنا في الخامسة صباحاً ونسمع صوتاً يعلن بالعربية: "رؤساء عمالكم قد وصلوا".

يندفع حمودة ونجلاه إلى الغرفة بسحرهم المثير ويمسكون أيدينا ويضعونها على جباههم. "شلون كيفك؟" ... "كلش زين؟" ... "الحمد لله! الحمد لله!". ونشكر الله معاً

نطلب الشاي كي ننفذ عنا غشاوة النوم ويجلس حمودة وابناه القرفصاء على الأرض دون أن يبدو عليهم أي ضيق من ذلك ويتبادلون الأخبار مع ماكس. يحول الحاجز اللغوي بيني وبينهم المشاركة في المحادثة. إذ كنت قد استنفذت ذخيرتي من اللغة العربية بالفعل. أتوق بشدة إلى النوم وأتمنى لو أن عائلة حمودة أرجأت ترحابها بنا إلى ساعة أكثر ملاءمة. لكنني أدرك أنهم يعتبرون قدومهم في هذا الوقت طبيعياً تماماً.

يسدد الشاي ضباب النوم ويخاطبني حمودة بوضع عبارات يترجمها ماكس كما يترجم ردودي. هؤلاء الرجال الثلاثة يطفحون بالسعادة وأدرك، من جديد، كم هم أشخاص ممتعون.

الاستعدادات الآن على قدم وساق. التسوق من المتاجر،
توظيف سائق وطاه. زيارات إلى مديرية الآثار. غداء ممتع مع المدير،
مسيو سيرينغ، وزوجته الفاتنة للغاية. لا أحد، في الواقع، يستطيع
أن يكون أكثر لطفاً منهما- ناهيك عن أن الغداء شهى بالفعل.

أبتاع المزيد من الأحذية، في مخالفة صريحة لرأي رجل الجمارك
التركي حول كوني أمتلك أكثر مما ينبغي منها. شراء الأحذية في
بيروت متعة. فإن لم يكن القياس الذي تطلبه متوفراً، فإنهم يصنعون
من أجلك، في بضعة أيام، حذاء من جلد جيد يناسب قدميك تماماً.
علي أن أقر أن شراء الأحذية من نقاط ضعفي. لن أجرؤ بالتأكيد
على العودة إلى الوطن عن طريق تركيا!

نتسكع في الأحياء القديمة ونشتري كمية كبيرة من مادة، هي
نوع من حرير أبيض سميك موشى بخيوط مذهبة أو زرقاء قائمة.
ونشتري عباءات حريرية كي نرسلها إلى الوطن كهدايا للأصدقاء.
ماكس مولع بكل أنواع الخبز. كل من تجري في عروقهم دماء
فرنسية يعشقون الخبز الجيد. فالخبز يعني للرجل الفرنسي أكثر
بكثير مما يعني له أي طعام آخر. سمعت ذات مرة ضابطاً في جهاز
الخدمة الخاصة يقول عن زميل له في مخفر أمامي معزول بلهجة
تشي بالكثير من الإشفاق الصادق:

«*Ce Pauvre Garçon! Il n'a même pas du pain là-bas,
seulement la galette Kurde!*»^(٨)

نتظرنا كذلك معاملات طويلة ومعقدة مع المصرف. إحجام

٨- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "ذلك الفتى المسكين! ليس لديه هناك حتى
الخبز، بل مجرد فطائر كردية" (الترجم)

المصارف عن القيام بأي عمل مهما يكن شأنه، كما هي الحال في الشرق على الدوام، يذهلني. إنهم يتمتعون بالكثير من التهذيب والسحر، لكنهم مهووسون بالتهرب من تنفيذ أية معاملة حقيقية. «Oui, oui» يتمتعون بلطف. «Ecrivez une lettre»^(٩) ثم يعودون إلى الجلوس ويتنفسون الصعداء وقد نجحوا، أخيراً، في إرجاء القيام بالعمل.

ثم، عندما يجدون أنفسهم مرغمين على إنجاز المعاملة، ينتقمون منك من خلال نظام معقد يقوم على «les timbres»^(١٠). فآية وثيقة، وأي شيك، وآية معاملة مهما يكن نوعها تزداد تعقيداً بطلب «les timbres». فيجد المرء نفسه يسدد باستمرار مقادير ضئيلة من المال. وعندما تظن أن كل شيء قد تم، تواجه بطلب جديد!

«Et deux francs cinquante centimes pour les timbres, s'il vous plait»^(١١)

وأخيراً تصبح المعاملات ناجزة بعد كم كبير من الرسائل وأعداد لا تصدق من الطوابع. وتفرج أسارير كاتب المصرف وقد تخلص منا أخيراً. ثم نسمع صوته، أثناء مغادرتنا المصرف، يقول بحزم لزبون آخر هام: «Ecrivez une lettre s'il vous plait».

ما تزال مهمة استئجار السائق والطاهي في انتظارنا.

٩- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "اكتب رسالة" (المترجم)

١٠- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "الطوابع" (المترجم)

١١- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "فرنكان وخمسون ستيماً من أجل الطوابع من فضلك" (المترجم)

تحل مشكلة السائق أولاً. إذ يصل حمودة ويعلمنا بوجه مشرق أن حظنا كبير لأنه آمن لنا سائقاً ممتازاً.

يسأله ماكس كيف استطاع أن يقع على هذا الكنز؟

يبدو أن الأمر كان في غاية البساطة. كان الرجل واقفاً على الكورنيش البحري، وكان قد مر عليه بعض الوقت دون أن يعمل وكان في وضع مزر للغاية، ولذلك سوف يأتي مقابل أجر زهيد. هكذا، نقتصد في الحال بعض المال!

لكن هل هنالك من طريقة كي نعرف إن كان سائقاً بارعاً؟ يتعامل حمودة مع هذا السؤال باستخفاف. فكما أن الحجاز رجل يضع الخبز في الفرن ويخبزه، فالسائق، بدوره، رجل يأخذ سيارة ويقودها!

يوافق ماكس، في غياب أي عرض أفضل، على توظيف عبد الله دون كبير حماسة ويخضعه لمقابلة. لعبد الله شبه كبير بالجمل فيتهدد ماكس قائلاً إنه يبدو غيباً بكافة المقاييس وهو أمر حسن على الدوام. أسأله لماذا، فيقول ماكس لأنه لا يملك من العقل ما يجعله غير نزيه.

نخرج بالسيارة، في بعد ظهيرة يومنا الأخير في بيروت، إلى نهر الكلب. هناك، في أخدود مائي مشجر، يوجد مقهى يمكنك أن تحتسي فيه القهوة ثم تقوم بجولة ممتعة على طول ممر ظليل.

لكن السحر الحقيقي في نهر الكلب يكمن في الكتابات المنقوشة على الصخر عند درب يفضي إلى الطريق الذي يقود إلى جبل لبنان. من هنا مرت، في عدد لا يحصى من الحروب، جيوش خلفت بصماتها في المكان. هنا كتابات هيروغليفية من عصر رمسيس الثاني ومفاخر دونها الجيشان الآشوري والبابلي. وهناك وجه تيغلاث فيلصر الأول. وبدوره، ترك سنحريب، في عام ٧٠١ قبل الميلاد، بعض النقوش.

وفي هذا المكان خلد أسرحدون ونبوخذ نصر انتصاراتهما، ومن هنا، كذلك، مر الاسكندر مخلفاً علامته. وأخيراً، كتب جنود جيش النبي، عام ١٩١٧، على هذه الصخور أسماء وأحرفاً أولى، في استكمال لتقليد عريق. لا أتعب أبداً من التأمل في هذا السطح الصخري الحافل بالنقوش. فهاهنا تاريخ يتحدث عن نفسه.

تستولي هذه الأجواء علي إلى درجة أقول فيها لماك إنها مثيرة للغاية وأسأله عن رأيه.

فيرفع ماك حاجبيه المهذبين ويقول بنبرة عدم اهتمام كلي بالطبع، مثير للاهتمام.

يشكل وصول سيارة النقل وتحميلها محطة التشويق التالية. يبدو جسد السيارة متثاقلاً على نحو مؤكد. فهي ترنح يمناً ويسرة ثم تغطس، بيد أن ملامحها، من جهة أخرى، توحى برفعة - بل قل بجلالة - تدفعنا إلى إطلاق اسم كوين ماري عليها.

نستأجر، بالإضافة إلى كوين ماري، سيارة أجرة من طراز سيتروين يقودها رجل أرمني لطيف اسمه أرستيد. كما نوظف طاهياً توحى ملامحه بشيء من السوداوية (عيسى) ويحمل شهادات توصية على درجة من القوة تدفع إلى الارتياح، وأخيراً يأتي اليوم المنتظر وننطلق، ماكس وحمودة وأنا وماك وعبد الله وأرستيد وعيسى، في رحلة تمتد على ثلاثة شهور سنكون فيها رفاقاً في السراء والضراء.

الاكتشاف الأول هو أن عبد الله أسوأ سائق يمكن تصوره، أما الاكتشاف الثاني فهو أن عيسى طباح أخرق تماماً في حين أن الاكتشاف الثالث هو أن أرستيد سائق بارع لكنه يقود سيارة أجرة رديئة بصورة لا تصدق.

نغادر بيروت ونتخذ الطريق الساحلي. نمر من نهر الكلب وتتابع طريقنا والبحر على يسارنا. نتجاوز تجمعاً صغيراً من البيوت البيضاء ونمتع ناظرينا بخلجان رملية صغيرة وكهوف صغيرة بين الصخور. أتمنى لو أننا نقف قليلاً كي أسبح، لكن العمل الجدي قد بدأ. سوف نستدير قريباً، بل أقرب مما ينبغي، مبتعدين عن البحر كي نمضي، بعد ذلك، شهوراً عديدة دون أن نرى البحر.

أرستيد يطلق بوقه باستمرار على الطريقة السورية. وخلفنا، تقتفي كوين ماري خطانا وهي ترنح وتغطس وتلوى بجسدها الثقيل كسفينة تمخر عباب البحر.

نمر من بعلبك وتصبح تجمعات البيوت الصغيرة أقل عدداً وتزداد تباعداً. وإلى يميننا المنحدرات الصخرية.

وأخيراً نعطف وتقدم في اليابسة في الطريق إلى حمص.

يقول لنا حمودة أنه يوجد في حمص فندق جيد، بل هو فندق رائع.

يتبين لنا أن روعة الفندق تكمن أساساً في بناء الفندق نفسه. فالفندق رحب ويتمتع بردهات حجرية كبيرة. لكن تمديدات الماء فيه، ويا للأسف، لا تعمل كما ينبغي. أما غرفه الفسيحة ففيها بعض وسائل الراحة. نلقي نظرة على غرفنا ثم أخرج مع ماكس إلى المدينة. أما ماك، فنجدته جالساً إلى طرف فراشه وبساطه المطوي إلى جانبه وهو يكتب بنشاط في دفتر يومياته.

(ماذا يدون ماك في دفتر اليوميات هذا؟) إنه لا ييدي أي اهتمام بالقاء نظرة على حمص.

ربما هو محق، في نهاية المطاف. إذ ليس في المدينة الكثير مما يستحق رؤيته.

نتناول وجبة أوروبية كاذبة معدة بشكل سيء ثم نأوي إلى الفراش. كنا، في الأمس، نساغر في ربوع الحضارة. أما اليوم، فنخلف الحضارة ورائنا على نحو مفاجئ. إذ ليس هناك، بعد مضي ساعة أو اثنتين، أية خضرة يمكن رؤيتها. كل شيء بني ورمل. الدروب مربةكة. وبين الفينة والأخرى، تنبثق في وجوهنا سيارة نقل من حيث لا ندري.

الجوقاظ. تتحالف ضدي عوامل الحر والطريق غير المهد والحالة السيئة لنوابض عجالات سيارة الأجرة والغبار الذي نبتلعه ويجعل وجوهنا متيبسة وكالحة، فأصاب بصدا ع مؤلم.

هناك في هذا العالم الرحب المحروم من الحياة النباتية ما هو مخيف وساحر في الآن عينه. إنه ليس منبسطاً كما هي حال الصحراء الممتدة بين دمشق وبغداد. بل إنك تجد نفسك تتسلق صعوداً وهبوطاً. ويشعرك المكان أنك لست سوى حبة رمل وسط قلاع من الرمل بنيتها على الشاطئ كالأطفال.

ثم عندئذ، وفي ختام سبع ساعات من الحر والرطوبة والعالم الموحش - ها هي ذي تدمر!

في هذه النقطة يكمن سحر تدمر على ما أظن. في جمالها القشدي الأهيف الذي ينتصب بسحر وسط الرمال المحرقة. إنها مدينة فاتنة رائعة لا تصدق بمشهديتها الساحرة تلك الجديرة بأن تكون جزءاً من حلم. بلاط ملكي ومعابد وأعمدة خربة...

لم أستطع يوماً في اتخاذ قرار حاسم حول ما أظنه في تدمر. إنها تتمتع، على الدوام، بذلك الطابع الحلبي الذي تكتشفه فيها من النظرة الأولى. وقد جعلها الألم في رأسي وعيني تبدو، أكثر من أي وقت مضى، خيالاً محموماً! إنها ليست حقيقية- ولا يمكن أن تكون حقيقية.

ثم نجد أنفسنا، على حين غرة، وسط أناس آخرين- حشد من سياح فرنسيين مرحين يضحكون ويتكلمون ويحملون آلات تصوير. نتوقف أمام مبنى جميل- هو الفندق.

يحذرني ماكس على عجل:

«يجب أن لا تلقي بالأل للرائحة. لن يتطلب الأمر منك طويلاً قبل أن تعتادي عليها».

الأمر كما يقول بالضبط! الفندق فاتن من الداخل وقد تم ترتيبه بذوق. لكن رائحة المياه الآسنة في الغرفة قوية للغاية.

يطمئنني ماكس: «الرائحة لا تضر بالصحة على الإطلاق».

وبدوره، يقول العجوز اللطيف، الذي هو مالك الفندق كما أفهم، بكثير من التأكيد:

«(12) *Mauvaise odeur, oui! Malsain non!*».

قضي الأمر إذن! وأنا لا آبه للأمر على كل حال. أتناول قرصاً من الأسبرين وكوباً من الشاي وأمدد على السرير وأقول إنني سألقي نظرة على المكان في وقت لاحق. أما الآن فإن كل ما يعينني هو الظلام والراحة.

١٢- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "الرائحة كريهة، نعم! غير صحية، لا!" (المترجم)

أشعر في داخلي بشيء من الخوف. هل سأكون رحالة رديئاً؟ أنا من أمتعتني الأسفار على الدوام؟
 بيد أنني أستيقظ، بعد ساعة، بإحساس أنني استعدت قواي تماماً
 وبشوق إلى مشاهدة كل ما يمكن مشاهدته.
 بل إن ماك نفسه يستسلم، وإن لمرة، لواقع انتزاعه بعيداً عن دفتر
 يومياته.

هكذا نخرج في جولة لمعاينة المكان ونمضي بعد ظهرية ممتعة.
 ننضم، مع وصولنا إلى أبعد نقطة من الفندق، إلى الفرنسيين. الحزن
 مخيم عليهم. فقد كسرت امرأة ترتدي حذاء ذا كعب مرتفع (كن كلهن
 يرتدين أحذية ذات كعوب مرتفعة) كعب حذائها وهي تواجه المهمة
 المستحيلة في قطع المسافة الطويلة التي تفصلها عن الفندق سيراً على
 الأقدام. كان الفرنسيون، على ما يبدو، قد وصلوا إلى هذه النقطة
 بسيارة أجرة. وسيارة الأجرة هذه متعطلة. نلقي نظرة عليها. يبدو أنه لا
 يوجد في هذه البلاد سوى نوع واحد من سيارات الأجرة. إذ يستحيل
 تمييز هذه العربة عن تلك التي برفقتنا بمقاعدنا الخربة نفسها التي يخال
 من يراها أنها مثبتة بحبال. السائق السوري النحيل ذو القامة الفارعة
 منكب على محرك السيارة وقد بدا عليه الإحباط.

يهز رأسه. ثم يشرح لنا الفرنسيون كل شيء. لقد وصلوا إلى هنا
 في الأمس بالطائرة وسوف يغادرون غداً بالطريقة نفسها. أما سيارة
 الأجرة هذه، فقد استأجروها، في الفندق، لفترة بعد الظهر وقد تعطلت
 الآن. فماذا تفعل السيدة المسكينة؟

«*Impossible de marcher, n'est ce pas, avec un soulier
 seulement?*».^(١٣)

١٣- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "يستحيل عليها أن تسير بفردة حذاء واحدة.
 أليس كذلك؟" (الترجم)

نعزيمهم بحرارة ويعرض ماكس عليهم، بشهامة، استخدام سيارة الأجرة التي في حوزتنا. سوف يعود إلى الفندق ويحضرها إلى هنا. وسيتطلب الأمر جولتين كي نعود كلنا.

يستقبل الفرنسيون العرض بالتهليل والشكر الجزيل وينطلق ماكس.

أصدقاء السيدات الفرنسيات في حين يختبئ ماك خلف جدار من التحفظ عصي على الاختراق ويقابل أية محاولة لافتتاح محادثة معه بـ «نعم» أو «لا» قاطعة، وسرعان ما يتركه الفرنسيون وشأنه. تبدي السيدات الفرنسيات اهتماماً برحلتنا ملته السحر.

«*Ah, Madame, vous faites le camping?*»^(١٤).

سحرتني هذه الجملة. *Le camping!* إنها تضع مغامرتنا في فئة الرياضة!

وتضيف سيدة أخرى أن كم هو ممتع ممارسة *le camping*.

فأجيب بنعم، إن الأمر سيكون ممتعاً للغاية.

يمضي الوقت ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونضحك. ثم يصل ماكس على قدميه والغضب باد على محياه.

سألته لم لم يحضر سيارة الأجرة؟

يقول ماكس بغيظ، لأنها هنا. ويشير بإصبعه بطريقة درامية إلى السيارة التي تأتي أن تعمل والتي ما يزال السائق السوري المهزول ينعم النظر فيها بتفاؤل.

١٤ - بالفرنسية في الأصل وترجمتها: «آه. أنتم تمارسون التخييم إذن؟» (الترجم)

فتتصاعد موجة من آهات تعجب جماعية وأدرك، فجأة، لم بدت السيارة مألوفة لي! ثم يصرخ الفرنسيون: لكنها السيارة التي استأجرناها في الفندق“. لكن ماكس يجيب إنها سيارتنا.

يدور بين ماكس وأرستيد حوار شاق لم ينجح فيه أحدهما في إقناع الآخر بوجهة نظره.

”ألم أستأجرك والسيارة لثلاثة شهور؟“ يسأله ماكس. ”كيف تسمح لنفسك أن تقل آخرين من وراء ظهري بهذه الطريقة الشائنة؟“

يجيبه أرستيد، كمن أصيب في نزاهته: ”لكن، ألم تقل لي بنفسك إنك لن تستخدم السيارة طيلة فترة بعد الظهر؟ بالطبع. ثم عندئذ، أتيت لي فرصة كسب بعض النقود الإضافية. فرتبت الأمر مع صديقي هذا الذي أقل المجموعة في جولة حول تدمر. كيف يمكن لهذا الأمر أن يؤديك طالما أنك لا تريد أن تستخدم السيارة بنفسك؟“.

يرد ماكس: ”إنه يؤديني. أولاً لأنه يخالف ما اتفقنا عليه، وثانياً لأن السيارة في حاجة إلى الصيانة وهي لن تكون جاهزة في الغد على الأرجح!“.

”من هذه الناحية لا تقلق“ يقول أرستيد. ”سأسهر مع صديقي على السيارة كل الليل إن تطلب الأمر ذلك“.

فيجيبه ماكس باختصار أنه يحسن بهما ذلك.

وكما هو منتظر، نجد السيارة، في صباح اليوم التالي، في انتظارنا أمام الباب وأرستيد مبتسماً خلف المقود ما يزال، حتى الآن، على غير فناعة بخطيئته.

نصل اليوم إلى مدينة دير الزور الواقعة على نهر الفرات. الجو

حار للغاية. والرائحة كريهة في هذه البلدة التي لا تتمتع بالجاذبية. يتفضل علينا "جهاز الخدمة الخاص" بوضع بعض الغرف في تصرفنا لأن المدينة تفتقر إلى أي فندق أوروبي. يبدو المنظر عند المجرى البني العريض للنهر جميلاً. يسألني الضابط الفرنسي عن صحتي برقة آملاً أن لا تكون الرحلة الطويلة في هذا الجو الحار فوق ما أطيع. "كانت السيدة جاكو، زوجة الجنرال، *Complètement knock out* لدى وصولها"^(١٥).

تستولي هذه الكلمة على خيالي. آمل أنني، مع انتهاء مهمتنا، لن أكون، بدوري، *Complètement knock out*!

نشترى الخضار وكميات كبيرة من البيض ثم نطلق، مع الشاحنة كوين ماري التي تكاد نوابضها تنوء بحملها— وهذه المرة في مهمة الاستطلاع الفعلية.

البصيرة. يوجد هنا نقطة للشرطة. وهي موقع يحمل ماكس تجاهه آمالاً عريضة لأنه يقع عند نقطة التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وعلى الضفة المقابلة تقع مدينة قرقيسيا الرومانية.

يبد أن البصيرة تخيب رجاءنا. إذ لا توجد فيها أية علامات على استيطان قديم فيها باستثناء الوجود الروماني— الذي يعامل بما يستحق من الازدراء. يقول حمودة: "من زمن الرومان"، ويهز رأسه بنفور. وأوافقه بانصياح.

فالرومان، من وجهة نظرنا، قوم عصريون بصورة لا رجاء فيها— إنهم أطفال الأمس. أما نحن، فاهتماماتنا تبدأ من الألفية الثانية قبل

١٥— عبارة فيها مزيج من الفرنسية والإنكليزية وتعني: "غائبة عن الوعي تماماً!"
(الترجم)

الميلاد، مع الكنوز المتنوعة التي خلفها الحثيون. ونحن معنيون، على وجه الخصوص، باكتشاف المزيد عن السلالة العسكرية للمغامرين الأجانب الذين حكموا مملكة ميتاني والذين لا يعرف عنهم سوى القليل على الرغم من الازدهار الذي عرفوه في هذه المنطقة من العالم والذين اتخذوا من مدينة واشوكاني، التي لم يتم تحديد موقعها بعد، عاصمة لهم. طغمة حاكمة من محاربين فرضوا سلطتهم على البلاد وتزاوجوا مع العائلة الحاكمة في مصر وكانوا، على ما يبدو، فرساناً بارعين، وهو أمر يدل عليه وجود بحث يصف كيفية العناية بالخيول وتدريبها ينسب إلى شخص أجنبي ما.

من هذه النقطة الزمنية ننطلق في رحلتنا، إلى الماضي بالطبع- وصولاً إلى عصور ما قبل التاريخ المبهمة. عصور دون سجلات مكتوبة لم تترك لنا سوى أوان فخارية ومخططات بيوت ومئاتم وزخارف وحبث خرز تقدم لنا شهادات خرساء على الحياة التي عاشها الناس.

ننتقل، وقد خلفت البصيرة في نفوسنا الخيبة، إلى الميادين الواقعة إلى الجنوب على الرغم من أن ماكس لا يأمل منها الكثير. ثم سننتقل، بعد ذلك، شمالاً إلى الضفة اليسرى من نهر الخابور.

البصيرة هي المكان الذي رأيت فيه، للمرة الأولى، نهر الخابور الذي كان، بالنسبة إلي، حتى الآن مجرد اسم- مع كونه اسماً كان يتردد على لسان ماكس باستمرار.

”الخابور- ذلك هو المكان. مئات من التلال!“.

ثم يكمل: ”فإن لم نجد ما نشده على ضفاف الخابور، فسوف نضفي إلى جفجفا“.

أسأل، وقد سمعت الاسم للمرة الأولى: ”وما هذا الجفجف؟“.

يبدو الاسم خيالياً تماماً بالنسبة إلي!

يقول ماكس بلطف إنه يفترض أنني لم أسمع بنهر جفجف من قبل. ويقر أن عدداً كبيراً من الناس لم يسمعوا به.

أقر بالتهمة وأضيف إليها أنني لم أسمع بنهر الخابور قبل أن يذكره أمامي، الأمر الذي يياغته تماماً.

فيسألني وقد أدهشه جهلي المطبق: ”ألم تكوني تعلمين أن تل حلف يقع على نهر الخابور؟“.

وينخفض صوته إجلالاً وهو يصف ذلك الموقع الشهير الذي يتميز بفخاريات تعود إلى عصور ما قبل التاريخ.

أهز رأسي وأقر بأنني لو لم أتزوجه لما سمعت، على الأرجح، بتل حلف!

أستطيع أن أقول إن شرح الأماكن التي تنقب فيها للآخرين أمر تكتنفه، على الدوام، صعوبات جمة.

تقتصر إجابتي الأولى، عادة، على كلمة وحيدة: ”سورية“.

فيقول الشخص العادي الذي يسألني، مقطباً جبينه، وقد أخذته الإجابة على حين غرة: ”آه، نعم، بالطبع - سورية...“. وتنبعث في رأسه الذكريات الإنجيلية. ”دعيني أر، إنها فلسطين، أليس كذلك؟“.

فأقول بنبرة تشجيع: ”إنها محاذية لفلسطين. إنها تمتد، كما تعلم، على طول الساحل إلى الأعلى“.

لكن الأمر لا يجدي نفعاً لأن فلسطين ترتبط، عادة، بالتاريخ

الكتابي وبدروس يوم الأحد أكثر منه بالواقع الجغرافي، فتكون،
بالتالي، تداعياتها أدبية ودينية خالصة.

ويزداد الجبين تقطياً. "لا أستطيع تحديد موقعها بدقة. أين تنقبون
بالضبط - أعني بالقرب من أية مدينة؟"

"ليس بالقرب من أية مدينة. بل بالقرب من الحدود التركية
والعراقية".

ثم ترسم على وجه صديقي علامات القنوط. "لكن لا بد أن
تكونوا قريين من مدينة ما!".

فأقول: "حلب. وهي تبعد عنا مائتي ميل تقريباً".

فيتنهد ويستسلم. ثم يسأل، وقد أشرق وجهه، عما نأكل. "تمر
على ما أظن".

وعندما أقول له إننا نأكل الضأن والدجاج والبيض والرز
والفاصولياء الفرنسية والبادنجان والخيار والبرتقال في موسمه والموز،
يرمقني بنظرة عتاب ويقول: "لا يمكنني أن أصف ذلك بحياة
الشظف".

في الميادين، يبدأ *le camping*.

يعدون لي كرسيّاً أجلس فيه بخيلاء وسط فناء واسع، أو خان، في
حين يكافح ماكس وماك وأرستيد وحمودة وعبد الله لنصب خيامنا.

لا ريب أنني أحظى بالمهمة الأفضل. فالمشهد حافل بالتسلية. إذ
تهب ريح صحراوية قوية غير متعاونة، ناهيك عن أن الحاضرين لا
يتميزون بالبراعة في هذا النوع من الأعمال. فيستمطر عبد الله رحمة
الله ويناشد الأرمني أرستيد القديسين العون ويصبح حمودة مشجعاً

وهو يضحك ويطلق ماكس شتائم غاضبة. وحده ماك يلتزم الصمت على الرغم من أنه يتمتم، بين الفينة والأخرى، ببضع كلمات. وأخيراً يصبح كل شيء جاهزاً. تبدو الخيام مخمورة بعض الشيء ولا تشبه الخيام الحقيقية كثيراً، لكنها انتصبت. نتحد جميعنا في صب جام غضبنا على الطاهي الذي، بدلاً من أن يياشر بإعداد الطعام، كان يقف مستمتعاً بما يراه. لكن لدينا، على كل حال، معلبات نقوم بفتح بعضها ويعد الطاهي الشاي. أما الآن، والشمس تبدأ في المغيب والريح تسكن والجو يميل إلى البرودة على حين غرة، فنأوي إلى السرير. هذه تجربتي الأولى في الصراع مع كيس نوم. يستدعي اندساسي فيه تضافر جهودي وجهود ماكس. بيد أن شعوراً بالراحة والغبطة يحل علي حالماً أصبح في الداخل. أصطحب معي على الدوام في جميع أسفاري إلى الخارج وسادة ناعمة بحق - وهي تمثل، بالنسبة إلي، الفارق بين الراحة والشقاء.

أقول لماكس بحبور: "أظن أنني أحب النوم في خيمة".

ثم تراودني، على نحو مفاجئ، فكرة.

"هل تظن أنه يمكن لجرذان أو فئران أو أشياء أخرى أن تجري فوقني في الليل؟".

فيجيب بمرح وقد نال منه النعاس: "بالتأكيد".

يستولي النوم علي، بينما أقلب الفكرة في رأسي، ثم أستيقظ كي أجد أنها الخامسة صباحاً. الشمس تشرق ويحين وقت النهوض كي نبدأ يوماً جديداً.

تبرهن الأكمات الواقعة في الجوار المباشر للميادين أنها ليست مغرية.

فيتمتم ماكس باشمئزاز: ”رومانية“. إنها أحدث كلمات الازدراء لديه. أما أنا، فأخفق أية أفكار قد تراودني حول كون الرومان كانوا شعباً مثيراً للاهتمام بحق، مرجعة صدى نبرته: ”رومانية“ وأرمني من يدي كسرة من الآنية الفخارية الحقيمة. ”من زمان الرومان“، يقول حمودة.

نذهب، في فترة بعد الظهر، في زيارة إلى بعثة التنقيب الأمريكية العاملة في دورا. الزيارة ممتعة والأمريكيون يسحروننا. أكتشف أن اهتمامي باللقي يتضاءل وأعاني من صعوبات متزايدة في الإصغاء إلى الحوار أو المشاركة فيه.

حيث سردوا الصعوبات الجمة التي واجهتهم في العثور على عمال تسلية.

فالعامل مقابل أجر في هذا المكان النائي من العالم فكرة جديدة تماماً. هكذا وجدت البعثة نفسها في مواجهة رفض عقيم أو عدم فهم، فلجأت، وقد انتابها اليأس، إلى السلطات العسكرية الفرنسية التي أبدت استجابة فورية وفعالة. فقد اعتقل الفرنسيون مئتي رجل، أو مهما يكن العدد المطلوب، وأحضرتهم إلى العمل. كان السجناء ودودين وفي قمة المرح وبدوا مستمتعين بالعمل. فطلب منهم العودة في اليوم التالي، غير أنهم لم يعودوا. من جديد، طلبت المساعدة من الفرنسيين الذين اعتقلوا العمال من جديد. ومن جديد، عمل العمال برضا جلبي. لكنهم غابوا من جديد وتم اللجوء إلى الاعتقال العسكري من جديد.

وأخيراً، اتضح كل شيء.

”ألا تحبون أن تعملوا الصالحنا؟“

”نعم في الواقع. ولم لا؟ ليس لدينا ما نفعله في البيت“.

”لماذا، إذن، لا تأتون كل يوم؟“

”نحن نرغب في المجيء، لكننا ننتظر العسكر كي يحضرونا بالطبع. يمكنني أن أبلغك أننا شعرنا بالكثير من السخط عندما لم يأتوا لأخذنا! فهو واجبهم!“.

”لكننا نريدكم أن تعملوا الصالحنا دون أن يحضركم العسكرا“.

”يالها من فكرة غريبة!“.

وفي نهاية الأسبوع، تلقوا أجرهم، وكان هذا الأمر كافياً كي يضع حداً لكل الارتباك.

قالوا إنهم لم يفهموا، مماماً، عادات الأجانب!

”العسكر الفرنسيون هم من يسيطرون هنا. ومن حقهم، بصورة طبيعية، أن يجمعونا ويرموا بنا في السجن أو يرسلونا كي نحفر الأرض من أجلكم. لكن لماذا تعطوننا المال؟ ولأي شيء هو المال؟ الأمر بلا معنى!“.

بيد أن عادات الغرب الغربية أصبحت مقبولة، في نهاية المطاف، على الرغم من هز الرؤوس والغمغمة. فقد أخذوا يتقاضون أجورهم مرة واحدة في الأسبوع. لكن شعوراً مبهماً بالضغينة تجاه العسكر بقي يعمل في صدورهم. لأن جمعهم كل يوم كان من صميم واجبات العسكر.

قصة جميلة بمعزل عن صحتها! فقط لو أنني أبدت قدراً أكبر الانتباه. ماذا يحصل لي؟ أصاب بالدوار مع عودتي إلى المخيم، فأفحص حرارتي كي أجدها مائة ودرجتين (فهرنهايت)! أعاني،

كذلك، من ألم في وسطي وأشعر أنني مريضة للغاية. فكرة الاندساس في كيس النوم تغمرني بالغبطة فأنفض عني التفكير بالعشاء.

يبدو ماكس قلقاً هذا الصباح ويسألني عن صحتي. فأتأوه قائلة: "كالموت!" فيزداد قلقه ويسألني إن كنت أظن نفسي مريضة حقاً.

فأعيد التأكيد على هذه النقطة. أعاني مما يطلق عليه في مصر الإسهال المصري وفي بغداد إسهال بغداد. وهو ليس بالمرض الممتع عندما تكون في قلب الصحراء. يعجز ماكس عن تركي وحيدة. لكن الحرارة داخل الخيمة في النهار تبلغ مائة وثلاثين درجة، فهنهايت، تقريباً! والاستطلاع يجب أن يستمر. هكذا، أنكوم على نفسي في السيارة وأترنح في حلم محوم. أغادر السيارة لدى بلوغنا إحدى الأكمات وأمدد في الظل الذي توفره كوين ماري في حين يمضي ماكس برفقة ماك إلى الأكمة ويدرسانها.

الأيام الأربعة التالية جحيم لا يطاق بصراحة! لكن إحدى قصص حمودة تبدو على النقيض من ذلك ممماً - إنها قصة الزوجة الجميلة لأحد السلاطين التي يأخذها السلطان بعيداً فتشكو إلى الله، في الليل والنهار، وحدثها في الصحراء وافتقارها إلى الرفاق. "وأخيراً، أرسل الله إليها بعض الرفاق، وقد أضجره عويلها. لقد أرسل إليها ذباباً".

أشعر بضغينة كبيرة تجاه السيدة الجميلة لأنها جلبت لنفسها الغضب الإلهي! فوجود ذباب يهبط طوال اليوم من الغيوم يجعل الحياة مستحيلة.

أشعر بالكثير من المرارة والأسف لأنني رافقت هذه الحملة، لكنني أنجح بطريقة ما في عدم قول ذلك.

وبعد أربعة أيام لم أتناول خلالها شيئاً باستثناء شاي خفيف دون

حليب، أسترد عافيتي على نحو مفاجئ وتصبح الحياة جميلة من جديد. ألتهم وجبة هائلة من الرز والخضار المطهوه الغارقة بالدسم. تبدو لي هذه الوجبة من أشهى ما تذوقت في حياتي!

تسلق، بعد ذلك، الأكمة التي نصبنا مخيمنا عندها - تل سوار الواقع على الضفة اليسرى لنهر الخابور. لا شيء في هذا المكان - لا قرية - لا مساكن من أي نوع - ولا حتى أية خيام بدوية.

قمر في الأعلى ونهر الخابور في الأسفل يتلوى على شكل حرف S كبير. هواء الليل عليل بعد نهار قانظ.

أقول: "يا لها من أكمة جميلة. ألا نستطيع أن ننقب هنا؟" يهز ماكس رأسه بحزن وينطق الكلمة المشؤومة. "رومانية".

"يا للأسف. إنها بقعة جميلة للغاية".

فيقول ماكس: "ألم أقل لك إن الخابور مكان مميز! التلال منتشرة على طول ضفتيه".

كنت قد فقدت اهتمامي بالتلال لبضعة أيام - لكنني أشعر بالسرور أنه لم يفتني الكثير.

أسأله بحزن، وقد أسرني تل سوار: "هل أنت واثق من أنه لا يوجد هنا شيء مما تفتش عنه؟"

"بالطبع، لكنها مدفونة في الأسفل. وعلينا الحفر عبر الآثار الرومانية. في حين يمكننا القيام بما هو أفضل".

أتنهد وأتمتم: "المكان هادئ للغاية، مسالم للغاية - ليس هنالك من مخلوق على مد البصر".

وفي تلك اللحظة، يزرغ من لا مكان رجل طاعن في السن.

لكن من أين جاء؟ يسير على جانب الأكمة ببطء، ومن غير استعجال. لحيته بيضاء طويلة ومظهره يتميز بمهابة تفوق الوصف.

يحيي ماكس بتهذيب. "كيف حالك؟". "بخير. وأنت؟".
"بخير". "الحمد لله". "الحمد لله".

يجلس الرجل بجوارنا ويسود صمت طويل - ذلك الصمت اللبق الذي يميز السلوك المهذب ويتسم بالكثير من السكينة مقارنة بالصخب الغربي.

وأخيراً، يسأل العجوز ماكس عن اسمه. فيجيبه ماكس ويستغرق العجوز في التفكير.

"ميلوان". يلفظ الاسم عدة مرات. "ميلوان... كم هو لطيف! كم هو مشرق! كم هو جميل!".

يجالسنا لبعض الوقت، ثم يغادرنا بهدوء كما جاء إلينا ولم نره بعد ذلك قط.

أبدأ الآن في الاستمتاع حقاً وقد استعدت عافيتي تماماً. يبدأ نهارنا صباح كل يوم عند حلول الفجر، فنقوم بدراسة كل أكمة عند وصولنا إليها وندور حولها مرات ومرات ونلتقط أية كسرة فخارية نراها. ثم نقارن النتائج ويحتفظ ماكس بالعينات التي يراها مفيدة من خلال وضعها في أكياس من الكتان مزودة بلصاقة اسمية.

تنشب بيننا منافسة حامية الوطيس تدور حول من يعثر على لقية اليوم.

وبالتدرج، ينجلي غموض ما استعصى علي من فهم لأسباب تلك

العادة السائدة في أوساط علماء الآثار في السير وعيونهم شاخصة إلى الأرض. إذ سرعان ما أشعر أنني، أنا نفسي، أسهو عن النظر حولي أو التحديق في الأفق أمامي وأنني أسير وأنا أنظر عند قدمي وكأننا أبحث عن شيء ما.

تفاجئني، كما في مرات كثيرة سابقة، الفروق الجذرية بين الأعراق. إذ لا يمكن لأمرين أن يكونا أكثر تباعداً من موقفنا سائقينا من المال. فلا يكاد يوم يمضي دون أن يطالب عبد الله بدفعة على الحساب من أجره. بل إنه لم يكن ليمنع في الحصول على أجره كاملاً بشكل مسبق لو أنه وجد إلى ذلك سبيلاً، وأتصور أنه كان ليبدد المال قبل أن يمر أسبوع. وكان عبد الله، بما يعرف عن العرب من تَبذير، لينثره في المقهى كي "يصنع لنفسه سمعة"!

في حين يبدي أرسيد الأرمني قدراً كبيراً من التحفظ في قبض أي فلس من أجره. "احتفظ بأجري لي، يا خواجه، إلى أن تنتهي الرحلة. فإن احتجت إلى بعض المال، فسأطلبه منك". الواقع أنه لم يطلب، حتى الآن، سوى أربعة بنسات من أجره كي يشتري بها زوجاً من الجوارب!

تزين ذقنه الآن لحية حديثة العهد يبدو معها أشبه بشخصية إنجيلية. يبرر وجود هذه اللحية بالقول إن الامتناع عن حلاقة الذقن أرخص. إذ يستطيع المرء، بهذه الطريقة، أن يوفر المال الذي كان لينفقه على شراء موسى حلاقة. ثم ما نفع حلاقة الذقن في الصحراء؟

وسوف يبلغ عبد الله نهاية الرحلة مفلساً كما كان في البداية، وسوف يعود، بلا ريب، إلى الوقوف على الواجبة البحرية في بيروت كي ينتظر، بتلك القدرية العربية، أن توفر له رحمة الله عملاً آخر. أما

أرستيد، فسيستقاضى أجره كاملاً دون نقصان.

”وماذا ستفعل بهذا المال؟“، يسأل ماكس.

يجيب أرستيد: ”سأشترى سيارة أجرة أفضل“.

”وعندما تحصل على سيارة أجرة أفضل؟“

”عندها سأكسب المزيد من المال وسيكون لدي سيارتا أجرة“.

أستطيع أن أتنبأ بسهولة أنني، إن عدت إلى سورية، بعد عشرين عاماً، سأجد أرستيد وقد أصبح مالكاً ثرياً لمرآب كبير ويعيش، على الأرجح، في منزل كبير في بيروت. وأجروء، كذلك، على القول إنه سيمتنع، حتى في ذلك الحين، عن حلاقة ذقنه في الصحراء كي يوفر ثمن موسى الحلاقة.

بيد أن أرستيد لم ينشأ، في الواقع، في كنف قومه. إذ نمر، في أحد الأيام، بالقرب من جماعة من البدو، فيحيونه، فيرد لهم التحية ملوحاً بيده وهو يصرخ بتأثر.

ثم يشرح لنا الأمر: ”هذه عشيرة عنزة التي أنتمي إليها“.

فيسأله ماكس: ”كيف ذلك؟“

فيبدأ أرستيد، بصوته الرقيق السعيد وابتسامته المشرقة الجميلة، في رواية قصته. إنها قصة صبي صغير في السابعة من العمر رماه الأتراك مع أسرته والعديد من الأسر الأرمنية الأخرى أحياء في حفرة عميقة وسكبوا القار فوقهم وأضرموا فيهم النار. احترق والده وأمه وشقيقته أحياء- في حين بقي أرستيد، الذي كان تحتهم، على قيد الحياة عندما غادر الأتراك عثر عليه، في وقت لاحق، بعض عرب عنزة. فأخذوا الصبي الصغير معهم وضموه إلى عشيرة عنزة وربوه كعربي يأخذونه

معهم في حلهم وترحالهم. لكن أرسيتيد يغادر إلى الموصل، مع بلوغه سن الثامنة عشرة، وهناك طالب بالحصول على الأوراق التي تثبت جنسيته. فهو أرمني، لا عربي! بيد أن أخوة الدم ما تزال قوية وما يزال أفراد عشيرة عنزة يعتبرونه واحداً منهم.

يشعر حمودة وماكس بسعادة غامرة عندما يكونان معاً، فيضحكان ويغنيان ويتبادلان الطرف وأسأله أن يترجم لي عندما يبلغ المرح ذروته. تمر لحظات أحسدهما فيها على الفرح الذي يعيشانه. أما ماك، فما يزال يفصله عني حاجز يتعذر عبوره. فترانا جالسين معاً في المقعد الخلفي للسيارة وقد ساد بيننا صمت مطبق. ويقلب ماك أية ملاحظة أ طرحها بجدية ثم يرفضها. لم أشعر يوماً بهذا القدر من العجز الاجتماعي من قبل! أما ماك، فيبدو سعيداً تماماً. لديه نوع من اكتفاء ذاتي ممتع لا يمكن لي إلا أن أجله.

لكنني، في اللحظة التي أندس فيها، ليلاً، في كيس النوم في عزلة خيمتنا، أبوح لماكس بمجريات اليوم وأؤكد له بإصرار أن ماك ليس مخلوقاً بشرياً تماماً!

عادة ما تكون التعليقات المبتكرة التي يقدمها ماك من النوع المحبط، في حين تبدو انتقاداته المعاكسة وكأنها تمنحه إشباعاً موحشاً لا لبس فيه.

تشعرتني شكوكي المتزايدة في قدرتي على المشي بالحيرة اليوم. إذ تبدو قدمي وكأنيهما لا تعملان بالكفاءة نفسها علي نحو مثير للفضول. وهنالك في مشيتي جنوح مؤكد إلى اليسار يثير في الارتباك. فأتساءل بخوف إن كان الأمر يتعلق بالأعراض الأولى لوباء مداري ما.

أسأل ماكس إن كان قد لاحظ أنني لا أستطيع السير بطريقة صحيحة.

فيجيب: "لكنك لا تشرين"، ويضيف معاتباً: "يعلم الله كم حاولت معك".

يذكرني تعليقه هذا بموضوع آخر مثير للجدل. يقضي كل إنسان عمره في النضال ضد علة مؤسفة فيه. وعلتي هي عجزني عن الإعجاب بالمشروبات الروحية والتبغ.

لو أنني، استطعت، على الأقل، أن أحتقر هذا النوع من المنتجات، لكنت احتفظت باحترامي للذات. لكنني، على العكس من ذلك، أنظر بانبهار إلى النساء الواثقات وهن ينفضن رماد سجائرن هن هنا وهناك وهناك وأتسلل، في حفلات الكوكيتيل، خلصة وعلى نحو مثير للشفقة، إلى ركن منزو كي أخفي كأسني التي لم أتذوق منها ولو قطرة.

ولم يُجديني التدريب نفعاً. فقد أمضيت ستة أشهر وأنا أدخن بورع سيجارة بعد الغداء وأخرى بعد العشاء وأحبس دخانها في صدري وأمضغ نتفاً من التبغ وأرمش بجفني والدخان ينسل عبرهما إلى عيني. ثم قلت لنفسني إنني يجب أن أتعلم حب التدخين. لكنني لم أتعلم حبه وكان أدائي، على الدوام، عرضة لانتقادات لاذعة مفادها افتقاره إلى الحس الفني وأن متابعتة أمر مؤلم. فأقررت بالهزيمة.

ثم تزوجت ماكس، وعشنا معاً، بانسجام رائع، ومع ملذات المائدة كنا نأكل بتعقل، وإن بما يكفي. لكن اكتشافه انعدام ذائقتي للخمرة الجيدة أحزنه. فأصر على تثقيفي وحاول ما وسعه الأمر أن يعرفني إلى أصناف الكلاريت وأنواع البورغوندي والسوتيرن والغراف،

وبقدر أكبر من الإحباط، إلى التوكاي والفودكا والأفستين! قبل أن يقر بالهزيمة. أما أنا، فلم يزد ما تعلمته عن كون بعض المشروبات تتميز بطعم أكثر رداءة من طعم سواها! هكذا تنهد ماكس بحزن وهو يتأمل في حياة حكم عليه فيها إلى الأبد أن يخوض معركة طلب الماء لي في المطاعم! وكان من شأن هذا الأمر أن يجعله يشيخ بضع سنوات على حد قوله.

من هنا تعليقه على محاولتي استدرار عطفه على مشيتي المخمورة. أحاول تفسير الأمر أكثر: "يبدو أنني أجنح إلى اليسار باستمرار". فيقول ماكس إنها قد تكون إحدى الأمراض المدارية النادرة التي تحمل اسم شخص ما كمرض ستيفنسون أو مرض هارتلي. ثم يمضي إلى القول بمرح إن الأمر سينتهي على الأرجح بخسارة أصابع قدمي الواحد تلو الآخر.

أتأمل المشهد الجميل أمامي ثم يحدث أن تقع عيناى على حذائي وينجلي الغموض في الحال. الجانب الخارجي من نعل الفردة اليسرى والجانب الداخلي من نعل الفردة اليمنى متآكلان. وفيما أنا أحقق فيهما، يهبط علي الحل. لقد مشيت، منذ مغادرتنا دير الزور وحتى الآن، على سفوح حوالي خمسين أكمة ذات ارتفاعات متفاوتة- وكانت الأكمة تقع، باستمرار، إلى الجانب الأيسر. يكفيني الآن إذن، أن أمشي في الاتجاه العكسي بحيث تكون التلال إلى جانبي الأيمن كي تتساوى فردتا الحذاء مع مرور الوقت.

نصل اليوم إلى تل عجاجة، عربان سابقاً، وهو تل كبير وهام. نشعر الآن، وقد اقتربنا من طريق السفر القادم من دير الزور، أننا

نسير على طريق رئيسي بالفعل. بل إننا نمر، في الواقع، بمحاذاة ثلاث سيارات متجهة إلى دير الزور بسرعة كبيرة!

بضعة تجمعات صغيرة من البيوت الطينية تزين التل، ويمضي أشخاص متفرقون النهار معنا على الأكمة الكبيرة. إنها، عملياً، الحضارة. وسوف نمضي في الغد إلى مدينة الحسكة الواقعة على تقاطع نهري الخابور وجفجغ. هناك سوف نصبح، بالفعل، في قلب الحضارة. فالحسكة موقع عسكري فرنسي ومدينة هامة في هذا الجزء من العالم. وهناك سوف تقع عيناى، للمرة الأولى، على نهر جفجغ الأسطوري الموعود! أشعر بالترقب.

يتوافق وصولنا إلى الحسكة بالكثير من التشويق! إنها مكان يفتقر إلى الجاذبية يضم شوارع وبضعة متاجر ومكتب بريد. نقوم، فور وصولنا، بزيارتين رسميتين - الأولى إلى الجيش والثانية إلى مكتب البريد.

الملازم الفرنسي لطيف للغاية ومتعاون. يعرض علينا أن يستضيفنا، لكننا نؤكد له أن خيامنا بدت مريحة تماماً عندما نصبناها على ضفة النهر. بيد أننا نلبي دعوته إلى العشاء في اليوم التالي. أما مكتب البريد الذي نزوره من أجل الرسائل، فقصته أطول. العمل في مكتب البريد متوقف تماماً لأن مديره خارج مقر عمله. لكن صبيّاً صغيراً يخرج للبحث عنه، فيعود على الفور (بعد نصف ساعة!) ناضحاً بالمدينة ويرحب بنا في الحسكة ويطلب القهوة. وبعد تبادل مطول لعبارات المجاملة، نعود إلى ما يعيننا - أي الرسائل.

يجيبنا ببشاشة: "ولكن لم العجلة. عودوا في الغد وسيكون من دواعي سروري أن أستقبلكم".

يقول له ماكس إننا يجب أن نعمل في الغد. وعلينا أن نأخذ رسائلنا هذه الليلة.

آه، لكن ها هي ذي القهوة! فنجلس ونرتشفها. وأخيراً، وبعد بضع عظات مهذبة، يفتح مدير المكتب غرفته ويبدأ في البحث عن الرسائل، ويشجعنا، بسخاء أصيل، على أخذ بضعة رسائل إضافية موجهة إلى أوروبين آخرين. ”يحسن بكم أخذ هذه. إنها هنا منذ ستة أشهر ولم يأت أحد لأخذها. نعم، نعم، بالتأكيد، لا بد أن تكون لكم“.

لكننا نرفض بتهذيب، وإن بحزم، أن نتسلم مراسلات السيد جونسون أو السيد مافروغوداتو أو السيد باي. فيعرب مدير مكتب البريد عن أسفه.

”قليلة. أليس كذلك؟ لكن انتظروا قليلاً. ألا تأخذون هذه المجموعة الكبيرة هنا؟“

لكننا نصر على الالتزام بالرسائل والأوراق التي تحمل أسماءنا. نكتشف حوالة مالية كنا في انتظارها وينتقل ماكس إلى مسألة تسهيلها وهو أمر يبدو، بدوره، شائكاً بصورة لا تصدق. إذ نستنتج أن مدير مكتب البريد لم ير حوالة مالية من قبل وأن شكوكاً كبيرة تساوره بشأنها. فيستدعي اثنين من مساعديه ويخضعون القضية لنقاش معمق وإن تخلله الكثير من المرح. المسألة بالنسبة إليهم جديدة تماماً ومسلية ويمكن لأي شخص أن يكون لديه رأيه الخاص بشأنها.

وأخيراً يسوى الأمر ويتم توقيع عدد من الاستثمارات قبل أن

نكتشف أنه لا يوجد في مكتب البريد أية أموال نقدية في الواقع! فيقول مدير المكتب إنه يستطيع معالجة هذه المسألة في الغد حيث سيرسل أحداً إلى البازار من أجل جمع المال المطلوب.

نغادر مكتب البريد وقد نال منا التعب قليلاً ونعود إلى الموقع الذي اخترناه على ضفة النهر والذي لا يبعد عن رمال الحسكة وغبارها إلا قليلاً. وهنا نجد مشهداً مخزناً في استقبالنا. عيسى الطاهي يجلس بجوار خيمة المطبخ محتضناً رأسه بيديه وهو يندب بمرارة.

ماذا حدث؟

يجيب بأنه أصيب بالعار، يا للحسرة. لقد تخلق حوله بعض الصبية وأخذوا يسخرون منه، فخسر احترامه! ثم، في لحظة غفلة قصيرة، افترست الكلاب الطعام الذي كان قد أعده فلم يبق منه شيء باستثناء بعض الرز.

نتناول الرز المجرد بحزن، في حين يردد حمودة وأرستيد وعبد الله على مسامع عيسى المسكين أن مهمته الرئيسية كطاهي هي أن لا يدع شيئاً يشتت انتباهه عن الطعام الذي يطهوه حتى لحظة تقديمه بأمان إلى الأشخاص الذين أعد من أجلهم.

يقول عيسى إنه يشعر أنه ليس أهلاً لمنصب الطاهي. فهو لم يكن طاهياً من قبل (يقول ماكس إن "هذا يفسر الكثير!") وإنه كان يفضل لو أنه يعمل في مرآب. فهل سيزوده ماكس برسالة توصية كسائق من طراز رفيع؟

يقول ماكس بالطبع لا، فهو لم يره يقود سيارة من قبل.

يجيب عيسى لکنني أدرت محرك كوين ماري في صباح يوم
بارد. ألم تر ذلك؟

يقر ماكس إنه رأى ذلك.

فيقول عيسى تستطيع، إذن، أن توصي بي!

الفصل الثالث

الخابور وجفجغ

هذه الأيام الخريفية هي من أجمل ما عرفت في حياتي. نستيقظ صباحاً بعيد شروق الشمس ونحتسي الشاي الساخن ونتناول البيض وننطلق. الجو يارد في هذا الوقت من اليوم فأرتدي سترتين ومعطفاً صوفياً كبيراً. الضوء جميل، ضوء وردي رقيق شاحب للغاية يخفف من حدة الألوان البنية والرمادية. يستطيع المرء، من أعلى الأكمة، أن يطوف ببصره على عالم مقفر يمتد في كل الاتجاهات. التلال منتشرة في كل مكان. يستطيع المرء أن يحصي ستين أكمة، أو بالأحرى، ستين مستوطنة قديمة. فقد كان المكان هنا، الذي لم يعد يوجد فيه سوى أبناء العشائر الذين يتنقلون مع خيامهم البنية، ذات مرة، جزءاً من العالم يعج بالناس. من هنا بدأت المدينة، وهذه القطعة الخزفية، التي أمسكها بيدي الآن، التي تشكل جزءاً من قدر فخارية يدوية الصنع مزدانة بنقاط وصلبان مطلية بالأسود، هي السلف القديم لكوب وولورث التي شربت الشاي منها هذا الصباح.

أنفحص مجموعة القطع الصغيرة التي تملأ جيوب معطفي (اضطرت إلى إصلاح بطانته مرتين حتى الآن!) وأرمي تلك التي يوجد لدي ما يماثلها وأتمعن فيها كي أختار واحدة يمكنني تقديمها لكبير المحكمين في المنافسة التي أخوضها ضد ماك وحمودة.

فماذا لدي الآن إذن؟

آنية ثخينة رمادية اللون، وجزء من حافة قدر فخاري (قيمة كقطعة للعرض)، وبعض الأشياء خشنة اللمس ذات لون أحمر، وكسرتان من قدور فخارية مطلية يدوية الصنع إحداهما تحمل النقش المرقط (الأقدم في تل حلف!)، وسكين من حجر الصوان، وجزء من قاعدة آنية فخارية رمادية رقيقة والعديد من قطع يصعب وصفها، وقطعة صغيرة من الشبة.

يبدأ ماكس عملية الاختيار ويرمي بقسوة معظم القطع وينخر باستحسان لم رأى أخرى. لدى حمودة عجلة صلصالية من عربة، أما ماك، ففي حوزته كسرة من آنية محززة وجزء من تمثال صغير.

يجمع ماكس القطع التي اختارها معاً ويضعها في كيس صغير من الكتان ويربطه بإحكام ويسميه كالعادة باسم التل الذي تم العثور عليها فيه. وهذا التل، تحديداً، غير موجود على الخريطة. وقد أطلق عليه اسم تل ماك تكريماً لمكارتني الذي اكتشفه للمرة الأولى.

تشي ملامح ماك، إن كان لها أن تعبر عن أي شيء، ببعض الرضا. نعود أدراجنا من أعلى التل ونستقل السيارة وأنزع عني إحدى السترتين. فالشمس تزداد حدة.

نزور تلين صغيرين آخرين ونتناول غداءنا عند التل الثالث المشرف على الخابور. بيض مسلوق، وعلبة من لحم العجل ويرتقال وخبز معدوم المذاق. ويصنع أرستيد الشاي على الموقد المحمول. الجو حار للغاية وقد تلاشت الألوان والظلال تقريباً ولم يعد هناك سوى اللون البرتقالي الفاتح.

يقول ماكس إنه من حسن طالعتنا أننا نجري أعمال الاستطلاع الآن وليس في فصل الربيع. أسأل لماذا؟ فيقول لأن العثور على الكسر الفخارية يصبح بالغ الصعوبة عندما تنتشر النباتات في كل مكان. ويردف قائلاً إن اللون الأخضر سيغطي، بحلول فصل الربيع، كل ما يحيط بنا. إنه، يقول ماكس، السهب الخصب. أعرب له عن إعجابي بهذا الأسلوب المفخم في وصف المكان، فيقول ماكس حسناً، لكنه السهب الخصب بالفعل!

نصطحب كوين ماري اليوم إلى الضفة اليمنى من الخابور إلى تل حلف ونزور، في طريقنا إليه، تل رمان (اسم شرير، لكن التل ليس رومانياً) وتل جمعة.

تعتبر كافة التلال في هذه المنطقة مواقع محتملة للتنقيب على العكس من تلك الواقعة إلى الجنوب. فالكسر الفخارية التي تعود إلى الألفية الثانية والألفية الثالثة قبل الميلاد شائعة هنا في حين تندر البقايا الرومانية. أما الصعوبة، فتكمن في اختيار تل من التلال الكثيرة. إذ ترى ماكس يردد، المرة تلو الأخرى، بكثير من البهجة وبانعدام للأصالة، أننا بلغنا المكان المنشود، بلاريب!

هنالك في زيارتنا إلى تل حلف شيء من وقار الحج إلى مقام ديني! وتل حلف اسم تردد وقعه في أذني باستمرار في السنوات القليلة الماضية إلى درجة أكاد لا أصدق معها أنني على وشك زيارة المكان بالفعل. إنه موقع جميل للغاية يلتف نهر الخابور حول أعتابه.

أتذكر أننا زرنا، ذات مرة، البارون فون أوبنهايم في برلين حيث رافقنا إلى المتحف الذي يضم مكتشفاته. وقد انخرط مع ماكس في حوار شيق دام خمس ساعات كاملة (على ما أظن). ولم يكن هناك

من مكان مجلس فيه. وقد تضاءل اهتمامي بالمكان، منذ البداية، قبل أن يخبو تماماً. تفحصت، بعينين ينقصهما البريق، التماثيل المتنوعة بالغة القبح التي جاءت من تل حلف والتي عاصرت، برأي البارون، حقبة ذروة تطور صناعة الفخار. وكان ماكس يحاول الاختلاف معه حول هذه النقطة بتهديب دون أن يصطدم به بشكل مباشر. بدت كافة التماثيل لعيني الذاهلتين متطابقة تماماً بشكل يدعو إلى الاستغراب، قبل أن أكتشف أنها متطابقة بالفعل إذ كانت جميعها نسخ جصية لتمثال واحد.

فجأة، قطع البارون فون أوبنهايم خطبته الحماسية كي يقول بحب: "آه، وهذه هي فينوسي الجميلة" مرتباً على التمثال بحنو. ثم غاص، من جديد، في النقاش وغميت بحزن لو أنني أستطيع أن أولي الإدبار! تدور بيننا وبين السكان المحليين حوارات عديدة حول مختلف التلال التي تضاهاى تل حلف. تسود في هذه الأرجاء خرافات كثيرة بشأن البارون- وهي تناول، على وجه الخصوص، المبالغ الخيالية التي دفعها هناك على شكل ذهب. وكان من شأن مرور الزمن أن تضاعفت كميات الذهب التي أنفقها البارون إلى درجة تعجز معها الحكومة الألمانية نفسها عن سكب هذا السيل من المعدن الثمين بالطريقة التي تصفها الحكايات! تنتشر في كل أرجاء شمال الحسكة قرى صغيرة وعلامات فلاحية. وقد أصبحت هذه البلاد، منذ رحيل الحكم التركي ووصول الفرنسيين، واقعة تحت الاحتلال من جديد للمرة الأولى منذ عصر الرومان.

نعود إلى الخيام في وقت متأخر. الطقس يتغير وتهب ريح مزعجة تسفع وجوهنا بالغبار والرمل وتخز عيوننا. نمضي عشاءً ممتعاً مع

الملازم الفرنسي على الرغم من الصعوبات الجمة التي نواجهها في التأنق، أو فلنقل بالأحرى، في تنظيف أنفسنا، لأن أقصى ما نأمل فيه هو الحصول على سترة نظيفة من أجلي وقمصان نظيفة من أجل الرجال! نتناول عشاء شهياً للغاية ونمضي أمسية ممتعة. ثم نعود إلى خيامنا وسط أمطار جارفة. ليلة صاحبة تحفل بنباح الكلاب وأصوات صفق الخيام بفعل الريح العاصفة.

نغادر اليوم نهر الخابور مؤقتاً في طريقنا إلى نهر جفجغ. تلوح، على مرمى حجر، أكمة كبيرة تلهب خيالي قبل أن أكتشف أنها ليست، في الواقع، سوى بركان خامد اسمه كوكب.

أما هدفنا، فهو تل الحمدي، الذي سمعنا عنه الكثير من الروايات، على الرغم من صعوبة بلوغه لانعدام أي طريق مباشر يقود إليه. وهذا يعني أننا يجب أن نشق طريقنا وسط أرض وعرة تتخللها أعداد لا تحصى من المسيلات والأودية. مزاج حمودة ممتاز هذا الصباح. أما ماك فغارق في صمت كئيب وهو يعتقد أننا لن ننجح في بلوغ الأكمة. يتطلب الأمر منا سبع ساعات من القيادة - سبع ساعات شاقة تعلق السيارة خلالها في الأرض أكثر من مرة الأمر الذي يضطرنا إلى النزول من أجل إخراجها.

يتفوق حمودة على نفسه في هذا النوع من المناسبات. فهو يعتبر السيارة، على الدوام، صنفاً رديئاً من الخيول وإن يكن أكثر سرعة. فيعلو صوته بحماسة، في لحظات عدم اليقين عند وصولنا إلى واد ما، ويصدر أوامر مسعورة لأرستيد.

”بسرعة، بسرعة. لا تمنح هذه الآلة أية فرصة للرفض! احمل عليها! احمل عليها!“.

ثم يبلغ اشمئزازه أقصاه عندما يأمر ماكس بإيقاف السيارة ويخرج منها كي يدرس العائق الذي يواجهها. فيهز رأسه باستياء واضح كمن يقول ما هكذا تعامل سيارة متوتبة! لا تعطها الوقت للتفكير وسيكون كل شيء على ما يرام.

وأخيراً، نبلغ المكان المنشود بعد رحلة حافلة بالناورات والوقوفات استعنا فيها بممرشدين محليين. يبدو تل الحمدي رائع الجمال في شمس بعد الظهيرة. تتسلق السيارة سفحه اللطيف إلى قمته بفخر وبحس مرهف بالإيجاز.

يبدو ماك متأثراً بما يكفي كي يفوه بتعليق.

“آه”، يقول بشيء من الارتياح الكئيب، “مياه راكدة كما أرى“.

وستصبح تلك الكلمة، منذ تلك اللحظة، لقباً له!

تصبح الحياة الآن أكثر صخباً ونشاطاً. وتزداد أعمال تحري التلال إثارة بشكل يومي. يتطلب الاختيار النهائي للتل اجتماع ثلاثة عوامل أساسية. أولاً، يجب أن يكون التل على ما يكفي من القرب من قرية أو من تجمع قرى من أجل الحصول على اليد العاملة. وثانياً، يجب أن يكون هناك مصدر للمياه— أي أنه يجب أن يكون التل قريباً من نهر جفجف أو من نهر الخابور أو أنه يجب أن يوجد فيه بئر ماء مياهه قابلة للشرب. وثالثاً، يجب أن يقدم التل مؤشرات على أنه يضم الأشياء المنشودة. والتنقيب شكل من أشكال المقامرة— فمن يستطيع أن يؤكد بثقة أي تل بالضبط، من مجموعة من سبعين تلاً شغلت، جميعها، في الحقبة التاريخية نفسها، يضم بناء أو مخزون رُقم أو مجموعة من الأشياء التي تحمل أهمية خاصة؟ بل إن التل الصغير يحمل الآمال نفسها التي يحملها التل الكبير— لأن احتمالات أن

يكون موقع ما قد تعرض للنهب أو التدمير في الماضي القريب تزداد كلما كان الموقع أكبر. ويعتبر الحظ عاملاً مهماً في هذا المجال. فكم من موقع تم التنقيب فيه بحرص وبأسلوب مضبوط، موسماً بعد موسم، دون تحقيق نتائج ذات مغزى، ثم ينزاح التنقيب بضعة أقدام، وفجأة، يخرج إلى النور كشف فريد. أما عزاؤنا الحقيقي الوحيد، فهو ثقتنا التامة بالعثور على شيء ما، مهما يكن التل الذي اخترناه.

أمضينا يوماً واحداً في زيارة خاطفة أخرى لتل حلف على الضفة المقابلة للخابور وأمضينا يومين في جفجغ، وهو أقل شأناً من حيث المظهر من أن يكون نهرًا— فهو مسيل طيني بني اللون بين ضفتين مرتفعتين— وقيدنا تلاً واحداً في سجلاتنا— هو تل براك— باعتباره مرشحاً قوياً. فهو تل كبير يحمل علامات حقب تاريخية عديدة تمتد من عصر ما قبل التاريخ الأول وانتهاءً بالفترة الآشورية. يبعد تل براك حوالي ميلين عن نهر جفجغ حيث تنتصب مستوطنة أرمنية بالإضافة إلى قرى أخرى متناثرة لا تبعد كثيراً عنا. كما يبعد التل مسيرة ساعة بالسيارة عن الحسكة التي تشكل مصدراً مناسباً للتموين. أما نقطة ضعفه فهي أنه ليس في التل، ذاته، من ماء على الرغم من أنه يمكن حفر بئر فيه على سبيل الاحتمال. وبذلك، يصبح التل موقعاً مرشحاً.

نتخذ اليوم الطريق الرئيسي الذي يتجه شمالاً من الحسكة إلى القامشلي، وهي موقع عسكري فرنسي آخر وبلدة حدودية تقع على الحدود المشتركة بين سورية وتركيا. يتوسط هذا الطريق، لبعض الوقت، المنطقة الممتدة بين الخابور وجفجغ قبل أن ننضم إلى نهر جفجغ عند مدينة القامشلي.

نقرر، نظراً لاستحالة دراسة كافة التلال الواقعة على طريقنا ثم

العودة إلى الحسكة في الليلة نفسها، أن نبيت ليلتنا في القامشلي على أن نعود في اليوم التالي.

تباين الآراء حول المكان الذي سبيت فيه. فالإقامة في الشيء المدعو فندقاً مستحيلة برأي الملازم الفرنسي. «*C'est infecte,!*»^(١٦). في حين يراه حمودة وأريستيد فندقاً ممتازاً وأوروبياً تماماً فضلاً عن كونه مزوداً بالأسرة! إنه فندق من الطراز الأول!

نكظم إحساساً داخلياً ينبئنا أن الملازم سيكون محقاً ونبدأ رحلتنا. السماء مشرقة من جديد بعد يومين من الأمطار الغزيرة. ونأمل أن الحالة الجوية لن تسوء، من جديد، قبل حلول شهر كانون الأول. هنالك، بين الحسكة والقامشلي، واديان كبيران. فإن غمرتاهما المياه، فسيقطع الطريق لبضعة أيام. لكن المياه فيهما ضحلة اليوم فتجاوزهما - أي نحن ركاب سيارة أرسيتيد - دون كبير عناء. أما عبد الله، فلا يحيد قيد أنملة عما عهدناه فيه. إذ ينحدر إلى الوادي مستخدماً أعلى تعشيق للتروس ويحاول الصعود منه بالتعشيق نفسه. ثم ينزل التعشيق إلى الثاني من وضعية الثبات، فيهدر المحرك باحتجاج ويتوقف عن العمل وينزلق عبد الله بهدوء إلى قعر الوادي وتغوص العجلتان الخلفيتان في الطين والماء. فنغادر سيارتنا في مسعى لإنقاذ الموقف.

يشتم ماكس عبد الله واصفاً إياه بالأبله اللعين ويسأله لماذا لا يقوم بما قيل له مئات المرات من قبل؟ ويوبخه حمودة على بطئه. «أسرع، أسرع. لقد أظهرت الكثير من التردد. لا تمنح السيارة الوقت للتفكير، فلا تعاندك». في حين يصيح أرسيتيد بمرح: «سنخرج من هنا في عشر

١٦ - بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "المكان موبوء يا سيدتي!" (الترجم)

دقائق إن شاء الله!». أما ماك، فيقطع صمته الطويل كي ييوج بملاحظاته المحبطة المعهودة. «لم يحل له أن يعلق إلا في أسوأ مكان. انظروا كم هي كبيرة الزاوية. سنمضي وقتاً طويلاً هنا قبل أن ننجح في الخروج». أما عبد الله فيرفع يديه إلى السماء ويدافع عن نفسه على طريقته. «كان ينبغي لسيارة ممتازة كهذه أن تصعد بسهولة على التعليق الثالث دونما حاجة إلى إنزال التروس على الإطلاق فأوفر بذلك بعض الوقود! إنني أقوم بكل شيء لإرضائك!».

ثم تتراجع نوبة العويل الجماعي مفسحة المجال أمام العمل الفعلي. فيتم إحضار الألواح والمعاول وغيرها من الأدوات التي توافقتنا دائماً تحسباً لهذا النوع من الحوادث. ويقوم ماكس بدفع عبد الله جانباً ويحتل مكانه خلف مقود كوين ماري وتوضع الألواح في أماكنها ويتخذ ماك وحمودة وعبد الله مواقعهم استعداداً لدفع السيارة. ولأن الخاتون البريطانية لا تعمل في الشرق (يا لها من فكرة عظيمة!)، أتخذ مكاني على ضفة النهر وأنا على أهبة الاستعداد لإطلاق هتافات التشجيع وتقديم النصائح المفيدة. يشغل ماكس محرك السيارة ويضغط على دواسة الوقود، فتزداد دورات المحرك، وتنبعث من العادم سحابة من الدخان الأزرق تكاد تقضي على الرجال الذين يدفعون السيارة، ويعشق ماكس التروس فتزجر السيارة بهدير مخيف وتدور العجلات في مكانها ويزداد الضباب الأزرق كثافة، ومن قلب الضباب، تخرج صرخات حادة تستمطر رحمة الله وتتقدم كوين ماري بضعة أقدام ويزداد الهدير. الله رحيم...؟

لكن الله، لبالغ الأسف، لا يبدي ما يكفي من الرحمة! إذ تفقد العجلات تماسكها وتغرق كوين ماري من جديد. تمد الألواح من

جديد. الجهود نفسها والصراخ نفسه ونوافير الطين نفسها وسحب الدخان الأزرق نفسها. وهذه المرة نصبح أقرب من قبل.

يبدو أن الأمر يتطلب قوة إضافية صغيرة. هكذا تربط مقدمة كوين ماري بمؤخرة سيارة الأجرة بحبل جر ويجلس أرستيد خلف مقود سيارة الأجرة. ويتخذ الآخرون مواقعهم. يببالغ أرستيد في حماسه، فيعلق تروس سيارته قبل الأوان فينقطع الحبل. عود على بدء. وهذه المرة أكلف بمهمة التنسيق بحيث لا ينطلق أرستيد إلا عندما أعطيه إشارة بمنديلي.

تبدأ المناورة من جديد. ويستعد حمودة وعبد الله وماك للدفع ويطلق الأولان هتافات التشجيع على أمل أن تستجيب السيارة. مرة أخرى يشغل ماك السيارة. ومرة أخرى تنبعث نوافير الماء والطين ممزوجة بسحب الدخان الأزرق ويزجر المحرك متسارعاً وتبدأ العجلات بالحركة وأشير بمنديلي فيطلق أرستيد صراخاً وحشياً ويرسم شارة الصليب على صدره ويصيح أن الله كريم ويعشق تروس سيارة الأجرة ويسحق دواسة الوقود. فتتهدج كوين ماري وتتحرك إلى الأمام ببطء وهي تزجر ويتوتر حبل الجر ثم تردد كوين ماري وتدور عجلتها الخلفيتان في المكان فيهبها ماكس بقوة فتنتقل من جديد ويستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن تصل أخيراً إلى الأعلى!

يخرج من خلف الشاحنة شكلان يغطيها الطين تماماً وهما يصيحان بمرح، ثم شكل ثالث غارق في الطين، هو كذلك، يسير برصانة- إنه، بالطبع، ماك الذي لا يمكن لشيء أن يهبه- دون أن تبدو عليه علامات ضيق أو علامات فرح على حد سواء.

أنظر في ساعتني وأقول: «ربع ساعة. هذا ليس بالأمر السيئ»

فيجيب ماك بهدوء: «ربما ستكون الأمور عند وصولنا إلى الوادي التالي أسوأ من ذلك».

ماك ليس مخلوقاً بشرياً بالتأكيد!

نتابع رحلتنا التي تبث أغنيات حمودة الحياة فيها. إنه يجلس في المقعد الأمامي مع ماكس ويمضيان وقتاً ممتعاً. أما أنا وماك، فجالسان في الخلف بصمت. يعاودني الإحساس بالغباء في كل مرة أبادر فيها بالحوار. إذ يتحمل ماك، كالمعتاد، عناء سماع ملاحظاتي الغبية بصبر وتهذيب مولىً إياها عناية كبيرة لا تستحقها ويرد عليها بإحدى صيغتيه المعروفتين: فإما أن يوافق على ما أقوله بكلمة «حقاً؟» أو أنه يؤنّبني بأسلوبه اللطيف بكلمة «هل تظنين ذلك؟».

نصل، الآن، إلى الوادي الثاني. فتوقف ويحتل ماكس مكان عبد الله خلف مقود كوين ماري. يعبر أرستيد الوادي أولاً دون أن يرتكب أي خطأ، يليه ماكس الذي ينحدر بعد تعشيق التروس على الثاني ثم يعشق على الأول في طريقه إلى الصعود وتصل كوين ماري مترنحة بظفر.

يقول ماكس لعبد الله: «أرأيت؟»

فترتسم على أسارير عبد الله ملامح الجمل بكامل أبعادها ويقول: «كانت لتصعد هذه المرة على الثالث. لم تكن بك من حاجة إلى تغيير التعشيق».

ومن جديد يصفه ماكس بأنه أبله لعين ويردف قائلاً إنه يجب عليه في المرات القادمة أن يلتزم بما يقال له حرفياً. فيجيبه عبد الله بفرح إنه سيفعل على الدوام ما هو أفضل.

فيستسلم ماكس وتتابع الرحلة.

التلال هنا كثيرة. أتساءل الآن إن لم يكن الوقت قد حان كي أستأنف دوراني حولها بعكس عقارب الساعة.

نصل إلى تل اسمه شاغر بازار. تهرع كلاب وأطفال من مجموعة صغيرة من المنازل. ويلوح من بعيد شخص ذو مظهر لافت يرفل بجلباب أبيض وعلى رأسه عمامة خضراء. إنه شيخ العشيرة المحلي. يرحب بنا برقة فائقة ثم يتوارى معه ماكس في أكبر البيوت الطينية. وبعد بضعة لحظات، يخرج الشيخ ويصيح: «المهندس! أين هو المهندس؟». يشير حمودة إلى ماك أنه المقصود بالنداء، فيذهب ماك.

يصرخ الشيخ: «هاه، إليكم اللبن». ويقدم قدراً من الحليب الرائب المحلي. «كيف تحب اللبن أيها المهندس، سميكاً أم خفيفاً؟» فيومئ ماك، المولع باللبن، إلى جرة الماء التي يحملها الشيخ. أشاهد ماكس وهو يحاول جاهداً رد الاقتراح لكن بعد فوات الأوان. إذ يضاف الماء إلى اللبن ويشربه ماك بشيء من الاستمتاع.

يقول له ماكس لاحقاً: «لقد حاولت تحذيرك. فذلك الماء لم يكن، في الواقع، سوى طمي أسود خفيف!».

نتائج تحرياتنا في تل شاغر بازار جيدة في الواقع... إذ توجد قرية وآبار وبضع قرى مجاورة أخرى - بالإضافة إلى شيخ لطيف وإن يكن جشعاً بلا شك. فنسجل التل على أنه موقع محتمل وتتابع سيرنا.

نضطر، بضع مرات، إلى سلوك طرق التفافية كي نتجنب السبخات، ما يؤخر وصولنا إلى بعض التلال الواقعة بالقرب من نهر جفجف حتى نهاية اليوم، ونعود إلى القامشلي في وقت متأخر للغاية.

يفرمل أرسيد السيارة بعنف أمام فندق الدرجة الأولى.

ويقول: «أترون؟ أليس جميلاً؟ بناؤه من الحجر!».

نمسك عن القول إن داخل الفندق أكثر أهمية من خارجه. لكنه، على كل حال، الفندق الموجود بغض النظر عن حالته. لقد قضي الأمر.

ندخل إلى الفندق ونصعد إلى الأعلى عبر سلم طويل قذر كي نصل إلى مطعم سطوح طاوولاته مصنوعة من رخام تعلوه طبقة سميكة من الشمع والثوم والدخان.

يدخل ماكس في مفاوضات مع مالك الفندق.

إنه فندق بالتأكيد. وهو فندق بأسرة- بأسرة حقيقية! والدليل على ذلك أنه يدفع باب غرفة ينام فيها أربعة أشخاص على أسرة. وهناك في الغرفة سريران غير مشغولين.

يقول: «ها هي ذي الأسرة» ثم يركل أقرب النائمين: «وهذا الحيوان هنا، يمكننا أن نرميه إلى الخارج! إنه سائسي».

لكن ماكس يتقدم بطلب غير منطقي بأن نحصل على غرفة لأنفسنا. ترتسم علامات التردد على وجه المالك ويقول إن الأمر سيكلفنا قدرًا كبيراً من المال.

فيخبره ماكس باستهتار إنه لا يمانع في دفع المال ويسأله كم يكلفنا الأمر؟

يرتبك المالك قليلاً ويحك أرنبه أذنه ويقيس مظهرنا (الذي لا يبدو عليه الشراء الفاحش بسبب الطين)، وأخيراً يستقر رأيه عند مبلغ جنيه واحد لنا نحن الأربعة.

فياغته ماكس بالموافقة على دفع المبلغ دون أن يبدي أي اعتراض.
تدب الحركة والنشاط في الفندق على الفور. فيتم إيقاظ النائمين
ويستدعى الخدم. أما نحن، فنجلس إلى إحدى الطاولات الرخامية
ونطلب أفضل طعام يمكن للفندق أن يقدمه.

يأخذ حمودة نفسه على عاتقه مهمة الإشراف على إعداد مكان
النوم. ويعود بعد ربع ساعة وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على محياه.
ستكون هناك غرفة توضع في تصرفي وتصرف ماكس في حين أنه
سيشارك ماكس الغرفة الأخرى. كما أنه وافق، «لخبر سمعتنا» على
حد قوله، على دفع كلفة إضافية مقدارها خمسة فرنكات من أجل
الحصول على ملاءات نظيفة!

يصل الطعام. إنه دسم للغاية لكنه ساخن ومستساغ. نتناول طعامنا
بحماسة ونأوي دون جلبة إلى غرفنا ونرتمي على أسرتنا ذات الملاءات
النظيفة. وفيما أنا في طريقي إلى النوم، يعاودني السؤال المعقول المتعلق
بـ «البراغيث». لكن ماكس يؤكد لي أننا آمنون من البراغيث لأن
الفندق حديث البناء وأسرته معدنية جديدة.

تتسرب روائح الثوم والدخان والشمع من باب المطعم القريب،
وهناك كذلك أصوات ثرثرة مرتفعة باللغة العربية. بيد أنه لا يمكن
لشيء أن يمنعنا من النوم. فننام.

نستيقظ في الصباح وقد نجونا من اللسع. الوقت متأخر أكثر مما
نتوقع. ينتظرنا، من جديد، يوم طويل. يفتح ماكس باب الغرفة بسرعة
ثم يتراجع قليلاً. المطعم مليء بالنيام الذين أخرجوا من غرفنا. وهم
مددون بين الطاولات. هنالك عشرون منهم على الأقل. الجو ثقيل
ل للغاية. يقدم لنا الشاي والبيض ونطلق من جديد. يخبر حمودة ماكس

بحزن أنه حادث الخواجة ماك مطولاً وبجدية في الليلة الماضية، لكن الخواجة ماكس ما يزال، حتى الآن، بعد مرور شهرين، لا يفهم أية كلمة بالعربية.

يسأله ماكس عن مقدار التقدم الذي حققه في كتاب «العربية للمبتدئين» لفان إيس. فيجيبه ماك إنه يبدو أنه نسيه في مكان ما.

نتسوق بعض الحاجيات من القامشلي وننتقل إلى عامودا. يمكننا القول إن الطريق إلى تلك المدينة ذو شأن. إنه، في الواقع، طريق حقيقي وليس مجرد مسلك. وهو يسير في محاذاة الخط الحديدي الواقع على الجانب الآخر من الحدود، أي في الأراضي التركية.

سطح الطريق مرعب تنتشر فيه الأخاديد والحفر. وعلى الرغم أنه يهزنا حتى الأعماق، إلا أنه يبدي علامات على الحياة لا شك فيها. إذ نجتاز عدداً من السيارات، وكان علينا أن نشتم عبد الله وأرستيد بقسوة بسبب انغماسهما في الرياضة المفضلة لدى السائقين المحليين التي تتمثل في محاولة دهنس، أو على أقل تقدير، بث الرعب في الحمير والجمال التي ترعاها نسوة مسنات وأطفال.

يسأله ماكس: «أليس الطريق عريضاً بما يكفي كي تسير على الجانب الآخر منه؟»

فيلتفت عبد الله إليه بدهشة.

«ألست أنا من أفود سيارة النقل؟ هؤلاء البدو المساكين هم من يجب أن يتعدوا عن طريقي - هم وحيواناتهم التافهة!».

أما أرستيد، فينسل بهدوء خلف حمار ينوء تحت وطأة حملة وإلى جانبه رجل وامرأة يسيران بمشقة ويطلقن بوقاً قوياً. فيفر الحمار

مذعوراً وتصرخ المرأة وتهرع خلفه ويهز الرجل قبضته مهدداً، في حين ينفجر أرستيد ضاحكاً.

بدوره، يتلقى أرستيد نصيبه من الشتائم، لكنه، كالعادة، لا يظهر أية علامات على الندم.

عامودا مدينة يغلب عليها الطابع الأرمني ولا يمكن القول إنها جميلة. أعداد الذباب فيها تفوق الوصف، ويتسم الصبية الصغار فيها بسلو كيات هي أسوأ ما رأيت على الإطلاق، والناس يبدون ضجرين وفي الوقت نفسه مشاكسين. المدينة، بالإجمال، لا تصمد أمام المقارنة بالقامشلي. نبتاع لحماً مشكوكاً في نوعيته يحوم الذباب حوله أسراباً وخضاراً ذاوية وخبزاً طازجاً.

يمضي حمودة بعيداً ليتحرى أحوال المدينة ويعود مع انتهائنا من الشراء ويقودنا في طريق جانبي تلوح في نهايته بوابة تفضي إلى فناء. هناك، يرحب بنا كاهن أرمني يتمتع بالكثير من الكياسة ويعرف القليل من الفرنسية. يلوح بيده حول الفناء ثم يشير إلى بناء يقع في أحد جوانبه قائلاً إنه بيته.

نعم، إنه مستعد لتأجيرها لنا في الربيع القادم إن كانت «الترتيبات» مرضية. نعم، يمكنه، في القريب العاجل، أن يفرغ غرفة كفي نخزن الأغراض فيها.

على هذه الشاكلة، تمضي المفاوضات، ثم نقفل عائدين إلى الحسكة. هنالك طريق مباشر من عامودا يلتقي بالطريق القادم من القامشلي عند تل شاغر بازار. نتفحص بضعة تلال على طريقنا ونعود إلى مخيمنا دون أن يصيبنا سوء على الرغم من أن التعب نال منا.

يسأل ماكس ماك مطمئناً إن كان الماء القذر الذي قدمه الشيخ له قد آذاه. فيجيبه ماك إنه لم يشعر في أي وقت مضى بأنه أفضل مما هو عليه اليوم.

يقول لي ماكس، في وقت لاحق، عندما نندس في أكياس النوم: «قلت لك إن ماك كنت. لديه معدة من طراز رفيع! لا شيء يغضبه. يستطيع أن يأكل أية كمية من الدهون والأقذار. وهو، عملياً، لا يفتح فاه».

فأجيبه: «قد تكون هذه الأمور حسنة بالنسبة إليك! فأنت وحمودة لا تكفان عن الضحك والثرثرة. لكن ماذا عني؟».

«لا أفهم لماذا تكون الأمور بينكما على ما يرام. هل تحاولين؟».

«أحاول على الدوام! لكنه يصدني باستمرار».

يبدو أن ماكس يجد الأمر مسلياً فيضحك بكل فمه.

نصل اليوم إلى عامودا، مركز نشاطنا الجديد. ونركن كوين ماري وسيارة الأجرة في فناء الكاهن الأرمني. إحدى غرف البيت قد أفرغت من محتوياتها بالفعل وهي الآن تحت تصرفنا، لكن حمودة ينصحنا بعد فحصها أن ننام في الخيام! ننصب خيامنا بمشقة بسبب الرياح القوية ثم يبدأ المطر بالهطول. يبدو أننا لن نغادر مكاننا في الغد. إذ يكفي أن يهطل المطر أربعاً وعشرين ساعة كي تصاب الحركة المرورية بالشلل. من حسن حظنا أننا حصلنا على غرفة يمكننا أن نمضي اليوم فيها ويستطيع ماكس أن يكتب تقاريره وأوراقه أولاً بأول.

نفرغ، ماك وأنا، الأغراض ونرتب الغرفة ونضع فيها الطاولة

والكراسي القابلة للطبي والمصاييح وما سواها، في حين يخرج الآخرون إلى البلدة كي يشتروا الحاجات الضرورية.

تهب الريح في الخارج وتهطل الأمطار بغزارة. هنالك ألواح زجاجية مكسورة في النوافذ والجو في الغرفة بارد للغاية. فأنظر بشوق إلى مصباح النفط.

أقول: «أود لو أن عبد الله يعود كي نشغل السخان».

فبعد الله سيد الأشياء المزاجية ومصاييح النفط، بلا ريب، على الرغم من أن الطبيعة حرته من الذكاء، وعلى الرغم من أنه سائق أخرق ومعوق عقلياً في كل شيء تقريباً. يتجه ماك إلى السخان ويفحصه.

يقول إن مبداه العلمي بسيط للغاية. فهل أسمح له بتشغيله؟

أقول له إنني موافقة وأعطيه علبة أعواد ثقاب.

ينتطح ماكس للمهمة بثقة كبيرة بالنفس. ويقوم بإشعال الفتيل وما إلى ذلك. يدها رشيقتان وماهرتان ويبدو بوضوح أنه يعرف ماذا يفعل. يمر الوقت... والمصباح لا يضيء. يعيد ماك العملية منذ البداية من إشعال للفتيل...

يتمتم، بعد خمس دقائق، لنفسه، أكثر منه لي:

«المبدأ واضح بما يكفي...».

أختلس نظرة إليه بعد مرور خمس دقائق أخرى. حرارته ترتفع ولا يبدو عليه التفوق. فالمصباح يعانده. مبدأ علمي أو من غير مبدأ علمي. ثم يضطجع على الأرض ويصرع ذلك الشيء وقد أخذ العرق يتصبب منه...

يجتاحني إحساس غامر بالسعادة. فماك في نهاية المطاف بشر
هزمه مصباح نفظاً!

يعود ماكس وعبد الله بعد نصف ساعة. وجه ماك قرمزي والمصباح
لما ينر بعد.

يقول عبد الله: «آه، دعني أقم بهذا يا خواجة». ويلتقط الفتيل
وعلبة الثقاب- وتمر دقيقتان وها هو ذا المصباح يتوهج على الرغم من
ثقتي التامة أن عبد الله لا يعلم شيئاً عن أي مبدأ علمي...
«حسناً»، يقول ماك بلا مبالاة المعهودة على الرغم من أنه تعليقه،
في هذه المرة، محمل بالكثير.

تصبح الريح في تلك الليلة هوجاء والأمطار تهطل كالسياط. يندفع
أرستيد إلى الداخل ويقول إنه يظن أن الخيام توشك على الانهيار.
نهرع، جميعنا، إلى الخارج تحت المطر. ويخيل إلي أنني قاب قوسين
أو أدنى من معاينة الوجه القبيح لـ *le camping*.

يناضل ماكس وماك وأرستيد ضد الخيمة الكبيرة ببسالة. ويتشبث
ماك بعمود الخيمة.

وفجأة نسمع صوت قرقعة ويتحطم العمود ويغرق ماك في الطين
السميك اللزج.

يكافح ماك كي ينهض وقد غطى الطين سحته بطريقة لم يعد
معها التعرف عليه ممكناً. وفجأة يعلو صوته وقد اتخذ نبرة طبيعية:
«اللعنة!». ماك يصرخ. لقد تحول أخيراً إلى مخلوق بشري.

ومنذ تلك الليلة، يصبح ماك واحداً منا!
ينقضي الطقس الرديء، لكن الطرق اليوم أكثر بللاً من أن تكون

القيادة عليها ممكنة. فنخرج بحذر إلى بعض التلال القريبة. يعتبر تل حمدون من التلال الواعدة وهو تل كبير لا يبعد كثيراً عن عامودا ويقع على الحدود تماماً، بل إن الخط الحديدي يخرقه بحيث يقع قسم منه يقع في الأراضي التركية.

نصل إلى التل ذات صباح برفقة رجلين أحضرناهما كي يحفرا خندقاً على جانب التل. المكان حيث يحفران بارد للغاية، فأمضي إلى الناحية المقابلة من التل بعيداً عن الريح. أصبح الجو الآن خريفاً بالتأكيد، فأجلس إلى جانب التل وأتدثر بمعطفي.

وفجأة ينبثق من لا مكان، كالعادة، رجل على صهوة جواد ويقترّب من التل ويصرخ نحوي مخاطباً إياي بعربية طليقة. لكنني لا أفهم شيئاً مما يقوله باستثناء التحية التي أردّها بتهذيب وأقول له إن الخوارجة موجود في الناحية المقابلة من التل. ينظر إلي بارتباك وي طرح علي سؤالاً آخر ثم يلقي رأسه إلى الخلف على حين غرة ويزجر ضاحكاً.

”آه. إنها خاتون!“ يصرخ. ”يال له من خطأ! إنها خاتون من أتكلم معها!“ وينطلق باتجاه الجانب الآخر من الأكمة وهو يضحك من عجزه عن تمييزي كأمراة من النظرة الأولى!

ولت أفضل الأيام، والسماء الآن غائمة باستمرار. انتهينا من عملية مسح التلال، ونجمن لحظة اتخاذ القرار حول المكان الذي ستضرب فيه معاولنا في الربيع القادم.

تتنافس ثلاثة تلال على الفوز بشرف نيل اهتمامنا: تل حمدون الذي يقع، من الناحية الجغرافية، في قطاع مشير للاهتمام؛ يليه خيارنا الأول، تل شاغر بازار؛ ثم أخيراً، تل موزان وهو أكبر التلال الثلاثة

ويعتمد اختياره إلى حد بعيد على مقدار المخزونات الرومانية التي ينبغي الحفر عبرها.

يجب أن تجري جولة على التلال الثلاثة جميعها. والبداية من تل موزان. هنالك في موقع التل قرية نحاول من خلال سفيرنا حمودة الحصول على يد عاملة منها. لكن الرجال يبدون الكثير من الشك والريبة.

يقولون: "لسنا في حاجة إلى المال. لقد كان الحصاد وفيراً".

أفكر في كم هو بسيط هذا الجزء من العالم وكم هو، بالتالي، سعيد. الغذاء هو الهم الوحيد. فإن كان الحصاد وفيراً، فأنت ثري حتماً، وتستطيع أن تقضي بقية العام بكسل ووفرة حتى يحين موعد حراثة الأرض وبذارها من جديد.

يقول حمودة على طريقة حية جنة عدن: "لكن بعض المال الإضافي لا يضير".

فيجيون ببساطة: "لكن ماذا نشترى به؟ لدينا ما يكفي من الطعام حتى موعد الحصاد التالي".

وهنا تتدخل حواء، للأسف، كي تلعب دورها الأزلي ويرمي حمودة الداهية شراكة. يمكنهم شراء بعض الحلبي لزوجاتهم.

تهز الزوجات رؤوسهن ويقلن إن التنقيب أمر حسن!

يقلب الرجال الفكرة في رؤوسهم على مضض. هنالك أمر آخر يجب أخذه بالحسبان. الكرامة. فكرامة العربي عزيزة عليه. هل التنقيب كريم ومشرف؟

فيشرح حمودة الأمر لهم بأن العمل لن يستغرق سوى أيام معدودة،

وهم، في كل الأحوال، يستطيعون دراسة العرض قبل حلول الربيع. وأخيراً، تخرج من صفوف هؤلاء الرجال الذين ترسم على وجوههم تعبيرات الشك إزاء تلك المغامرة الجديدة غير المسبوقة، ثلثة من ذوي العقول الأكثر تقدمية. أما المسنون الأكثر محافظة، فيهزون لحاهم البيضاء.

وبإشارة من حمودة، يتم إنزال المعاول والمجارف من كوين ماري وتوزع على الرجال وبمسك حمودة نفسه معولاً ويقدم لهم عرضاً إيضاحياً.

يتم تنفيذ ثلاث عمليات حفر تجريبية في مناسيب مختلفة من التل. ويتمم أحدهم بكلمة "إن شاء الله!" ويبدأ الحفر.

نزير تل موزان من لائحة المواقع الواعدة على مضض. فهناك العديد من الطبقات الرومانية. وعلى الرغم من أن الحفبة التي نرغب في الحفر إليها موجودة تحتها، إلا أن بلوغها يتطلب عدة مواسم، أي مقادير من الوقت والمال أكثر مما نطبق.

نتجه اليوم إلى صديقنا القديم شاغر بازار. يتم الانتهاء من الترتيبات المتعلقة باليد العاملة بسرعة. فالشيخ هنا رجل فقير غارق في الديون وهو لا يرى في المسألة برمتها أكثر من كونها فرصة سانحة لتحقيق بعض الربح.

يقول الشيخ لماكس بسخاء، وبريق الحسابات يشع من عينيه: "كل مالي هو لك أيها الأخ. لا حاجة بك لدفع أي مبلغ من المال مقابل الأرض. خذ كل ما أملك!".

ثم يعيل برأسه إلى حمودة، وقد ابتعد ماكس في طريقه إلى قمة التل.

”هذا الخواجة فاحش الثراء بلا ريب أليس كذلك؟؟! لكن هل هو
بثراء البارون طيب الذكر الذي كان يغدق الذهب بالأكياس؟“.

فيجيبه حمودة: ”لم تعد المدفوعات في أيامنا هذه تسدد ذهباً. ومع
ذلك الخواجة ثري للغاية. وفضلاً عن ذلك، سيقوم الخواجة ببناء بيت
هنا في جميع الأحوال- بيت كبير وبهي سيكون حديث الناس في كل
مكان. أية أبهة سيجلبها بيت الحفريات إلى الشيخ؟ سيقول الجميع إن
الخواجات الأجانب اختاروا هذه البقعة كي ينووا وينقبوا فيها بسبب
قربها من هذا الشيخ التقى الذي حج إلى مكة والذي يجله الجميع“.

ترضي فكرة البيت غرور الشيخ، فيتأمل في التل.

”يجب أن أضحي بالمحصول الذي كنت على وشك بذاره على
الأكمة هذه. يالها من خسارة كبيرة- يالها من خسارة كبيرة!“.

يقول حمودة: ”لكن ألم يكن يفترض بك أن تحرث الأرض
وتبذرهما قبل الآن؟“.

يقول الشيخ: ”لقد حدث بعض التأخير. لكنني على وشك القيام
بذلك“.

”لكن هل سبق لك أن زرعت هذه الأرض؟ بالطبع لا! من يحرث
هضبة عندما تكون لديه كل هذه السهول حوله؟“.

يقول الشيخ مؤكداً: ”الخسارة التي ستحقيق بي ستكون كبيرة. لكن
ماذا في ذلك؟ إنها تضحية سأقدمها عن طيب خاطر إرضاء للحكومة.
فليس مهماً أن أفلس؟“.

ويعود إلى بيته وقد ارتسمت على وجهه علامات ابتهاج مؤكداً.
تتقدم امرأة مسنة نحو حمودة وهي تقود بيدها صبيلاً في الثانية
عشرة من عمره تقريباً.

”هل لدى الخواجة دواء؟“

”لديه بعض الأدوية. نعم.“

”هل سيعطيني بعض الدواء من أجل ابني.“

”وما به ابنك؟“

سؤال لا ضرورة لطرحة. فعلامات البلاهة على وجهه واضحة للغاية.

”حواسه لا تعمل كما يجب.“

يهز حمودة رأسه بأسى قائلاً إنه سيسأل الخواجة.

كان الرجال قد بدؤوا الحفر عندما يصل حمودة مع المرأة والطفل إلى ماكس.

ينظر ماكس إلى الصبي ثم يلتفت إلى المرأة برقة ويقول: ”هذه مشيئة الله. ليس لدي أي دواء أستطيع تقديمه للصبي.“

تنهد المرأة - وأظن أن دمعة سالت على خدها. ثم تقول بصوت واقعي.

”إذن هلا أعطيتني سماً يا خواجة. لأنه خير له أن لا يعيش.“

فيجيها ماكس برقة إنه لا يستطيع القيام بهذا الأمر كذلك.

تحقق المرأة فيه بنظرة عدم فهم ثم تهز رأسها بغضب وتمضي بعيداً مع الصبي.

أتسلق على مهل إلى قمة الأكمة إلى حيث ماك منهمك في أعمال المسح. هنالك صبي عربي يمسك باهتمام وارتباك عصا المساحة. ما يزال ماك يعرض عن المخاطرة ولو بكلمة واحدة باللغة العربية فيضطر

للتعبير عن رغباته بلغة الإشارة التي لا تؤتي أكلها على الدوام. فيسارع
أزستيد إلى نجدته، كما يفعل على الدوام!

أتلفت حولي فأشاهد إلى الشمال خط التلال التركية كما أشاهد
بقعة متألقة واحدة هي مدينة ماردين. وإلى الغرب والجنوب والشرق،
يتمتد السهب الخصب الذي سيكتسي في فصل الربيع بالخضرة ويتلألأ
بالأزهار. التلال متناثرة في كل مكان. وخيام البدو تنتشر هنا وهناك في
تجمعات ذات لون بني. وعلى الرغم من وجود بعض القرى في العديد
من التلال، إلا أنني لا أستطيع رؤيتها- وهي، في جميع الأحوال،
ليست سوى بعض الأكواخ الطينية. كل شيء في هذا المكان وادع
وفي منأى عن البشر وعن طرق الحضارة. أحب شاغر بازار وآمل أننا
سنختاره. أود لو أنني أعيش في بيت نبيه هنا. أما إن اخترنا التنقيب
في تل حمدون، فسوف نضطر إلى الإقامة في عامودا... آه، لا، أريد
ذلك التل.

يحل المساء. ماكس راض عن النتائج. وسوف نعود في الغد ونتابع
الاستطلاع. إنه يعتقد أن أحداً لم يشغل هذا التل منذ القرن الخامس
عشر قبل الميلاد باستثناء بعض القبور الرومانية والإسلامية المتطفلة.
هنالك فخاريات مطلية على نمط الفخاريات الأريجية الأولى في تل
حلف.

يرافقنا الشيخ إلى السيارة بلطف. ويؤكد من جديد: "كل ما لي هو
لك أيها الأخ، مهما سيصيني من العوز!".

فيجيبه ماكس بتهذيب: "كم ستكون سعادتي بالغة إن سمحت
لي الأقدار أن أجعلك ثرياً بالتنقيب هنا. سوف ندفع التعويضات
المستحقة عن الخسائر التي ستلحق بالمحصول بالمقدار الذي تم الاتفاق

عليه مع السلطات الفرنسية وسوف يتقاضى رجالك أجوراً مجزية
وسنستأجر منك أرضاً كي نبني بيتاً عليها، فضلاً عن ذلك، سوف
نقدم لك شخصياً هدية جميلة في نهاية الموسم“.

فيهدف الشيخ بسعادة بالغة: ”آه! لست في حاجة إلى شيء! ثم ما
هذا الكلام عن المال بين الإخوة؟“.

وعلى هذه الملاحظة الغريبة، تغادر المكان.

تمضي يومين باردين وشتويين في تل حمدون. النتائج هناك
معقولة، لكن حقيقة أن جزءاً من التل يقع في الأراضي التركية تقف
عائقاً في وجه اختياره. يبدو أن القرار يتجه إلى تل شاغر بازار بجلاء
مع تقديم تنازل إضافي لتل براك الذي يمكن إضافته إلى التنقيب في
شاغر بازار في موسم آخر.

لم يعد أمامنا الآن إلا إجراء الترتيبات استعداداً للربيع. هنالك موقع
مناسب في شاغر يمكن اختياره لبناء البيت، وهنالك مسألة استئجار
البيت في عامودا كي نقيم فيه أثناء بناء البيت والترتيبات التي ينبغي
الاتفاق عليها مع الشيخ وأخيراً، وهو الأهم، أنه توجد حوالة مالية
جديدة في انتظارنا في الحسكة وينبغي الحصول عليها دون إبطاء
تحتسباً لامتلاء الأودية بالماء وانقطاع الطريق.

كان حمودة، في الآونة الأخيرة، ينثر المال في عامودا ذات اليمين
وذات الشمال وفي باله ”سمعتنا“. يبدو أن إنفاق المال، بالنسبة
إلى العرب، هو مصدر للفخر - أي بكلمة أخرى عادة إكرام وفادة
الوجهاء في المقهى! فالظهور بمظهر البخل مدعاة لعار رهيب. لكن
حمودة، من جهة أخرى، يمسك يده، بقسوة، على النسوة المسنات

اللواتي يحضرن لنا الحليب ويغسلن ملابسنا مقابل مبالغ مالية زهيدة بصورة لا تصدق.

نستقل، ماكس وأنا، كوين مارى في طريقنا إلى الحسكة والأمم يحدونا أن تسير الأمور على ما يرام على الرغم من السماء الملبدة بالغيوم والمطر الذي يهطل رذاذاً. نصل إلى الحسكة دون صعوبات على الرغم من أن الأمطار تزداد غزارة ونتساءل إن كنا سننجح في العودة اليوم.

وكي تزداد الأمور سوءاً، نكتشف، لدى وصولنا إلى مكتب البريد أن مدير المكتب في الخارج ولم يكن أحد يعرف مكانه. فينتشر الصبية في كل أرجاء البلدة لاصطياده.

المطر يهطل بغزارة. والقلق باد على وجه ماكس الذي يقول إنه ما كان يجب أن نأتي إلا إذا كنا واثقين من أننا سنعود باكراً. نتنظر بقلق والمطر مستمر في الهطول.

وفجأة يظهر مدير مكتب البريد وهو يمشي من غير استعجال وفي يده سلة بيض.

يحيينا بحرارة ودهشة فيقطع ماكس المجاملات المألوفة طالباً منه الإسراع لأن السبل قد تتقطع بنا.

فيقول مدير المكتب مشدداً على حسن ضيافته: "ولم لا؟ ستكونون، عندها، ملزمين بالبقاء بضعة أيام وهو مصدر سرور كبير لي شخصياً. الحسكة مدينة غاية في الجمال. لم لا تبقون معنا وقتاً أطول؟"

يجدد ماكس، بنفاذ صبر، طلبه أن يلبينا على وجه السرعة. فيفتح

المدير أدرج مكتبه ببطء ويفتش فيها على غير هدي مؤكداً من جديد رغبته في أن تبقى لفترة طويلة.

ثم بيدي استغرابه من أنه لا يستطيع العثور على هذا المغلف الهام. إنه يتذكر أنه تلقاه بالفعل وأنه قال لنفسه: "سوف يأتي الخواجة ذات يوم لطلبه". ولذلك قام بوضعه في مكان آمن. لكن أين أخفاه بالضبط؟ يصل أحد الموظفين لنجدته ويستمر البحث. وأخيراً، تظهر الرسالة، فننتقل إلى مهمة الحصول على المال الذي يجب جمعه من البازار كما في المرة السابقة.

والمطر ما يزال يهطل! ننال أخيراً ما جئنا من أجله. ويشترى ماك، على سبيل الاحتياط، بعض الخبز والشوكولا في حال اضطررنا إلى قضاء ليلة أو اثنتين على الطريق ونعود إلى كوين ماري وننطلق بالسرعة القصوى. نجتاز الوادي الأول بنجاح كبير لكن منظرًا مشؤوماً كان في انتظارنا عند بلوغنا الوادي الثاني.

لقد علقست حافلة البريد في الوادي وخلفها رتل من السيارات المنتظرة.

الجميع في الوادي يحفرون ويثبتون الألواح ويشجعون.

يقول ماكس بقنوط: "سوف نمضي الليلة هنا".

ويالها من فكرة كئيبة. لقد سبق لي أن أمضيت العديد من الليالي في سيارات متوقفة في الصحراء، لكنني لم أستمتع بذلك قط. لأن المرء يستيقظ في الصباح وقد نال منه البرد والتشنج وعم الألم في أنحاء جسده.

لكننا محظوظون هذه المرة. إذ تخرج الحافلة من الوادي وهي تزجر

وتبعها السيارات الأخرى ثم نحن أخيراً، في اللحظة المناسبة، لأن منسوب الماء يرتفع بسرعة.

رحلتنا على الطريق المتجه إلى عامودا كابوسية بكل ما في الكلمة من معنى وهي سلسلة مستمرة من الانزلاقات. بل إن كوين ماري تدور حول نفسها مرة أو اثنتين على الرغم من السلاسل المركبة على العجلات. للانزلاق طعم خاص. إذ يشعر المرء أن الأرض الصلبة تحت أقدامه لم تعد صلبة. إنه كابوس رهيب في الواقع.

نصل إلى عامودا بعد حلول الظلام ويسارع المالك إلى الخارج وفي يده فانوس ويرحب بنا بحرارة.

أندرج من كوين ماري إلى الأسفل وأنزلق إلى باب غرفتنا. أعاني مشقة كبيرة في السير بسبب الطين الذي يتمتع بقدرة فريدة على الالتصاق بأسفل قدميك مشكلاً فطيرة مسطحة وثنينة تصعب إزالتها.

يبدو أن أحداً لم يكن ينتظر عودتنا الليلة فيهنئنا الجميع بصخب ويحمدون الله على سلامتتنا.

تدفعني الفطيرتان المتصقتان بأسفل حذائي إلى الضحك. فهما تشعرانني وكأنني في حلم.

وبدوره يضحك حمودة قائلاً لماكس: "من حسن حظنا أن خاتون برفقتنا. فكل شيء قادر على إضحاكها!"

كل الأمور جاهزة الآن. وهنالك اجتماع قانوني بين ماكس والشيخ والضابط الفرنسي من جهاز الخدمة الخاصة المسؤول عن هذه المقاطعة. يتم في الاجتماع الفصل في كل ما يتعلق بإيجار الأرض

والتعويضات والالتزامات المترتبة على الفريقين. أما الشيخ فتراه، تارة، يقول إن كل ماله هو لماكس، وطوراً يعتبر ألف جنيه ذهباً مبلغاً معقولاً بالنسبة إليه!

وأخيراً يغادر محبطاً بعد أن راودته أحلام كبيرة بالشراء. بيد أنه يجد ما يعزیه في واحد من بنود العقد ينص على أن تنقل البعثة ملكية البيت إليه حال انتهاء أعمالها. إذ تشرق عيناه وتتأرجح لحيته الكبيرة المصطبغة بالحناء في علامة على الموافقة.

يقول النقيب الفرنسي بعد مغادرة الشيخ:

« *C'est tout de même un brave home* »

. ويضيف وهو يهز كتفيه:

« *Il n'a pas le sou comme tous ces gens là!* »^(١٧)

تزداد المفاوضات الرامية إلى استئجار المنزل في عامودا تعقيداً بعد ظهور حقيقة كانت خافية حتى الآن وهي أن ما نفترضه منزلاً واحداً هو، في الواقع ستة منازل على ما يبدو! ثم تزداد التعقيدات من جديد لأن المنازل الستة تؤوي إحدى عشرة أسرة! يلعب الكاهن الأرمني دور الناطق بلسان مالكي المنازل المختلفين!

وأخيراً نصل إلى اتفاق يقضي بإخلاء «المنازل» في تاريخ محدد وطلاء جدرانها بطبقتين من الكلس الأبيض!

لقد ذلت كل الصعوبات، إذن، ولم يبق أمامنا إلا ترتيبات رحلة العودة إلى الساحل. سوف تحاول السيارات بلوغ مدينة حلب مروراً

١٧- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: إنه رجل مقدم في جميع الأحوال. وهو لا يملك فلساً واحداً كما جميع هؤلاء الناس هنا" (المترجم)

برأس العين وجرا بلس على طريق تقطعه، في أجزاءه الأولى، أودية عديدة. بيد أنه يمكن، بقليل من الحظ، إنجاز الرحلة بيومين. لكن شهر كانون الأول على الأبواب والأحوال الجوية ستسوء عما قريب. فماذا ستفعل خاتون؟

تقرر خاتون، بخسة، اللجوء إلى الواغون لي. هكذا تقلني سيارة الأجرة إلى محطة قطار صغيرة غريبة حيث تصل عربة نوم زرقاء كبيرة يجرها محرك ضخم ينفث دخاناً. يطل سائق يرتدي زياً بنياً بلون الشوكولا. ترفع أمتعة المدام إلى القطار كما ترفع المدام نفسها بصعوبة من الرصيف إلى الدرج المرتفع.

يقول ماكس: «أظن أنك حكيمة. فقد بدأ المطر في الهطول».

نصيح كلانا: «أراك في حلب!» ويشرع القطار في الإقلاع! وأتبع السائق على طول الممر إلى مقصورتني التي يفتح بابها. وكان السرير جاهزاً.

ها هي ذي الحضارة من جديد. لقد انتهى التخيم. يأخذ السائق جواز سفري ويحضر لي زجاجة مياه معدنية ويقول: «سنبلغ حلب في السادسة من صباح الغد، تصبحين على خير سيدتي.

أشعر أنني أسافر من باريس إلى الريفييرا!

إن وجود قطار واغون لي في قلب اللامكان أمر يدعو إلى الاستغراب.

حلب!

أسواق! حمام! أغسل شعري بالشامبو! أقابل بعض الأصدقاء!

يصل ماكس وماك بعد ثلاثة أيام وقد غطاهما الطين وبرفتهما

كميات من طير الجباري اصطادوها في طريقهم إلى حلب، فأحييهم بكرياء من اعتاد على رغد العيش.

كانت رحلتهم حافلة بالمغامرات. فقد رافقتهم أحوال جوية رديئة جعلتني أشعر بالرضا عن القرار الذي اتخذته.

يبدو أن الطاهي طلب، عند تصفية حسابه، أن يذكر في رسالة التوصية أنه سائق، فأمره ماكس، كي لا يحلف يمينا كاذبة، أن يقود كوين ماري دورة واحدة في الفناء.

فقفز عيسى إلى مقعد السائق وشغل السيارة وعشق التروس على وضعية العودة إلى الوراء واصطدم بجدار الفناء بعنف محطماً جزءاً منه. وقد أشعره رفض ماكس تسميته سائقاً بالجنون قبل أن تذكر رسالة التوصية، في نهاية المطاف، أن عيسى عمل لدينا طاهياً على مدى ثلاثة أشهر كما أنه ساعدنا في الأمور المتعلقة بالسيارة!

ها نحن أولئك، من جديد في بيروت. هناك انفصل عن ماك الذي سيقضي الشتاء في فلسطين في حين أننا سنقضيه في مصر.

الفصل الرابع

الموسم الأول في شاغر بازار

نعود إلى بيروت مع حلول الربيع. الشيء الأول الذي تقع عليه أبصارنا على رصيف المرفأ هو ماك، لكنه ماك الذي تغير.

ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة! إنه سعيد بروئتنا بلا أدنى شك! لم نكن، حتى تلك اللحظة، نعلم تماماً إن كان يستسيغنا بالفعل أم لا. فقد كان يخفي مشاعره خلف قناع من الجمود المهذب. لكننا نرى بوضوح الآن أن لقاءنا، بالنسبة إليه، هو لقاء بأصدقاء. لا يمكنني أن أخبركم كم هو دافئ! ومنذ تلك اللحظة يزول التوتر الذي ساد، على الدوام، بيني وبين ماك. بل إنني أجروء على سؤاله عما إذا كان قد أمضى كل ليلة مذكرائنا للمرة الأخيرة جالساً على بساطه ذي النقوش المربعة وهو يكتب في دفتر يومياته.

ينظر ماك بشيء من الدهشة ويقول: «بالطبع».

ننطلق من بيروت إلى حلب، وهناك نزور المتاجر، كالمعتاد، من أجل شراء احتياجاتنا. تم استئجار سائق من أجل كوين ماري - لكنه، هذه المرة، ليس سائقاً «اقتصادياً» ما، التقطناه من الواجهة البحرية، بل رجلاً أرمنياً طويل القامة تشي ملامحه بالقلق ومزوداً بعدد كبير من كتب التوصية التي تشهد على نزاهته وكفاءته. كان قد عمل ذات مرة مع مجموعة من المهندسين الألمان. لكن نقطة ضعفه التي تتجلى من

النظرة الأولى هي صوته المرتفع المشوب بنبرة عويل مزعجة. بيد أنه سيكون، بلا ريب، إضافة كبيرة على المخلوق شبه البشري عبد الله. تقودنا تحرياتنا عن أرستيد، الذي نرغب في استمراره معنا، إلى أنه أصبح الآن، بكل فخر، «موظفاً حكومياً». فهو يعمل سائقاً لصهريج غسيل شوارع في دير الزور!

يأتي اليوم المشؤوم وننتقل إلى عامودا على دفتين. حيث يصل حمودة وماك على متن كوين ماري (التي فقدت الآن لقبها الملكي وأصبحت تعرف باسم ماري الزرقاء منذ أن تلقت طبقة من طلاء أزرق شنيع بعض الشيء) إلى هناك أولاً كي يتحققوا من أن الأمور جاهزة لاستقبالنا. أما أنا وماكس، فنسافر بأبهة كبيرة على متن القطار إلى القامشلي حيث نمضي اليوم في إجراء المعاملات الضرورية مع السلطات العسكرية الفرنسية. ثم نغادر القامشلي إلى عامودا وقد بلغت الساعة الرابعة من بعد الظهر.

يتضح لدى وصولنا أن الأمور لم تجر كما هو مخطط لها. هنالك جو من الارتباك وتقاذف الاتهامات والاحتجاجات الصاخبة وتبدو الحيرة على حمودة ويكتسي وجه ماك بالرزانة. وسرعان ما تتضح الحقائق.

فقد وجد حمودة وماك لدى وصولهما في اليوم السابق أن المنزل، الذي كان يفترض أن يكون قد أخلي وتم تنظيفه وتبييضه بالكلس في تاريخ محدد يعود إلى أسبوع من الآن، بريء من الطلاء وقدر للغاية وما يزال يؤوي سبع عائلات أرمنية!

أنجز كل ما يمكن إنجازه في أربع وعشرين ساعة، لكن النتائج ليست مشجعة!

بيد أن حمودة، الذي أصبح الآن على دراية واسعة بالعقيدة الراسخة التي تقوم على اعتبار راحة خاتون أولوية أولى، يكرس كل طاقاته لإفراغ غرفة واحدة من الأرمن والماشية ويقوم بتبييض الجدران على عجل ويجهز الغرفة بسريرين عسكريين لي ولماكس. أما بقية المنزل فما تزال الفوضى تعمها، واكتشف أن حمودة وماك أمضيا ليلة مرهقة.

يطمئننا حمودة بابتسامته المعهودة التي لا تقاوم أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ولحسن حظنا لم تعد الاتهامات المتبادلة، التي أصبحت تجري الآن بين العائلات الأرمنية والكاهن الذي كان المتحدث بلسانهم، تعنينا في شيء ويحثهم ماكس على الذهاب كي يتشاجروا في مكان آخر! تغادر النسوة والأطفال والدجاجات والقطط والكلاب الفناء ببطء وهم ينوحون ويعولون ويصرخون ويصيحون ويشتمون ويصلون ويضحكون ويموؤون ويقرقرون وينبحون كختام رائع لمسرحية أوبرا!

ثم يتبين لنا أن الجميع قد خدع الجميع! وأن الفوضى المالية الشاملة والانفعالات الغاضبة بين الأشقاء والشقيقات وزوجات الأشقاء وأبناء العم والأجداد وأجداد الأجداد أكثر تعقيداً من أن نفهمها.

لكن طاهينا (وهو طاه جديد اسمه ديمتري) يستمر، بهدوء، في قلب الفوضى، في إعداد وجبة المساء. فتتعلق حول المائدة وتتناول طعامنا بتلذذ ونمضي إلى الفراش وقد نال منا الإرهاق.

إلى الفراش - لا إلى الراحة! لم أكن يوماً ممن يكون كرهاً شديداً للفئران - ولم يكن لفأرة أو اثنتين في غرفة النوم أن تزعجاني، بل

إنني ارتبطت، ذات مرة، بعلاقة حميمية مع متطفل عنيد كنت أناديه بحب (على الرغم من أنني لم أعرف جنسه) باسم إلسي.

لكن ليلتنا الأولى في عامودا هي تجربة لن أنساها ما حييت.

فما إن تطفأ المصابيح حتى تخرج الفئران أسراباً—أعتقد بحق أنها بالمئات—من ثقب الجدران والأرض. تجري، عمرح فوق أسرتنا وتطلق أصوات صرير أثناء جريها. فئران فوق وجهي، فئران تعبت بشعري، فئران—فئران—ثم فئران...

أشعل شمعة ويا للهول—الجدران مغطاة بمخلوقات غريبة، شاحبة، زاحفة تشبه الصراصير! وفأر جالس عند رجل سريري يداعب شاربيه. أشياء زاحفة رهيبة في كل مكان!

يهدئ ماكس روعي بوضع كلمات.

يقول نامي. يقول ما إن تنامي حتى تكف هذه الأشياء عن إزعاجك.

نصيحة ممتازة في الواقع—لكن تطبيقها ليس بالأمر السهل! علي أن أنام أولاً—وهو أمر يبدو مستحيلاً مع تلك الفئران التي تمارس التدريبات البدنية ورياضات الميدان على جسدي. أو أنه ليس بالأمر الممكن بالنسبة إلي، على الأقل. إذ يبدو ماكس قادراً على النوم دون منغصات!

أحاول تهدئة مخاوفي. وأنجح في النوم لبرهة قصيرة قبل أن تتسبب أقدام تجري على وجهي في إيقاظي. فأنير الضوء. لقد ازدادت أعداد الصراصير وهنالك عنكبوت أسود كبير يتدلى من السقف فوقي!

على هذا المنوال تمضي الليلة ويخجلني القول إنني أصبحت، بحلول الساعة الثانية صباحاً، في حالة هستيرية. أقول للجميع إنني

سأغادر إلى القامشلي مع حلول الصباح كي أنتظر القطار التالي المغادر إلى حلب! ومن حلب إلى لندن مباشرة! فأنا لا أستطيع أن أتحمل هذا النوع من الحياة، ولست مرغمة على تحملها! سأعود إلى الوطن! يتعامل ماكس مع الموقف ببراعة. إذ ينهض من السرير ويخرج كي يستدعي حمودة.

لم تمض سوى خمس دقائق حتى كانت أسرتنا قد أصبحت في الفناء. أتمدد في السرير وأتأمل لبعض الوقت في السماء الساكنة التي تنيرها النجوم. الجو لطيف وندي. أنا. ويتنفس ماكس الصعداء قبل أن ينام بدوره.

يسألني ماكس بقلق في صباح اليوم التالي: «لست عائدة إلى حلب. أليس كذلك؟»

يحمر وجهي خجلاً وأنا أتذكر نوبة الهستيريا التي أصابتنى. وأقول: «لا، لن أعود إلى العالم. لكنني سأستمر، في جميع الأحوال، في النوم في الفناء!»

يهدئ حمودة من روعي قائلاً إن كل شيء سيكون على ما يرام في القريب العاجل. فالثقوب في الغرفة سوف تغلق بالجص وستضاف طبقة أخرى من الكلس. وهنالك، فضلاً عن ذلك، هر في طريقه إلى المنزل، هر تم اقتراضه. وهو هر جبار - هر مهني إلى أقصى الدرجات. أسأل ماك عن ماهية الليلة التي أمضاها عند وصوله مع حمودة، وهل كانت هنالك أشياء ممشي عليه طوال الوقت؟

فيجيبني ماك بهدوئه المعتاد: «أظن ذلك. لكنني كنت نائماً».

كم هو رائع ماك!

يصل هرننا في وقت العشاء. لن أنسى ذلك الهر ما حييت! إنه، كما قال حمودة تماماً، هر على درجة عالية من الاحتراف. إنه يعلم تماماً طبيعة المهمة التي تم تكليفه بها وهو يقوم بها بأسلوب تخصصي بحق.

إذ يتربص خلف صندوق فيما نتناول العشاء ويرمقنا بنفاذ صبر كلما تكلمنا أو تحركنا أو أحدثنا ضوضاء وكأنه يقول:

«أرجوكم أن تهدؤوا. كيف لي أن أقوم بعملتي دون تعاونكم؟»

تعايير وجهه على درجة من الصرامة تجعلنا نتمثل في الحال، فيتحول كلامنا إلى همس و نتناول طعامنا بأقل قدر ممكن من صلصلة الأطباق والأكواب.

يخرج فأر من أحد الثقوب، في خمس مناسبات مختلفة، ويقطع الغرفة جرياً فيندفع الهر كالنابض في المرات الخمس وتكون النتيجة فورية. فلا مبارزة على طريقة السترن ولا تلاعب بالضحية، بل يكفسي الهر، ببساطة، بقضم رأس الفأر وطحنه ثم يزدرد ما بقي من جسد الفأر! أية طريقة مروعة وكاملة في إنجاز العمل!

يلازمنا الهر خمسة أيام لم نعد نرى بعدها أي فأر. ثم يغادرنا- ولا تعود الفئران إلى الظهور من جديد. الواقع أنني لم أعرف قبل تلك المرة، ولم أعرف، بعدها، هر أعلى هذا القدر من المهنية. لم يكن يبدي أي اهتمام بنا، ولم يطلب حليياً أو شيئاً من طعامنا. كان بارداً وعلمياً وموضوعياً. هر كامل بالفعل!

تمت الآن تسوية كافة المسائل. فقد تم تبييض الجدران وطلبت إطارات النوافذ كما الباب وتمركز في الفناء نجار وأبناؤه الأربعة كي يصنعوا المفروشات التي نطلبها.

يقول ماكس إن الطاولات تأتي أولاً... طاولات! لكن لا يمكن أن يكون لدى المرء عدد كبير من الطاولات.

أتقدم بطلب للحصول على خزانة أدراج كما يسمح لي ماكس بكل لطف باقتناء خزانة ملابس مزودة بمشاجب.

ثم يعود النجارون إلى صناعة المزيد من الطاولات. طاولات نستطيع أن نضع عليها خزائنا، وطاولة رسم من أجل ماك وطاولة لتناول الطعام وأخرى لآلتي الكاتبة...

يرسم ماك علاقة مناشف ينكب النجارون على صنعها ويحضرها كبيرهم إلى غرفتي باعتزاز لدى إنجازها. تبدو العلاقة مختلفة عن تلك التي رسمها ماك. ثم أكتشف السبب حالما يضعها النجار أرضاً. إنها مزودة بأرجل كبيرة، أرجل منحنية كبيرة بحق تمتد إلى الخارج ويتعثر بها كل من يمر بالقرب منها.

أطلب من ماكس أن يسأله لماذا صنع هذه الأرجل ولم يلتزم بالتصميم الذي زود به؟

يرمقنا الرجل المسن بوقار ويقول: «لقد صنعتها على هذا الشكل كي تكون جميلة. لقد أردت أن تكون هذه القطعة التي صنعتها شيئاً جميلاً!».

أي شيء يمكن للمرء قوله أمام صرخة الفنان هذه؟ فأهز رأسي وأكتفي بالتعثر بهذه الأرجل المخيفة حتى نهاية الموسم!

وفي الخارج، في ركن قصي من الفناء، بناوون يصنعون مغسلة من الآجر الطيني من أجلي.

أسأل ماك في ذلك المساء على العشاء عن العمل الهندسي الأول له.

فيجيب: «هذه هي وظيفتي العملية الأولى. مغسلتك!».

ثم يتنهد بحزن وأحس بالكثير من العطف تجاهه. إذ أخشى أن الأمر لن يبدو، في عيني ماك، حسناً، وهو يكتب في دفتر يومياته.

إذ لا ينبغي للتعبير الأول عن الأحلام الناشئة لمعماري شاب أن يتجسد في مغسلة من الآجر الطيني يصنعها من أجل زوجة رئيسه!

يزورنا اليوم النقيب لوبواتو مع راهبتين فرنسيتين لاحتساء الشاي. فنستقبلهم في القرية ونعود بهم إلى البيت حيث ينتصب باعتزاز أمام الباب الإنجاز الأخير للنجارين: مقعد لمغسلتي!

أصبح البيت منظماً الآن. فالغرفة التي نمنا فيها في الليلة الأولى والتي ما تزال الصراصير تمرح فيها ليلاً أصبحت مكتبة للرسم حيث يستطيع ماك أن يعمل بهدوء بعيداً عن التواصل مع الناس. وهو، في جميع الأحوال، يتمتع برباطة جأش كبيرة أمام الصراصير.

وبجوار غرفة الرسم تلك، تقع غرفة الطعام وبجوارها غرفة الأتسيكات التي سيتم فيها تخزين مكشفاتنا وترميم الفخاريات وتصنيف الأغراض وتسميتها. (وهذه الغرفة مليئة بالطاولات!). وهناك غرفة صغيرة تستخدم كمكتب وكغرفة للجلوس أضع فيها آتني الكاتبة كما تضم الكراسي القابلة للطي. أما ما كان بيتاً للكاهن، فيضم ثلاث غرف نوم، تخلو من الفئران (بفضل هرننا) ومن الصراصير (بفضل الكلس الكثيف)، لكنها لا تخلو من البراغيث للأسف!

والواقع أننا سوف نعاني الأمرين من البراغيث. إذ يتميز البرغوث بحيوية كبيرة يبدو معها وكأنه يتمتع بحماية عجائبية. فهو يزدهر على المبيدات الحشرية بمختلف أنواعها. بل إن من شأن مسح السرير

بحمض الكربوليك أن يحض البراغيث على إظهار قدر أكبر من اللياقة البدنية. أقول لماك إن الأمر لا يتعلق بلدغات البراغيث بقدر ما يتعلق بطاقتها التي لا تنفذ ومباريات الوثب التي لا تنتهي والتي من شأنها إخراج المرء عن طوره. فكيف يمكن للمرء أن يخلد للنوم والبراغيث حوله تمارس رياضاتها الليلية حول خصره؟

لكن معاناة ماكس من البراغيث أكبر من معاناتي. فقد عثرت ذات يوم على مائة وسبعة براغيث في منامته وقتلتها! وهو يقول إن البراغيث من شأنها استنفاذه. يبدو أن نصيبي من البراغيث يقتصر على الفائضة منها— أي تلك التي تعجز عن اتخاذ ماكس مسكناً لها. أما براغيثي، فهي براغيث من مرتبة دنيا، براغيث من الدرجة الثانية غير المؤهلة للقيام بوثبات عالية!

أما ماك، فيبدو أن البراغيث لم تغزه وهو أمر فيه الكثير من الجور. يبدو أنها لا تجد فيه مضمار رياضة مغرباً!

تستقر الحياة الآن على روتين ثابت. ينطلق ماكس إلى الأكمة مع فجر كل يوم وأرافقه في معظم الأيام على الرغم من أنني ألام البيت أحياناً للقيام بأمور أخرى كترميم الخزفيات وسواها من اللقى وتسميتها بالإضافة إلى الاهتمام بشؤوني الخاصة، بين الحين والآخر، من خلال العمل على الآلة الكاتبة. أما ماك، فيبقى في البيت يومين في الأسبوع للعمل في مكتب الرسم.

يطول النهار في الأيام التي أذهب فيها إلى الأكمة على الرغم من أنه لا يبدو بهذا الطول عندما يكون الجو جميلاً. وعلى الرغم من أن الطقس يكون بارداً قبل شروق الشمس إلا أنه يصبح جميلاً بعد ذلك. الأزهار تنمو في كل مكان— ولاسيما شقائق النعمان الصغيرة

ذات اللون الأحمر، كما كنت أدعوها خطأ، والصواب على ما أعتقد أنها أزهار الخوذان.

أحضر ماكس إلى التل مجموعة صغيرة من العمال من مدينة جرابلس، مسقط رأس حمودة. إذ ينضم نجلا حمودة إلينا بعد انتهائهما من العمل في أور. يتمتع ابنه الأكبر يحيى بقامة فارعة وتكشيرة عريضة مرحة وهو أشبه بكلب ودود. أما الابن الأصغر علاوي، فيتميز بمظهر حسن وربما يكون الأكثر ذكاء بين الاثنين. لكنه يتمتع بمزاج حاد ويتشاجر مع الآخرين أحياناً. وهناك كذلك ابن عم أكبر اسمه عبد السلام وهو رئيس العمال كذلك. هكذا يطلق حمودة صافرة البداية ويقفل عائداً إلى البيت.

وفي اللحظة التي يطلق غرباء آتون من جرابلس شرارة العمل، يتوافد العمال من مختلف أرجاء المنطقة كي يسجلوا أسماءهم. كان أبناء قرية الشيخ قد شرعوا في العمل بالفعل عندما يبدأ رجال من قرى مجاورة في الوصول فرادى وجماعات. هكذا يجتمع الأكراد ورجال قادمون من الأراضي التركية وبعض الأرمن وبضعة أيزيديين (يطلق عليهم كذلك اسم عبدة الشيطان) وهم رجال دمشق يتمتعون بمظهر سوداوي ومنذورون على الدوام كي يكونوا ضحايا لاضطهاد الغير.

نظام العمل بسيط للغاية. إذ ينتظم الرجال في مجموعات تضم رجالاً من ذوي الخبرة السابقة في التنقيب مهما يكن مقدارها ويتم اختيار رجال يبدو عليهم الذكاء والقدرة على التعلم السريع كي يكونوا حفارين. ويتقاضى الرجال والفتيان والأطفال الأجر نفسه. فضلاً عن ذلك، وقبل كل شيء، هناك ما يدعى البقشيش (العزير

على قلوب الشرقيين). وهو مبلغ إضافي صغير من المال يتقاضاه كل من يعثر على غرض.

وتعتبر فرصة الحفار في كل مجموعة في العثور على غرض هي الأكبر. يبدأ عمل الحفار في اللحظة التي يكتمل فيها رسم مربع على الأرض يحدد نطاق عمله. وبعد الحفار يأتي الدور على عامل المجرفة الذي يقوم بنقل التراب الناتج عن عملية الحفر إلى سلال ينقلها ثلاثة أو أربعة من «فتية السلال» بعيداً إلى مكان محدد من قبل كي يفرغوها فيه. وبعد إفراغ السلة، يقوم الفتى بالتنقيب في التراب بحثاً عن أي غرض قد يكون فات القزجي وعامل المجرفة ملاحظته. ولكونهم، في الغالب الأعم، صبية صغار يتمتعون بنظر ثاقب، فإن فرص عثورهم على تعويذة أو خرزة صغيرة يتقاضون عنها مكافأة مجزية ليست بالنادرة. حيث يربطون ما يعثرون عليه بزوايا أرديتهم الرثة كي يقدموها في نهاية اليوم. ويحدث بين الفينة والأخرى أن يحضروا إلى ماكس غرضاً يقرر مصيره المحتوم رد مختصر مفاده: «احتفظ به لنفسك» أو «شيله»- أي خذه بعيداً وهو أمر ينطبق على الأغراض الصغيرة كالتعويذات والشظايا الفخارية والخرز، الخ... وعند العثور على مجموعة من القدور الفخارية أو على عظام مدفونة أو آثار جدران من الطوب الطيني، يقوم رئيس العمال المكلف باستدعاء ماكس وتتخذ أعمال الحفر اللاحقة طابع الحرص. إذ يقوم ماكس أو ماك بكشط التراب المحيط بمجموعة القدور الفخارية أو الحناجر أو مهما يكن الغرض الذي تم العثور عليه بحذر ويزيل التراب من حوله وينفخ الغبار العالق عليه. ثم يتم تصوير اللقطة في مكانها قبل إزالتها ويدون وصف مختصر لها في مفكرة.

ويعتبر رسم حدود المباني لدى ظهورها مهمة دقيقة تتطلب وجود متخصصين. إذ يحمل رئيس العمال المجرفة بنفسه ويتبع آثار الطوب بعناية على الرغم من أنه يمكن لأي عامل ذكي، وإن يكن مستجداً، أن يتعلم فن تحديد الجدران بسرعة ويمكن للمرء سماعه بعد وقت قصير يصبح بثقة وهو يحفر: «هادا لبِن» (أي إنه طوب).

وعماننا الأرمن هم الأكثر ذكاء بكافة المعايير. لكن نقطة ضعفهم تكمن في سلوكهم الاستفزازي، فهم ينجحون باستمرار في إثارة حفيظة الأكراد والعرب. لكن الشجارات، بمطلق الأحوال، لا تتوقف. فأمزجة كافة العمال لدينا حامية وهم يصطحبون معهم أدوات التعبير عن أنفسهم من مدى كبيرة وهراوات ونوع من الدبابيس أو النبت! وسرعان ما تشق الرؤوس ويشتبك أشخاص غاضبون في صراعات عنيفة قبل أن يتم فك الاشتباك بينهم، في حين يصرخ ماكس بصوت مرتفع مطالباً بالالتزام بقوانين التنقيب. «سيتم تغريم كل من تشاجروا! حلوا مشاكلكم خارج ساعات العمل. أما أثناء العمل، فلا شجار. أنا في العمل والدكم، وما يقوله والدكم يجب أن ينفذ! لا أريد أن أسمع بأية أسباب للنزاع وإلا سيكون لدي تصرف آخر! كل ما يتطلبه الأمر هو إذا تشاجر اثنان أقوم بتغريمهما على قدم المساواة».

يصغي الرجال ويهزون رؤوسهم. «هذا صحيح. إنه والدنا! يجب أن لا يكون هناك أي شجار كي لا يكسر أي غرض قيم».

بيد أن الشجارات سرعان ما تندلع من جديد. أما من يصر على القتال فيوقف عن العمل.

لكن ذلك لا يعني، والحق يقال، طرداً نهائياً. إذ يتم إيقاف الرجل عن العمل يوماً أو اثنين، بل إنه يعود إلى الظهور من جديد، بعد يوم

تقاضى الأجور، حتى في الحالات التي يطرد فيها نهائياً، طالباً إعادة توظيفه لجولة جديدة.

حددنا بالخبرة الفاصل الزمني بين يومي قبض أجور، بعشرة أيام. فهناك رجال يأتون من قرى بعيدة مصطحبين طعامهم معهم. وهذا الطعام (المكون عادة من كيس من الدقيق وبضع حبات من البصل) ينفذ عادة بعد عشرة أيام فيستأذن العامل في العودة إلى بيته لأن طعامه يكون قد نفذ. لكن نقطة الضعف الكبيرة التي اكتشفناها في هذا الأسلوب في دفع الأجور تكمن في أن الرجال لا يعملون بانتظام. إذ ما إن يتقاضى العامل أجره حتى يغادر العمل قائلاً: «لدي المال الآن. فلماذا أستمّر في العمل؟ فلأعد إلى بيتي». لكن المال ينفذ بين ليلة وضحاها ويعود الرجل طالباً توظيفه من جديد. وهو أمر مزعج من وجهة نظرنا لأن المجموعة التي يألف أعضاؤها العمل معاً تتمتع من الكفاءة بما يفوق أية مجموعة حديثة التشكيل.

أما الفرنسيون، فيتعاملون مع هذه العادة بأسلوبهم الخاص وهو أسلوب تسبب لهم بالكثير من المشاكل أثناء مد السكة الحديدية. فقد كانوا يمسكون على عمالهم نصف أجورهم على شكل ديون متأخرة. وهو أمر ضمن لهم استمرارية العمل. والواقع أن الملائم أوصى ماكس باتباع هذا الأسلوب، لكننا نقرر، بعد المشاورات، أن لا نقوم بذلك لأن ماكس رأى في الأمر ظلماً شديداً. فقد كد الرجال من أجل أجورهم وهم يستحقون أن يحصلوا عليها كاملة. هكذا كان علينا أن نتدبر أمورنا مع مسألة ترك العمل والعودة إليه، مع ما يعنيه ذلك من عمل إضافي على جدول الأجور الذي ينبغي مراجعته وتعديله باستمرار.

نصل إلى الأكمة في السادسة والنصف صباحاً ويتم الإعلان عن استراحة الفطور في الثامنة والنصف. نتناول بيضاً مسلوقاً وأرغفة خبز عربي ويقدم لنا ميشيل (السائق) الشاي الساخن في أكواب مطلية بالميينا فنشربه ونحن جالسون على قمة التل، ودفء الشمس يبعث على السرور وظلال الصباح تضيء على المنظر جمالاً لا يصدق بزرق الهضاب التركية إلى الشمال وأزهار الربيع القرمزية والصفراء التي تحيط بنا من مختلف الاتجاهات. الجوع عذب للغاية. إنها واحدة من اللحظات التي يحلو للمرء أن يعيشها. رؤساء العمال يكثرون بسعادة ويقرب منا صبية صغار يقودون أبقاراً ويتأملوننا بحياء. يرتدون أسماً لثة بما لا يصدق وأسنانهم تومض بلون أبيض ناصع عندما يتسمون. أقول لنفسي كم يبدو سعاداً وأية حياة جميلة يعيشون وهم يطوفون حول التلال، كما في الحكايات القديمة، ويرعون مواشيهم ويجلسون في بعض الأحيان ويغنون.

في هذا الوقت من اليوم، يحتشد من يدعون بالأطفال المحظوظين في أوروبا في قاعات الدراسة المزدحمة وقد حرموا من الهواء النقي وجلسوا إلى مقاعدهم يصارعون الحروف الهجائية وينصتون إلى المعلم ويكتبون في دفاترهم بأصابع نال منها الألم. أتساءل ما إذا كنا سنقول، بعد مائة عام من الآن، بأصوات مكلومة: «كانوا، في تلك الأيام، يرغمون الأطفال المساكين على ارتياد المدرسة والجلوس لساعات إلى مقاعد في أبنية مغلقة! كم هو مؤلم التفكير في الأمر! يا لأولئك الأطفال المساكين!».

أقفل عائدة من تلك الرؤيا المستقبلية وأبتسم لفتاة صغيرة على جبهتها وشم وأعطيتها بيضة مسلوقة.

فتهز رأسها على الفور رفضاً وتهرع بعيداً عني وأحس بنفسي أنني ارتكبت انتهاكاً كبيراً للأعراف.

يطلق رؤساء العمال صافراتهم ويستأنف العمل من جديد. أما أنا، فأتجول في التل على غير هدي وأتوقف بين الفينة والأخرى عند مواضع متنوعة من الورشة. فالمرء يأمل على الدوام أن يكون حاضراً في اللحظة التي يتم العثور فيها على غرض مثير. لكن ذلك لا يحدث أبداً بالطبع! أتكئ لعشرين دقيقة على عكازي وأنا أراقب محمد حسن وزمرته والأمل يحدوني، ثم أنتقل إلى حيث يعمل عيسى داوود كي أعلم، في وقت لاحق من اليوم، أنه تم العثور على قدر فخاري جميل ذي حافة مثلثة في اللحظة التي تحركت فيها وكان ذلك اكتشاف اليوم.

لدي كذلك عمل آخر وهو أن أبقى عيني مفتوحتين على صبية السلال لأن البعض من أكثرهم كسلاً ينقلون سلالهم إلى المكب ولا يعودون في الحال، بل يجلسون في الشمس ويعثون بالتراب الموجود في سلالهم ويمضون، على هذا النحو، ربع ساعة من الراحة! وهناك كذلك من يتمددون في المكب وينالون إغفاءة لذيذة وهؤلاء هم الأكثر استحفاً للتوبيخ!

ومع حلول نهاية الأسبوع، أقدم تقريرتي بوصفي كبيرة الجواسيس.

«ذلك الصبي الصغير، ذاك الذي يضع غطاء رأس أصفر، عامل من الطراز الممتاز. فهو لا يتوقف ولو لدقيقة. علي أن أفضل صالح حسن لأنه ينام باستمرار في المكب، وعبء العزيب يتهرب قليلاً من العمل وكذلك ذاك الذي يرتدي سترة زرقاء رثة».

يوافقني ماكس على أن صالح حسن يستحق أن يفصل، لكنه يقول إن عبد العزيز يتمتع بنظر حاد يستحيل معه أن يفوته شيء.

يدب في صفوف العمال نشاط زائف في كل مرة يظهر ماكس في الأرجاء ويبدأ الجميع في الصياح بكلمة «يا الله!» ويصرخون وينشدون ويرقصون وتتسارع خطى صبية السلال إلى المكب ومنه وهم يلوحون بسلالهم الفارغة ويصرخون ويضحكون. لكن النشاط المحموم يخمد من جديد وتصبح وتيرة العمل أبطأ من ذي قبل.

يستمر رؤساء العمال في إطلاق صيحات التشجيع: «يا الله!» ويستخدمون صيغة من التهكم تفقد معناها بسرعة مع التكرار.

«هل أنتم نسوة مسنات كما توحى بذلك حركتكم؟ أنتم لستم رجالاً بالتأكيد. يا للبطء! أنتم تتحركون كأبقار موهنة!»، الخ، الخ... أمضي بعيداً عن مكان العمل إلى الناحية الأخرى من الأكمة وأجلس هناك، قبالة خط الهضاب الأزرق وسط الزهور وأذهب في إغماءة لذيذة. تقترب مني مجموعة من النسوة آيات من بعيد. يبني مرحهن وألوان ملابسهن بأنهن كريديات. إنهن مشغولات باقتلاع الجذور وقطف الأوراق.

يدنون مني على نحو مباشر ويجلسن حولي في حلقة.

تمتع النسوة الكريديات بالجمال وروح المرح. تتميز أثوابهن بالألوان الفاقعة ويضعن على رؤوسهن عمائم برتقالية وتزدان أثوابهن بالأخضر والأرجواني والأصفر. رؤوسهن منتصبه فوق أكتافهن باستمرار وهن يتمتعن بطول القامة وبوقفة تميل إلى الخلف بما يجعلهن يبدو شامخات. يتمتعن بوجوه برونزية ملامحها منتظمة ووجنات حمراء وعيون زرقاء عادة.

أما الرجال الأكراد، فيشبهون بصورة لافتة، بوجوههم الحمراء القرميدية وشواربهم البنية الكثة وعيونهم الزرقاء ومظهرهم العسكري الصارم، صورة اللورد كيتشنر التي كانت معلقة في حجرتي عندما كنت طفلة!

القرى الكردية والعربية في هذا الجزء من العالم متماثلة عدداً. وهم يعيشون الحياة نفسها وينتمون إلى الدين نفسه، لكن المرء لا يمكن، ولو لمرة، أن يخطئ في تمييز المرأة الكردية عن المرأة العربية. فالنسوة العربيات متواضعات على الدوام ومنكمشات على ذواتهن ويشحن بوجوههن بعيداً عندما تتحدث إليهن. وإن نظرن إليك، فعن بعد، وإن ابتسمن، فبخفر ثم يلتفتن بعيداً. ملايسهن المتواضعة سوداء أو ذات ألوان قائمة. ولا يمكن لامرأة عربية أن تتقدم من رجل وتخاطبه! أما المرأة الكردية، فلا ريب أنها كالرجل تماماً، إن لم تكن أفضل! فهن يغادرن بيوتهن ويمارحن أي رجل ويتمتعن بوجد كبير. ولا تتردد المرأة الكردية في مخاشنة زوجها الأمر الذي يصدم بعض عمالنا القادمين من جرابلس الذين لا يعرفون الأكراد جيداً.

يقول أحدهم باستغراب: « لم يخطر لي، أبداً، أنني سأسمع امرأة محترمة تخاطب زوجها بهذه الطريقة! لم أعرف حقاً أين أذهب بوجهي».

نسوتي الكرديات يدرسنني هذا الصباح باهتمام كبير ويتبادلن التعليقات السوقية. إنهن ودودات للغاية ويومئن لي ويضحكن ويطرحن الأسئلة ويتنهدن ويهززن رؤوسهن وهن ينقرن شفاههن.

لا بد أنهن يقلن: « كم هو مؤسف أننا نعجز عن التفاهم! ». بمسكن ثنية من تنورتني ويفحصنها باهتمام ثم يقرصن كم سترتي

ويشرون إلى التل. هل أنا امرأة الخواجة؟ أومئ بالإيجاب. فيطرحن المزيد من الأسئلة ثم يضحكن وقد أدركن عجزهن عن فهم إجاباتي. لا ريب في كونهن يردن أن يعلمن كل شيء عن أطفالي وعن المرات التي أجهضت فيها!

يحاولن أن يشرحن لي ما الذي يفعله بهذه الأعشاب والنباتات التي يجمعنها. آه، لكنهن عبثاً يشرحن!

تنطلق دفعة أخرى من الضحك وينهضن مبتسمات ويومئن لي ثم يرحلن وهن يتكلمن ويضحكن. إنهن كباقة من الأزهار الملونة الجميلة...

يعشن في أكواخ من الطين فيها بضعة قدور طهي قد تكون كل ما يملكن، بيد أن مرحهن وضحكاتهن تتميز بالعفوية. ويجدن الحياة جميلة بنكهتها الرابلية. هن جميلات ومفعمات بالحوية والفرح.

تمر فتاتي العربية الصغيرة وهي تسوق بقرة. تبتسم لي بخفر ثم تسيح بنظرها بسرعة.

أسمع رئيس العمال يصفر من بعيد. إنها الثانية عشرة والنصف وقد حانت ساعة الغداء.

أقفل عائدة إلى حيث يكون ماكس وماك في انتظاري. يخرج ميشيل الغداء الذي أعده ديمتري والمكون من شرائح من لحم الضأن البارد والمزيد من البيض المسلوق وأرغفة من الخبز العربي والجبين. يتناول ماكس وماك الجبن المحلي المصنوع من حليب الماعز وهو نوع من الجبن يتمتع بنكهة قوية ولونه رمادي فاتح وملمسه خشن بعض الشيء. أما أنا، فأفضل تشكيلة أنيقة من جبن الغرويير مغلفة بورق مفضض ومحفوظة في صندوق دائري من الورق المقوى يرمقها ماكس

بنظرة ازدرء. وبعد الغداء نتناول البرتقال والشاي الحار في الأكواب المطلية بالمينا.

نذهب، بعد الغداء، من أجل إلقاء نظرة على الموقع المقترح لبناء البيت.

يقع المكان خلف القرية وبيت الشيخ ويبعد عنهما حوالي مائة ياردة إلى الجهة الجنوبية الشرقية من الأكمة. مخطط البيت مرسوم على الأرض بالمقياس الكامل، فأسال ماك بارتياح عما إذا لم تكن الغرف صغيرة للغاية. فينظر إلى باسماً ويفسر الأمر بأنه الانطباع الذي تتسبب به المساحات المفتوحة المحيطة بالمكان. سيضم البيت، بعد بنائه، قبة مركزية وغرفة معيشة كبيرة وغرفة للعمل تقعان في الوسط بالإضافة إلى غرفتين أخريين من كل جانب. في حين سيكون المكان المخصص للمطبخ مفصلاً. كما يمكن، في المستقبل، إضافة غرف أخرى إلى البناء الأساسي إن طالت عملية التنقيب وظهرت الحاجة إليها.

نبتعد قليلاً عن موقع البيت كي نتحرى الأماكن التي يمكن أن نحفر بترأفيها بحيث لا نعتمد على بئر الشيخ. فيختار ماكس بقعة محددة ويقفل عائداً إلى العمل.

أما أنا فأبقى وأراقب ماك وهو يصدر الأوامر بالإشارات وإيماءات الرأس والصفير وبكل ما يمكن للمرء تخيله باستثناء الكلمات المحكية! وفي الساعة الرابعة تقريباً، يبدأ ماكس جولته على المجموعات من أجل توزيع البقشيش. يقف الرجال في رتل، عند وصوله إلى أية مجموعة، ويعرضون حصيلة اليوم من اللقى. يقوم أحد أمهر فتيه السلال بتنظيف مقتنياته بالبصاق عليها! يفتح ماكس دفتره الكبير ويبدأ العمل.

«قزججي؟» (عامل حفرة؟)

«حسن محمد».

فماذا في حوزة حسن محمد؟ نصف قدر فخاري مكسور والعديد من الكسر الفخارية ومدية مصنوعة من العظام وقطعة أو اثنتان من الخردة النحاسية.

يقلب ماكس المجموعة ويرمي باستهتار ما يعتبره نفايات، وهي عادة الأشياء التي يعول الحفارون عليها كثيراً، ويضع الأداة المصنوعة من العظام في واحد من الصناديق الصغيرة التي يحملها ميشيل وقطعة من الخرز في صندوق آخر. وتذهب الكسر الفخارية إلى سلة كبيرة يحملها صبي صغير.

ثم يعلن ماكس قيمة البقشيش: بنسان ونصف أو ربما أربعة بنسات ويدون الرقم في الدفتر. يردد حسن محمد الرقم ويخزنه في ذاكرته الفسيحة.

تكتنف نهاية الأسبوع عمليات حسابية رهيبية. إذ تضاف مقادير المكافآت اليومية التي نالها كل عامل إلى أجره اليومي كي يتم حساب المبلغ المستحق. والرجل، بدوره، يعرف المبلغ الذي يجب أن يتقاضاه بدقة! فيقول أحياناً: «هذا لا يكفي - هنالك بنسان آخران» أو يقول، وهذا يحدث كثيراً: «لقد أعطيتني أكثر مما ينبغي - فاستحقاقي أقل من ذلك بأربعة بنسات». ونادراً ما يكونون على خطأ. كما تقع بعض الأخطاء العرضية الناتجة عن تشابه الأسماء. إذ غالباً ما تجد ثلاثة رجال أو أربعة يحملون اسم داوود محمد. وفي هذه الحالة يتطلب التمييز بينهم اسماً إضافياً كأن تقول داوود محمد ابراهيم أو داوود محمد سليمان.

ينتقل ماكس إلى الرجل التالي.

«اسمك؟»

«أحمد محمد».

ليس في جعبة أحمد محمد الكثير - بل إنه ليس في حوزته أي شيء من الأشياء التي نسعى إليها، لكننا يجب أن نقدم له حافظاً مهما يكن صغيراً. هكذا يختار ماكس بعض الشظايا الفخارية ويرميها في السلة ويسجل في حسابه نصف بنس.

ثم يأتي الدور على فتية السلال. يحمل ابراهيم داوود غرضاً مظهره مثير للاهتمام قبل أن نكتشف أنه ليس، للأسف، سوى أنبوب يحمل نقوشاً عربية. ثم يصل عبد القهار الصغير ويقدم بشيء من التردد بعض حبات الخرز الصغيرة وغرضاً آخر يختطفه ماكس من يده باستحسان. إنه ختم أسطوانتي سليم تماماً ويعود إلى حقبة قديمة. إنه اكتشاف طيب بحق. يسجل في حساب الصغير عبد القهار خمسة فرنكات. وتطلق ممتات الدهشة.

لا شك في أن عدم اليقين الذي يكتنف هذا العمل هو مصدر جاذبيته الأول، بالنسبة إلى العمال، الذين هم مقامرون بطبيعتهم. بل إن مقدار حسن الطالع الذي يرافق مجموعات بعينها يعث على الدهول. إذ يقول ماكس أحياناً عند افتتاح جبهة عمل جديدة: «سوف أنقل ابراهيم وزمرته كي يعملوا عند ذلك الجدار الخارجي. لقد عثروا على الكثير مؤخراً. في حين لم يحالف الحظ ريني جورج المسكين في الآونة الأخيرة. سوف أضعه في مكان جيد».

بيد أنه يتم العثور، بصورة عسية على التصديق، في الرقعة التي يعمل فيها ابراهيم الواقعة في المنطقة الأكثر فقراً في المدينة، على كومة

من الأقران الذهبية في قدر فخاري مدفون- قد تكون بائنة إحدى بنات تلك الأيام البائدة- ويكون البقشيش من نصيب ابراهيم في حين لا يعثر ريني جورج، الذي يعمل في مقبرة واعدة يفترض أن تكون حافلة باللقى، سوى على بعض الأشياء المتفرقة التي لا قيمة لها. يعود الرجال الذين فازوا بالبقشيش إلى العمل فرادى وينتقل ماكس إلى الزمرة التالية.

الوقت الآن قبل المغيب بنصف ساعة. تنطلق الصافرات ويصرخ الجميع ويرمون السلال الفارغة في الهواء ويلتقطونها وينزلون الأكمة عدواً وهم يصيحون ويضحكون.

ينتهي يوم عمل آخر. يذهب العمال القادمون من قرى لا تبعد أكثر من ميلين أو ثلاثة إلى بيوتهم سيراً على الأقدام. ويتم إحضار حصيلة اليوم من المكتشفات في سلالها وصناديقها من أعلى التل حيث يتم توضعها بعناية وتنقل إلى كوين ماري. يتسلق بضعة رجال تقع قراهم على طريقنا إلى سطح عربة النقل ونقل عائدين إلى البيت. ها هو ذا يوم آخر قد انتهى.

تبين لنا، بمصادفة عجيبة، أن البئر الذي بدأنا بحفره يقع تماماً في المكان الذي يضم بئراً تم حفره في عصور قديمة. ويكون لهذه المصادفة مفعول السحر. إذ لا تكاد تمضي بضعة أيام، حتى يصل خمسة سادة ملتحين مظهرهم مهيب وينتظرون نزول ماكس من الأكمة.

لقد جاؤوا، كما يقولون، من قرى تبعد أميالاً عديدة وهم في حاجة إلى المزيد من الماء. والخواجة يعرف الأماكن التي تضم آباراً مخفية، تلك التي حفرها الرومان. فلو أنه يدلهم على تلك المواقع سيكونون مدينين له إلى الأبد.

يخبرهم ماكس أن اختياره الموقع الذي ضم بئراً قديماً كان بمحض حسن الطالع.

يبتسم السادة المهيبون بتهذيب لكن من غير تصديق.

«أنت تتمتع بحكمة عظيمة يا خواجه، وهذا أمر معروف. وأسرار العصور السالفة بالنسبة إليك كتاب مفتوح. مواقع المدن، مواقع الآبار وكل تلك الأشياء تعرفها تماماً. لذلك، أشر علينا بالأماكن التي يجب أن نحفر فيها وسنقدم الهدايا».

لا تفيد احتجاجات ماكس في شيء، بل إنهم ينظرون إليه كما لو أنه ساحر يحتفظ بأسراره لنفسه ويتمنون إنه يعرف لكنه لن يقول. يقول ماكس بشيء من الكآبة: «أتمنى لو أننا لم نحفر ذلك البئر الروماني اللعين. إنه سيتسبب لي بمتاعب لا نهاية لها».

تظهر التعقيدات عندما يحين موعد تسديد الأجور. فالعملة الرسمية في البلاد هي الفرنك الفرنسي. لكن الليرة المجيدية التركية كانت قيد التداول لفترات طويلة ولذلك لا يقبل السكان المحافظون غيرها بديلاً. والواقع أن البازارات تتعامل بالليرة المجيدية على الرغم من أن المصارف لا تقبلها. لكن رجالنا يرفضون بعناد أن يتقاضوا أجورهم بأية عملة باستثناء المجيدية.

ولذلك، نرسل ميشيل إلى البازارات بالمال الذي سحبه من المصرف بالعملة الرسمية، كي يستبدل بها العملة غير الشرعية التي هي العملة النافذة محلياً.

والمجيدية هي نقد معدني كبير وثقيل الوزن. يسير ميشيل مترنحاً وهو يحمل صينيات وأكياساً مليئة بالليرات المجيدية! ويسفحها

على الطاولة. هذه القطع المعدنية قادرة للغاية وتفوح منها رائحة الثوم.

نمضي الأمسيات الكابوسية التي تسبق يوم تسديد الأجور في إحصاء المجيديات ورائحتها تكاد تخنقنا!

ميشيل رجل لا يقدر بضمن في العديد من المجالات. فهو نزيه وحريص ومهوس بالدقة. وعلى الرغم من أنه لا يجيد القراءة والكتابة، إلا أنه يستطيع إجراء أكثر الحسابات تعقيداً بطريقة ذهنية. وهو يعود من السوق عادة محملاً بلائحة طويلة من المشتريات تصل أحياناً إلى ثلاثين بنداً يقوم بسردها بثمنها بدقة ويعيد المبلغ المتبقي دون زيادة أو نقصان. بل إنه لم يرتكب خطأ محاسبياً يوماً.

لكنه، من ناحية أخرى، مستبد إلى أقصى الحدود ويتشاجر باستمرار مع المحمدين وهو عنيد، كذلك، ويده ثقيلة على الآلات لسوء الحظ.

فتراه يقول «فرقع!» وقد لمعت عيناه، ثم نسمع، على الفور، صوت قرقعة مشوومة.

لكن نزعته إلى التوفير هي الجانب الأكثر كارثية فيه. إذ يصيبه الغم حين يكتشف أن الموز المتعفن والبرتقال الجاف لا يلقي منا القبول. «ألا يوجد في السوق ما هو أفضل؟». «بلى، لكن ثمنها أعلى. أما هذه، فهي أكثر إيكونوميا».

كم هي عظيمة كلمة إيكونوميا هذه! ولاسيما أنها تكلفنا الكثير من القمامة.

أما الشعار الثالث لدى ميشيل فهو «ساوي بروفا» (اعمل تجربة).

يقول هذه الكلمة بمختلف نبرات الصوت - نبرة الأمل ونبرة التملق ونبرة التوق ونبرة الثقة وفي بعض الأحيان نبرة القنوط. وعادة ما تكون النتيجة مؤسفة.

أما غاسلة الملابس لدينا، فيرغمني بطؤها العصي على التفسير في تنظيف أثوابي القطنية على اللجوء إلى تنورة زوجة باني الإمبراطورية ومعطفها المصنوعين من قماش الشانتون واللذين لم أمتع بما يكفي من الشجاعة لارتدائهما من قبل.

يقول ماكس، بعد أن ينظر إلي: «ما هذا الذي ترتدينه بحق السماء؟»

فأقول، متخذة وضعية الدفاع، إنه جميل ولطيف.

يقول ماكس: «لا يمكن لك أن ترتدي هذه الملابس. اذهبي وانزعيها عنك».

«لكنني اشتريتها ويجب أن ألبسها».

«إنها مخيفة للغاية. أنت تبدين كزوجة صاحب عدوانية آتية من بونا مباشرة!».

أقر بحزن أن الشكوك قد راودتني من قبل.

فيقول ماكس مشجعاً: «البسي تلك السترة الضاربة إلى الخضرة التي تحمل نقشاً معيناً على شاكلة تل حلف».

أقاطعها قائلة: «أتمنى عليك أن لا تستخدم لغة الخزفيات في وصف ثيابي. إنه أخضر ليموني! ثم إن كلمة معين جار مقززة - إنها أشبه بشيء مضغه طفل ثم تركه على منضدة متجر قرية. كيف لك أن

تفكر باستخدام هذه الصفات المقرفة المتعلقة بنقوش الأواني الخزفية التي لا يمكن أن تخطر لي على بال!». «

يجيبني ماكس: «يال له من خيال هذا الذي لديك. ثم إن المعين الجاري من نقوش تل حلف ذات الجمال الرائع».

ويرسمه من أجلي على قطعة ورق، فأقول إنني أعلمه تمام العلم وأعلم كم هو جميل. لكن الوصف بحد ذاته هو ما يدعو إلى التقزز. فيرمقني ماكس بحزن ويهز رأسه.

نسمع، أثناء مرورنا في قرية تل خنزير، الحوار التالي:

«من هؤلاء؟»

«إنهم أجانب ينقبون».

يفحصنا رجل عجوز باهتمام.

ويتنهد قائلاً: «كم هم جميلون. إنهم ممتلئون بالمال!».

تسارع امرأة عجوز نحو ماكس.

«الرحمة يا خواجه! تشفع لابني. لقد أخذوه إلى دمشق - إلى السجن. إنه رجل طيب ولم يفعل شيئاً - على الإطلاق، أقسم لك!».

«لماذا، إذن، أخذوه إلى السجن؟».

«لا لشيء. هذا ظلم. أنقذه من أجلي».

«لكن ماذا اقترف يا أماه؟».

«لا شيء. أقسم بالله إن ما أقوله حق! إنه لم يفعل شيئاً باستثناء قتل رجل!».

يظهر الآن مصدر جديد للجزع. إذ يقع عدة رجال من جرابلس
صرعى المرض. إنهم في خيمة في شاغر بازار. ثلاثة رجال راقدون
ويزداد الموقف صعوبة لأن أحداً من الرجال الآخرين لن يقرب
منهم. وهم لن يقوموا بحمل الطعام أو الماء إليهم.

هذا التجنب للمرضى غريب للغاية- لكن كل شيء، في نهاية
المطاف، يبدو غريباً في مجتمع لا تعتبر حياة البشر فيه ذات أهمية.

يقول ماكس: «لكنهم سيتضورون جوعاً ما لم يؤخذ إليهم
الطعام».

فيhez رفاقهم العمال أكتافهم بلا مبالاة: «هذا بيد الله».

يؤكد رؤساء العمال، وإن على مضض، انتماءهم إلى الحضارة
ويخدمون زملاءهم بشيء من التحفظ. ثم يتطرق ماكس بكياسة إلى
مسألة المستشفى. فهو يستطيع إجراء الترتيبات اللازمة مع السلطات
الفرنسية لإدخال الرجلين المريضين بشدة إلى المستشفى.

لكن يحيى وعلاوي يهزان رأسيهما بارتياح. فدخول المستشفى
سيلحق بهما العار بسبب الأشياء المخجلة التي تحدث هناك. والموت
مفضل على العار في كل الحالات.

فأفكر، وقد غلبني الغضب، في أخطاء التشخيص وفي الإهمال-
ثم أسأل عن الأشياء المخجلة التي حصلت هناك.

يتعمق ماك في الموضوع أكثر. ثم يلتفت نحوي، بعد سلسلة
طويلة من الأسئلة والأجوبة لم أستطع متابعتها ويفسر الأمر.

لقد دخل رجل ذات مرة إلى المستشفى وأعطوه حقنة شرجية
هناك.

أقول نعم وأنتظر بقية القصة.

يقول ماكس هذا كل شيء.

«لكن هل مات الرجل؟»

«لا، لكنه كان يفضل لو أنه مات».

فأصرخ بنبرة عدم تصديق: «لماذا؟»

يقول ماكس إن هذا ما حدث. وقد عاد إلى قريته وقد امتلأ قلبه بحزن عميق ومرير. فقد كان العار الذي لحق به كبيراً! كان ليفضل الموت.

يصعب على أمثالنا من ألفوا الأفكار الغربية عن أهمية الحياة أن يكتفوا أفكارهم مع نظام مختلف للقيم. ومع ذلك، فالعقل الشرقي بسيط للغاية. فالموت قادم لا محالة - إنه مصير محتوم كالولادة. أما أن يأتي الموت باكراً أو متأخراً فهي مشيئة الله. وهذا التفكير، هذا التسليم، يبعد عنهم ما أصبح لعنة العالم الذي نعيش فيه اليوم - الحصر. قد لا يكون الإنسان هنا متحرراً من العوز، لكنه متحرر بالتأكيد من الخوف - والكسل مبارك وهو حالة طبيعية - في حين أن العمل ضرورة غير طبيعية.

أتذكر متسولاً قابلناه في بلاد فارس. كان يتمتع بلحية بيضاء ومظهر نبيل ووقور. كان يتكلم بعزة نفس ويده ممدودة إلى أقصاها. «جوذي علي بالقليل يا أميرة. أشعر بقلق كبير من أن الموت قد يفوتني».

تتفاقم مشكلة الرجلين المريضين. فينطلق ماكس إلى القامشلي

ويعرض متاعبه على المقدم الفرنسي . يبدي الضباط هناك الكثير من اللطف والتعاون . فيتم تقديم ماكس للطبيب العسكري الفرنسي ويعودان معاً إلى الأكمة لفحص المريضين .

يؤكد الطبيب مخاوفنا حول جدية مرض الرجلين . ويقول إن أحدهما لا بد أنه كان في حالة صحية حرجة للغاية عند قدومه إلينا والأمل بشفاؤه ليس كبيراً . وينصحنا بضرورة نقل الرجلين إلى المستشفى . يتم إقناع الرجلين بالموافقة وينقلان إلى المستشفى على الفور .

كما يتكرم الطبيب علينا بإعطائنا بعض الأدوية المليئة القوية مؤكداً لنا أن من شأنها أن تحرك حصاناً!

هذا الدواء ضروري بالتأكيد لأن الرجال يأتون إلى ماكس باستمرار ويشكون له باستمرار من الإمساك ويبدو أن الأدوية المليئة العادية لا تجدي نفعاً على الإطلاق .

توفي أحد رجلينا المريضين في المستشفى في حين يتمثل الرجل الآخر للشفاء . أما نحن ، فتصلنا الأخبار بعد يومين ونعلم حينذاك أن الرجل قد دفن هناك بالفعل .

يعود علاوي إلينا والحزن باد على محياه .

الأمر يتعلق ، كما يقول ، بسمعتنا ...

ينقبض قلبي بعض الشيء . فكلمة السمعة يليها على الدوام إنفاق المال .

ويتابع قائلاً إن الرجل توفي بعيداً عن بيته ودفن هناك . وأن ردود الفعل ضدنا ستكون قوية في جرابلس .

لكننا لا نستطيع مساعدة رجل محتضر، يقول ماكس. لقد كان مريضاً للغاية بالفعل عند قدومه وقد قمنا بكل ما في وسعنا من أجله.

ينحي علاوي مسألة الموت. فالموت لا شيء. ليس موت الرجل ما يهم، بل دفنه.

فماذا سيكون موقف أقرباء هذا الرجل؟ وماذا عن موقف أسرته؟ لقد دفن في مكان غريب. ثم سيكون عليهم مغادرة قريتهم والحضور إلى حيث هو مدفون. من العار أن لا يعود رجل إلى بيته ويدفن في قريته.

يقول ماكس إنه لا يستطيع أن يرى ما الذي يمكن القيام به الآن. لقد دفن الرجل. فماذا يقترح علاوي؟ هدية مالية للأسرة المحزونة؟ سيكون ذلك مقبولاً، نعم. لكن ما يقترحه علاوي هو استخراج الجثمان.

«ماذا؟ أن نستخرجه من الأرض؟»

«أجل يا خواجه. أعد الجثمان إلى جرابلس بحيث يتم دفن الرجل باحترام ولا يلحق الضرر بسمعتك.»

يقول ماكس إنه لا يعلم إن كان أمر استخراج الجثمان ممكناً. إذ لا يبدو الأمر بالنسبة إليه عملياً.

وأخيراً، نذهب إلى القامشلي كي نجري بعض المشاورات مع السلطات الفرنسية. من الواضح أنهم يعتبروننا معتوهين!

لكن كلامهم يزيد ماكس تصميماً بصورة غير متوقعة. إذ يوافق معهم على أن الأمر جنوني دون شك، لكن هل هو ممكن؟

يهز الطبيب كتفيه. لكن بالطبع، إنه ممكن! سيكون عليكم تعبئة استثمارات- الكثير من الاستثمارات في الواقع -

«*et des timbres, beaucoup des timbres!*»

توضع العملية على سكة التنفيذ. إذ يوافق سائق سيارة أجرة أن يغادر، في وقت قصير، عائداً إلى جرابلس، بحماسة على مهمة نقل الجثمان (المحفوظ بطريقة جيدة). وسوف يتولى المهمة أحد العمال، وهو ابن عم للرجل المتوفى. هكذا أنجزت كافة الترتيبات.

يتم استخراج الجثمان أولاً يليه توقيع العديد من الاستثمارات ولصق الطوابع ثم انتظار الطبيب العسكري الذي يصل مسلحاً بكمية كبيرة من رذاذ الفورمالين. يوضع الجثمان في النعش ويضاف المزيد من الفورمالين- ويقفل النعش- ويرفعه سائق سيارة الأجرة إلى المكان المخصص له بمرح.

”هولاً!“، يصيح السائق قبل أن يضيف: ”ستكون رحلة ممتعة! علينا أن نحرض على عدم سقوط أخيها على الطريق!“.

تتحول العملية برمتها إلى نوع من الهزل المجنون الذي لا يوجد ما يوازيه سوى تقاليد الدفن الأيرلندية. تنطلق سيارة الأجرة وعلى متنها السائق وابن العم اللذان يأخذان في الغناء بأعلى صوتيهما. ينتاب المرء إحساس أن الأمر بالنسبة إليهما مناسبة سعيدة! فهما، في الواقع، يستمتعان تماماً.

يتنفس ماكس الصعداء بعد انتهائه من لصق الطابع الأخير وتسديد آخر دفعة من الرسوم. ويعهد بالاستثمارات الضرورية (وهي حزمة كبيرة بحق من الأوراق) إلى سائق سيارة الأجرة ويقول: ”آه، حسناً، لقد انتهينا!“.

لكنه على خطأ. إذ تحولت رحلة الرجل المتوفى، عبد الله حميد، إلى ملحمة شعرية وكانت هنالك لحظات بدا معها أن جثمانه لن يعرف الراحة.

يصل الجثمان إلى جرابلس في الوقت المناسب ويستقبله ذووه بما يستحق من الدموع والفخر، كما تنهى إلى أسماعنا، بالرحلة الباهرة التي اجتازها. ويقام احتفال كبير، بل، في الحقيقة، وليمة. ثم يسمي سائق سيارة الأجرة بالله وينطلق متجهاً إلى حلب كي يتبين، بعد ذهابه، أنه اصطحب كافة "الاستمارات" الهامة معه.

ويعم الهرج والمرج! فمن دون الاستمارات الضرورية، يصبح دفن الجثمان متعذراً. هل ينبغي، إذن، إعادته إلى القامشلي؟ تتور مساجلات حامية حول هاتين النقطتين. ويتم إرسال برفقيات إلى السلطات الفرنسية في القامشلي وإينا وإلى العنوان الإشكالي لسائق سيارة الأجرة في حلب. يجري كل شيء على الطريقة العربية الكسولة، في حين يبقى جثمان عبد الله حميد دون دفن.

أسأل ماكس بقلق إلى متى يستمر مفعول الفورمالين؟ تستخرج نسخة جديدة من الاستمارات (مع كل ما يلزم من *les timbres*) ويتم إرسالها إلى جرابلس. في ذلك الوقت، تتوارد أنباء مفادها أن الجثمان على وشك أن يشحن إلى القامشلي بالقطار فتنطير البرقيات العاجلة جيئة وذهاباً.

وفجأة ينتهي كل شيء على أحسن وجه. إذ يظهر سائق سيارة الأجرة في جرابلس من جديد ملوحاً بالاستمارات ويهتف باستغراب: "يالها من هفوة!". تجري مراسم الدفن بنظام ووفق الأصول ويؤكد لنا علاوي أن سمعتنا في أمان! على الرغم من أن

السلطات الفرنسية ما تزال تعتبرنا مجانين. ويوافقه عمالنا بوقار في حين تشور نائرة ميشيل بسبب ما رآه من غياب كلي للاقتصاد. ثم يقوم، كي يهدئ روعه، بالضرب على "التوتية" تحت النواذ في الساعات الأولى من الصباح إلى أن نرغمه على التوقف.

أما "التوتيا"، فهو الاسم الذي يطلق، بشكل عام، على كافة الإنشاءات وسوى ذلك من استخدامات صفائح الوقود. يكاد المرء لا يستطيع أن يتخيل كيف كان لسورية أن تتدبر أمورها في غياب صفيحة الوقود! فالنساء يرفعن الماء من الآبار باستخدام صفيحة الوقود. كما يتم تقطيع صفائح الوقود وطرقها بحيث تتحول إلى شرائح تغطي السقوف وتستخدم في إصلاح المنازل.

بل إن ميشيل يخبرني بثقة عالية بالنفس أن طموحه هو الحصول على منزل مبني كلياً من "التوتيا".

ويضيف بتوق: "سيكون منزلاً جميلاً، جميلاً للغاية".

الفصل الخامس

نهاية الموسم

يتكشف شاغر بازار عن كونه موقعاً ممتازاً، ويصل السيد ب. من لندن لتقديم المزيد من المساعدة في الشهر الأخير.

مراقبة ب. وماك وهما معاً أمر مثير للغاية— فهذان الشخصان يقفان على طرفي نقيض. ففي حين يبدو ب. حيواناً اجتماعياً بالتأكيد، فإن مارك حيوان لا اجتماعي. لكن علاقة طيبة تنشأ بين الرجلين، على الرغم من أنهما يتبادلان نظرات ملؤها الحيرة والتساؤل. إذ يعرب ب. على نحو مفاجئ، في أحد الأيام، وكنا على وشك المغادرة إلى القامشلي، عن قلقه.

«من سوء طالع مارك المسكين لأننا سنتركه وحيداً طوال اليوم. ربما يحسن بي أن أبقى معه».

أؤكد له أن «مارك يهوى الوحدة».

فيرمقني ب. بشك ويتركنا ويذهب إلى غرفة الرسم.

«انظر إلي يا مارك. هل تريدني أن أتخلف عن الرحلة؟ هذا أفضل من بقائك وحيداً طيلة اليوم».

ترتسم على محيا مارك نظرة ذعر.

ويقول: «آه. كنت أتوق إلى ذلك».

«يا له من رجل غريب الأطوار»، يقول ب. والسيارة تقفز بنا من حفرة إلى حفرة في طريقنا إلى القامشلي. «هل تتذكرون الغروب في الليلة الماضية؟ غروب جميل! لقد سعدت إلى السطح كي أراقب المشهد فوجدت ماك هناك. كنت أحس بشيء من الحماسة، يجب أن أقر بذلك - لكن ماك المسكين، لم ينبس ببنت شفة. بل إنه لم يجيني عندما كلمته. ومع ذلك، أفترض أنه كان هناك كي يراقب الغروب».

«نعم، إنه يصعد إلى السطح في المساء».

«يبدو غريباً للغاية أنه لم يقل شيئاً حينها».

أتخيل ماك على السطح وحيداً وصامتاً وب. بجواره يثرثر بحماسة.

لا ريب أن ماك سيجلس، فيما بعد، في غرفته المرتبة على بساطه ذي النقوش المربعة كي يكتب شيئاً في دفتر يومياته...

«أعني، أنك لا يمكن أن تتوقع ذلك، أليس كذلك؟». هكذا يمضي ب. في الثرثرة بدأب قبل أن يقاطعه ميشيل الذي ينحرف بالسيارة لغايات شيطانية ويضغط بقوة على دواسة السرعة ويندفع نحو مجموعة من العرب مكونة من امرأتين مستتين ورجل وبرفقتهم حمار.

فيجفلون ويصرخون ويفقد ماكس صوابه ويشتم ميشيل بغضب. ماذا يظن نفسه فاعلاً؟ كان يمكن أن يقتلهم!

تلك كانت، على ما يبدو، نية ميشيل بصورة أو بأخرى.

إذ يتساءل وقد رفع يديه الاثنتين في الهواء تاركاً للسيارة أن تقر وجهه سيرها: «وأية أهمية في ذلك؟ إنهم مسلمون أليس كذلك؟»

ثم يلوذ، بعد الإعلان عن مشاعره المسيحية المتوقدة (من وجهة

نظره)، بصمت الشهيد الذي لم يجد حوله من يفهمه. يبدو عليه وكأنه يتساءل أي صنف من المسيحيين هؤلاء ذوو الايمان الضعيف والمترددا!

يفهمه ماكس، بطريقة لا لبس فيها، أنه لن يتساهل مع أية محاولة لقتل مسلمين.

فيدمدم ميشيل بحزن من بين أسنانه:

«كم يكون أفضل لو أن كلهم موتى!».

هنالك لدى ب.، فضلاً عن نشاطاتنا المعهودة في القامشلي من زيارات للمصرف وتسوق من متجر السيد ياناكوس ومكالمة مجاملة مع الملازم الفرنسي، شأن يخصه يتمثل في استلام طرد مرسل إليه من إنكلترا يضم منامتين.

كنا قد تلقينا إشعاراً رسمياً مفاده أن الطرد المطلوب في انتظارنا في مكتب البريد. فإلى مكتب البريد.

مدير مكتب البريد ليس موجوداً، لكنه يصل إلى مكان عمله بعينين مطبقتين وهو يتشاءب مرتدياً منامة مقلمة ثقيلة. يتعامل معنا بلطف ومودة، على الرغم من أننا أيقظناه من إغفاءة ثقيلة، فيصافحنا ويسألنا عن سير العمل في التنقيب - وهل عثرنا على أي ذهب؟- وهلا نتناول كوباً من القهوة معه؟- ثم نتقل إلى مسألة الطرد البريدي، وقد أولينا المجاملات كل ما تستحقه من اهتمام. صارت رسائلنا الآن تصل إلى مكتب البريد في عامودا- وهو أمر ليس بالمفرح لأن مدير مكتب بريد عامودا العجوز يعتبرها أغراضاً ثمينة وقيمة للغاية فيودعها خزنة المقتنيات الثمينة وينسى تسليمها.

أما طرد ب.، فمحتجز في القامشلي، وعلينا أن نطلق مفاوضات
تسليمه.

يقول مدير المكتب: «نعم، بالتأكيد، هنالك طرد كهذا. إنه مرسل
من لندن، إنكلترا. آه، كم هي مدينة عظيمة لندن! وكم أود أن أراها!
الطرد مرسل إلى السيد ب.». «آه، هذا هو السيد ب.، زميلنا».
فيصافح ب. من جديد ويتفوه ببعض عبارات المجاملة. فيجيبه ب.
بتهديب وود باللغة العربية.

نعود، بعد هذا الفاصل، إلى مسألة الطرد. نعم، يقول مدير مكتب
البريد. لقد كان هنا، في المكتب، بالفعل! لكنه لم يعد موجوداً هنا
الآن. فقد تم احتجازه في مكتب الجمارك. لا بد أن السيد ب. يعلم
أن الطرود تخضع لإجراءات الجمارك.

يقول ب. إنها ملابس للاستخدام الشخصي.

فيجيبه مدير مكتب البريد: «لا شك في ذلك، لا شك في ذلك -
لكن الأمر من اختصاص الجمارك».

«علينا الذهاب إلى مكتب الجمارك إذن؟»

يوافقنا مدير مكتب البريد: «هذا هو الإجراء السليم. لكن الأمر
لن يكون ممكناً اليوم. فالיום هو الأربعاء والجمارك تقفل أبوابها أيام
الأربعاء».

إلى الغد إذن؟ نعم، ستفتح الجمارك أبوابها في الغد.

يعتذر ب. من ماكس: «أنا آسف. هذا يعني أنني يجب أن آتي إلى
هنا في الغد كي أستلم الطرد».

يقول مدير مكتب البريد إن السيد ب. يجب أن يعود غداً بالتأكيد، لكنه لن يكون قادراً على استلام الطرد حتى في الغد.

يتساءل ب.: «و لم لا؟»

«لأن الطرد يجب أن يذهب إلى مكتب البريد بعد الانتهاء من الشكليات في الجمارك».

«تعني أنني يجب أن أعود إلى هنا؟»

فيقول مدير مكتب البريد بلهجة مظفرة: «تماماً. وهو أمر غير ممكن في الغد لأن مكتب البريد يقفل أبوابه».

نخوض شيئاً فشيئاً في تفاصيل الموضوع، كي نجد الشكليات في انتظارنا عند كل منعطف. يبدو أنه لا يوجد أي يوم في الأسبوع يعمل فيه مكتب البريد ومكتب الجمارك معاً!

فالتفت إلى ب. المسكين ونوئبه ونسأله لماذا بحق الجحيم لم يجلب هاتين المنامتين اللعينتين معه بدلاً من تلقيهما بالبريد!

فيقول ب.، مدافعاً عن نفسه، لأنهما منامتان خاصتان للغاية.

يقول ماكس إنهما يجب أن تكونا خاصتين بالنظر إلى المتاعب التي تتسبب لنا بها! «وظيفة هذه الشاحنة تقتصر على نقلنا إلى الحفر ومنه، لا أن تذهب إلى القامشلي كما لو كانت عربة بريد!».

نحاول إقناع مدير مكتب البريد أن يدع ب. يوقع على استثمارات مكتب البريد الآن، لكنه يرفض بعناد. فإجراءات مكتب البريد تلي إجراءات الجمارك على الدوام. تغادر مكتب البريد ومدير مكتب البريد بحزن، مثخنين بالهزيمة كي نعود، كما هو مفترض، إلى أسرتنا.

ثم يصل ميشيل وملامح وجهه تشي بالاثارة ويقول إنه أجرى مساومة مجزية للغاية على البرتقال. لقد اشترى مثتي برتقالة بثمان اقتصادي تماماً. فيتلقى سيلاً من الشتائم كالعادة. كيف له أن يظن أننا سنلتهم مثتي برتقالة قبل أن تفسد؟ هذا إن لم تكن فاسدة أصلاً.

يقر ميشيل أن بعض حبات البرتقال بالية بعض الشيء، لكنها رخيصة للغاية ناهيك عن وجود حسم كبير عند شراء الحبات المائتين دفعة واحدة. هكذا يوافق ماكس على تحري هذه الكمية من البرتقال ويرفضها في الحال، فمعظم الحبات مغطاة بعفن أخضر!

يتمتم ميشيل بحزن قائلاً لكنها «إيكونوميا!»، وهي، في نهاية المطاف، برتقال. ثم يمضي ويعود ببعض الدجاجات الاقتصادية التي يحملها رأساً على عقب وقد قيدها معاً من أقدامها. كما نقوم ببعض المشتريات، الاقتصادية منها وغير الاقتصادية، ونقل عاتدين إلى البيت.

أسال ماك إن كان قد أمضى يوماً طيباً، فيجيب بحماسة لا يمكن للمرء أن يخطئها: «رائع!».

أما ب.، فيرمق ماك بنظرة تنم عن عدم فهم، ثم يلقي بجسده على كرسي غير موجود في الواقع، كي يبلغ اليوم الجميل الذي عاشه ماك خاتمته السعيدة. لم أشاهد في حياتي أحداً يضحك بهذا المقدار! بل إنه بين الفينة والأخرى ينفجر ضاحكاً من جديد أثناء العشاء. ليتنا عرفنا من قبل ما الذي يحرر روح المرح لدى ماك، لكننا تدبرنا أمر إضحাকে في وقت أبكر بكثير!

يواطب ب. على مهمته الشاقة في أن يكون اجتماعياً. ففي الأيام التي يذهب فيها ماكس إلى التنقيب وحده ونبقى، ثلاثتنا، في البيت،

يحووم ب. في المكان كروح ضالة. فيذهب إلى مكتب الرسم كي يتكلم مع ماك، لكن دون أن يلقي منه أية استجابة، فيعود حزينا إلى المكتب حيث أجلس إلى آلي الكاتبة منكب على التفاصيل المروعة لجريمة قتل.

«آه»، يقول ب.، «هل أنت مشغولة؟»

«نعم»، أجيب باختصار!

«في الكتابة»، يقول ب.

«نعم» (باختصار أكبر).

فيقول ب. بشيء من الأمل: «فكرت، ربما، أنني قد أحضر الأغراض واللصاقات إلى هنا. لن يزعجك الأمر. أليس كذلك؟»

علي أن أكون صارمة. أشرح له بوضوح بالغ أنه يستحيل علي أن أعمل على جسد ميت إن كان هناك جسد حي يتحرك في الأرجاء حولي ويتنفس ناهيك عن كونه يتكلم!

فيمضي ب. المسكين بعيداً وقد حكم عليه أن يعمل في عزلة وبصمت. أحس أنه لو قبض ل ب. أن يؤلف كتاباً، فإنه لن يجد أية مشقة في كتابته وبالقرب منه مذياع وغراموفون صادحان وفي الغرفة معه أشخاص يثرثرون!

لكن اللحظات التي يتجلى فيها ب.، بالفعل، هي عندما يصل زوار إلى التل أو إلى البيت على حد سواء.

فهو يتمتع بالإرادة والكفاءة اللازمين للتعامل مع الزوار بمختلف مشاربهم، سواء كانوا راهبات أم ضباطاً فرنسيين أم علماء آثار زائرين أم سائحين.

«هنالك سيارة تتوقف وفيها بعض الأشخاص. هلا أذهب وأرى من يكونون؟»
 «آه، أرجوك أن تفعل».

تصل المجموعة الآن برعاية ب. الذي يدر دوش بكل ما يلزم من لغات. في تلك المناسبات يصبح ب. شخصاً لا يقدر بثمن كما نقول له على الدوام.

فيقول ب. وهو يومئ إلى ماك بتكشيرة: «ماك ليس بارعاً بما يكفي. أليس كذلك؟»

فأجيبه بقسوة: «ماك ليس بارعاً على الإطلاق. بل إنه لن يحاول».
 فترسم على محيا ماك تلك الابتسامة اللطيفة المتحفة...

نكتشف أن لدى ماك نقطة ضعف. ونقطة ضعفه هي الخيول.

إذ يقل ب. ماك إلى التل ويتابع طريقه بالسيارة إلى القامشلي كي يعالج مشكلة منامتيه. وفي منتصف ذلك اليوم، يعرب ماك عن رغبته في العودة إلى البيت، فيقترح علاوي عليه أن يأخذ حصاناً من الأحصنة العديدة التي يملكها الشيخ. وفي الحال، يشرق وجه ماك ويتلاشى ذلك التحفظ الرقيق محلياً مكانه للحماسة.

ومنذ تلك اللحظة، يحرص ماك على أن يعود إلى البيت على ظهر حصان متدرعاً بأوهى الأسباب.

يقول علاوي إن «الخواجة ماك لا يتكلم على الإطلاق، بل يصفر. فهو يصفر عندما يريد أن يقف الصبي الذي يحمل عصا المساحة إلى اليسار قليلاً، ويصفر، كذلك عندما يريد أن يأتي البناء، وأصبح يصفر الآن للحصان!».

ما تزال مشكلة منامتي ب. معلقة. إذ يطالبه مكتب الجمارك بتسديد مبلغ خيالي مقداره ثمانية جنيهات! لكن ب. يرفض السداد قائلاً إن ثمن النامتين معاً لا يزيد عن جنيهين. ثم يزداد الموقف تعقيداً. إذ تتساءل الجمارك عما ينبغي فعله بالطرد ثم ترده إلى مدير مكتب البريد الذي يرفض تسليم ب. إياه كما أنه لن يسمح، كذلك، بمغادرته البلاد! نمضي ساعات وأياماً مهدورة هباء في الذهاب إلى القامشلي والنقاش في القضية. ثم يتم استدعاء مدير المصرف وضباط جهاز الخدمة الخاصة. بل إن رجل دين رفيع من الكنيسة المارونية كان في زيارة لمدير المصرف يتدخل في المسألة، بمظهره المهيب في ثوبه الأرجواني وصلبيه الضخم وعقصة شعره الكبيرة! هكذا ينفذ مدير مكتب البريد الحقير آثار النوم عنه على الرغم من أنه ما يزال يرتدي منامته! وسرعان ما تستحيل القضية أزمة دولية.

وفجأة ينتهي كل شيء حين يصل موظف جمارك عامودا إلى بيتنا مصطحباً معه الطرد. لقد حلت كافة التعقيدات مقابل رسم مقداره ثلاثون شلناً و

douze francs cinquante pour les timbres et des cigarettes, n'est ce pas?

(تدس بضع علب سجائر في جيبه). «*Voilà, Monsieur!*» ويمد يده بالطرد وتشرق وجوهنا. نتحلق حول ب. ونراقبه وهو يفتح الطرد.

ثم يرفع محتوياته بفخر قائلاً بلهجة الفارس المخلص إنه ابتكار خاص صنع من أجله.

ويضيف: "من أجل البعوض. إنها تحميك من البعوض".

فيقول ماكس إنه لم ير بعوضة واحدة في هذه الأرجاء.

فيجيبه ب.: ”يوجد بعوض بالطبع. إنه أمر معروف تماماً. المياه الآسنة!“

تنتقل عيناى إلى ماك على الفور. وأقول: ”لا وجود للمياه الآسنة هنا. ولو كان الأمر غير ذلك، لشاهدها ماك!“

فيقول ب. بلهجة مظفرة إنه توجد بركة مياه آسنة إلى الشمال من عامودا.

لكننا نكرر، ماكس وأنا، مرة أخرى، أننا لم نر أية بعوضة هنا ولم نسمع بوجود بعوض. بيد أن ب. لا يلقي لنا بالاً ويطنب في الحديث عن مزايا اختراعه.

النامتان مصنوعتان من حرير أبيض وتتألف كل منهما من قطعة واحدة تعلوها قلنسوة لتغطية الرأس وينتهي كماها بقفازين بلا أصابع. وتغلق هذه الناماة باستخدام سحب يرفع إلى الأعلى بحيث تصبح العينان والأنف الجزأين الوحيديين من الجسد المعرضين للبعوض.

ويضيف ب. بظفر: ”وطالما أنك تتنفسين من أنفك، فهذا يكفي لإبعاد البعوض“.

أما ماكس، فلا يكف عن القول بغضب إنه لا يوجد أي بعوض. لكن ب. يفهمنا أننا ستمنى جميعنا، في اليوم الذي سنكابد فيه آلام الملاريا، لو أننا تبيننا فكرته.

وفجأة ينفجر ماك ضاحكاً. فننظر إليه باستفهام.

فيقول شارحاً الأمر: ”إنني أفكر في ذلك اليوم الذي جلست فيه ولم يكن الكرسي موجوداً“ ثم يمضي بعيداً وهو يضحك بحبور.

كنا قد أخذنا إلى النوم بالفعل في تلك الليلة عندما يدب الهرج والمرج في البيت. فننهض من أسرتنا بسرعة وقد خلنا للوهلة الأولى أن لصوصاً يهاجموننا وندفع بسرعة إلى غرفة الطعام. وهناك يقابلنا شكل أبيض يجري بجنون ويعوي ويقفز.

فيصيح ماكس: "يا للهول. ماذا أصابك يا ب.؟".

يخيل إلي للحظة أن ب. قد جن.

لكن الأمر يتضح بسرعة.

لقد نجحت فأرة، بطريقة ما، في الاندساس في منامة ب. الواقية من البعوض! أما السحاب فقد علق في الأعلى.

لم نكف عن الضحك إلا وقد أشرقت الشمس.

وحده ب. لا يشعر بالسرور...

الجو يزداد حرارة وتنبت كل أنواع الزهور. لا أعتبر نفسي عالمة نبات ولا أعرف أسماء هذه الزهور ولا أرغب، بصراحة، في معرفتها. فأية متعة ينالها المرء من معرفة الأشياء؟ ومع ذلك، هناك أزهار زرقاء وبنفسجية كأزهار ترمس صغيرة وأخرى ذهبية كأزهار الماريغولد وأخرى دقيقة كالرز ذات لون أحمر داكن. أصبحت تلك التلال جميعها الآن ثورة من الألوان. إنه بالفعل "السهب الخصب". أزور غرفة الأنتيكات وأستعير بضعة قدور فخارية ذات أشكال مناسبة. يفتش ماك، الراغب في رسمها، عنها دون جدوى. فهي الآن مليئة بالأزهار.

المنزل يرتفع بسرعة. إذ ينتصب الهيكل الخشبي لمركز البيت ويتم إكساؤه بالطوب الطيني وأهني ماكس الذي أقف بجواره على قمة الأكمة.

”هذا أسرع بكثير من غاسلة الملابس لدي“.

يوافقني المعماري الناجح القول. لكنه يتبرم بمرارة من رؤساء عماله الذين، كما يقول، ليست لديهم فكرة عن معنى الدقة. أقول إنني واثقة من ذلك. فيقول ماك. بمرارة إنهم يضحكون وفي ظنهم أن الأمر لا قيمة له. أغير وجهة الحديث نحو الخيول، فيشرق وجه ماك.

يزداد مزاج رؤساء عمالنا سخونة مع ارتفاع حرارة الجو. ويرفع ماكس الغرامات المفروضة على الرؤوس المكسورة ويتوصل أخيراً إلى قرار يائس. سوف يقوم العمال، في صباح كل يوم، بتسليم ما في حوزتهم من سلاح قبل أن يشرعوا في العمل. لا يحظى القرار بالشعبية، لكن الرجال يقبلونه على مضض. هكذا، تسلم، تحت أنظار ماكس، الهراوات والعصي والمدى الطويلة ذات المظهر القاتل إلى ميشيل الذي يحتجزها في خزانة في الكوين ماري. ومع مغيب الشمس، تعاد هذه الأسلحة إلى مالكيها. إنه جهد مضجر وفيه هدر للوقت لكنه، على الأقل، يجنب العمال إحداث المزيد من الأضرار.

يأتي عامل أيزيدي ويشتكى إصابته بالإغماء بسبب حاجته إلى الماء. إنه لن يكون قادراً على العمل ما لم يشرب.

”لكن الماء هنا - فلماذا لا تشرب؟“

”لا أستطيع الشرب من هذا الماء. هذا الماء مصدره البئر وقد أسقط ابن الشيخ بعض الخس في البئر هذا الصباح.“

يجب على الأيزيديين، بموجب إيمانهم، الامتناع عن ذكر الخس أو عن لمس أي شيء ملوث بالخس لأنهم يؤمنون أن الشيطان مقيم فيه. يجيبه ماكس: ”أظن أن أحدهم كذب عليك. فقد رأيت ابن الشيخ

هذا الصباح في القامشلي وأخبرني أنه هناك منذ يومين. لقد قيل لك ذلك للتغريب بك“.

عندئذ تتم تلاوة قانون الشغب على العمال المجتمعين. يحظر على الجميع الكذب على العمال الأيزيديين أو اضطهادهم. ”الجميع في هذه الورشة إخوة“.

فيتقدم رجل ذو عينين مرحتين إلى الأمام.

«أنت تتبع المسيح يا خواجة ونحن نتبع محمد، لكننا، كلينا، أعداء للشيطان. فمن واجبنا، إذن، اضطهاد هؤلاء الذين يؤمنون بأن الشيطان سوف يعود ويعبدونه».

فيقول ماكس: «قيامك بواجبك في المستقبل سيكلفك، إذن، خمسة فرنكات في كل مرة!».

ولا نعود، لبضعة أيام من ذلك، نسمع أي تدمر من الأيزيديين!

الأيزيديون أشخاص مثيرون للفضول ودمشون على نحو خاص وعبادة الشيطان لديهم أقرب، في طبيعتها، إلى أن تكون نوعاً من الاستعطاف. وهم، فضلاً عن ذلك، يؤمنون أن الله هو من أوكل للشيطان مهمة الإشراف على هذا العالم— وأن زمن الشيطان سيليه زمن يسوع الذي يعتبرونه نبياً، وإن يكن نبياً لم يتبوأ سدة السلطة بعد. ويمنع في الديانة الأيزيدية ذكر اسم الشيطان أو أية كلمة أخرى شبيهة باسمه.

يقع مقامهم المقدس، مقام الشيخ عدي، في التلال الكردية بالقرب من الموصل، وقد زرنه ذات مرة عندما كنا نقب بالقرب منه. أعتقد

أنه لا يوجد مكان في العالم بجماله أو بسكنته. يتجه المرء إليه صعوداً في التلال بين أشجار البلوط والرمان على خطى مسيل جبلي. الجو هناك منعش ونظيف ونقي. ويحتاج المرء، كي يقطع الأميال الأخيرة قبل الوصول إليه، أن يسير على قدميه أو أن يستخدم الجياد. يقال إن الطبيعة البشرية هناك على درجة من النقاء يمكن معه للنساء المسيحيات أن يسبحن عاريات في الجداول.

ثم تصل، فجأة، إلى مشارف المقام. كل شيء هناك هادئ ووادع. هنالك أشجار وفناء وماء جار. يجلب لك حراس المقام ذوو الوجوه الوديعه المرطبات وتجلس في مكان ملؤه السلام وتحتسي الشاي. يقع المدخل المفضي إلى المعبد في الساحة الداخلية وإلى اليمين منه أفعى سوداء كبيرة منحوتة. وقد تم نحت هذه الأفعى لأن الأيزيديين يؤمنون أن طود نوح رسا في جبل سنجار وأنه كان فيه ثقب. هكذا التفت الأفعى على نفسها وسدت الثقب كي يستطيع الطود متابعة طريقه.

انترعنا أحذيتنا وتم اصطحابنا إلى المعبد حيث خطونا فوق العتبة بحذر لأن الدوس عليها ممنوع. ومن الأمور المنوعة كذلك إظهار باطن القدم، وهو عمل تكتنفه بعض الصعوبة عند الجلوس أرضاً بوضعية مقاطعة الساقين.

الجو في الداخل مظلم وبارد بعض الشيء وهنالك مسيل مائي رقيق هو النبع المقدس الذي يقال إنه يصل إلى مكة. تعرض في المعبد صورة الطاووس في أزمنة الأعياد. يقول البعض إنه تم اختيار طاووس بوصفه ممثل الشيطان لأن اسمه هو الكلمة الأكثر اختلافاً عن الاسم المنوع. إنه، من بعض النواحي، لوسيفر، ابن الصباح، الذي هو الملاك الطاووس في الإيمان الأيزيدي.

خرجنا من جديد وجلسنا في سكينة الساحة وصمتها وراودنا إحساس بالنفور من مغادرة هذا الملاذ الجبلي والعودة إلى صخب العالم...

مقام الشيخ عدي هو من الأمكنة التي لن أنساها ما حيت - كما لن أنسى أبداً السلام الكلي والرضا المطلق اللذين استوليا على روعي هناك...

زارنا المير، رئيس الأيزيديين، ذات مرة إلى الموقع الذي نلقب فيه في العراق. كان رجلاً فارغ القامة ذا وجه حزين، متسربلاً بالسواد. إنه، بالنسبة إليهم، بمثابة البابا والزعيم، على الرغم من الروايات المحلية التي تقول إن هذا المير، تحديداً، واقع كلياً تحت سطوة عمته، خاتون مقام الشيخ عدي، ووالدته، وهي امرأة جميلة طموحة كان يقال إنها تبقى ابنها تحت تأثير المخدرات كي لا يستخدم سلطته.

زرنا، في رحلة لنا إلى جبل سنجار، شيخ سنجار الأيزيدي، حمو شيرو، وهو رجل طاعن في السن يقال إنه يبلغ من العمر تسعين عاماً. فر، خلال الحرب التي دارت بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، مئات من اللاجئين الأرمن من الأتراك وقدم لهم المأوى في جبل سنجار وأنقذوا من الموت.

ينشب خلاف شديد آخر حول يوم الاستراحة. يعتبر اليوم التالي ليوم تسديد الأجور يوم عطلة على الدوام. ويزعم المسلمون أنه طالما أن عددهم يزيد على عدد المسيحيين في بعثة التنقيب فإن يوم الجمعة هو الذي ينبغي اختياره كيوم استراحة. لكن العمال الأرمن يرفضون، على كل حال، العمل أيام الآحاد قائلين إنه طالما أن البعثة مسيحية فيجب أن يكون يوم الأحد هو يوم العطلة.

فقرر اعتبار يوم الثلاثاء يوم عطلة على الدوام لأنه لا يعتبر يوماً مقدساً في أي ديانة على حد علمنا.

يزورنا رؤساء العمال في المساء ويحتسون القهوة معنا ويبلغوننا بالصعوبات أو المشكلات التي تواجههم.

العجوز عبد السلام يتكلم كثيراً هذا المساء. وصوته يصدح بمونولوج طويل متقد. أنصت إلى ما يقوله باهتمام على الرغم من أنني لا أستطيع أن أفهم شيئاً منه. لكنه على درجة من الدرامية تثير فضولي. وعندما يتوقف عبد السلام لبرهة كي يلتقط أنفاسه، أسأل ماكس عما يجري.

فيجيبني ماكس بكلمة واحدة مختصرة:

«إمساك».

يلتفت عبد السلام نحوي، وقد أحس باهتمامي، ويضيف المزيد من التفاصيل البلاغية عن حالته الصحية.

يقول ماكس: «لقد تناول إينو وبيتشام وملينات نباتية وزيت الخروع. وهو يصف لك أثر كل من هذه العقاقير فيه وكيف أنها لم تعط النتائج المطلوبة».

من الواضح أن الحوار يتطرق إلى دواء الطبيب الفرنسي القادر على شفاء حصان.

فيصف له ماكس جرعة كبيرة! ويغادر عبد السلام والأمل يحدوه وندعو الله أن تكون النتائج مرضية!

أنا الآن مشغولة للغاية. فبالإضافة إلى ترميم الفخاريات، هنالك

كذلك التصوير - خصصت «حجرة مظلمة» من أجلي. وهي تشبه إلى حد ما زنانات برج لندن.

إذ لا يمكن للمرء أن يجلس فيها كما لا يمكنه أن يقف! هكذا أحض الأفلام في تلك الحجرة وأنا أدب على أربع وأجثو ورأسي ملوي إلى الأسفل. أخرج من الحجرة وقد خنقتني الحرارة فيها بالفعل وقد أصبحت عاجزة عن الانتصاب - وأجد الكثير من المتعة في وصف ضروب العذاب التي عانيت منها هناك على الرغم من أن الحضور يبدو غافلين بعض الشيء - إذ أن اهتمامهم منصب كلياً على النسخ السلبية لا على العامل الذي أنتجها.

ثم يتذكر ماكس عرضاً أنه عليه أن يقول بحرارة وتعاطف: «أظن أنك رائعة يا عزيزتي» بشيء من شرود الذهن.

أصبح منزلنا ناجزاً. وهو ينضح، عندما يشاهده المرء من قمة الأكمة، بشيء من القداسة بقبته الكبيرة التي تنتصب بيضاء ناصعة مقارنة بالأرض التي خبزتها حرارة الشمس. المنزل من الداخل جميل للغاية. فالقبة تشيع أجواء لطيفة وتوحي بالرحابة. توجد، إلى اليمين، غرفتان، الأولى هي غرفة نوم مخصصة لي ولماكس والثانية مكتب رسم ألحقت به غرفة نوم لماك وب. سنمضي في هذا المنزل أسبوعاً أو اثنين هذه السنة. بدأ موسم الحصاد والرجال يغادرون العمل كل يوم ويذهبون لجني الغلال. الأزهار لم تعد موجودة - لقد اختفت بين ليلة وضحاها لأن السكان البدو جاؤوا من الهضاب - وتناثرت خيامهم البنية في كل مكان ومواشيهم ترعى في المكان وهي تتحرك جنوباً ببطء.

نحن عائدون في السنة القادمة - عائدون إلى بيتنا - فهذا المنزل ذو القبة الواقع في قلب اللامكان هو، بالنسبة إلينا، بيت حقيقي.

يدور الشيخ بجلبابه الأبيض الناصع حول البيت بإعجاب وعينه الصغيرتان المرحتان تتلألآن. فهذا المنزل سيؤول إليه في نهاية المطاف وهو يشعر، منذ الآن، بأبهة مضافة.

كم سيكون جميلاً أن أرى إنكلترا من جديد. كم سيكون جميلاً أن أرى أصدقائي والعشب الأخضر والأشجار الباسقة. وكم سيكون جميلاً، كذلك، أن أعود إلى هذا المكان في السنة القادمة.

ماك يرسم شيئاً ما. إنه يرسم الأكمة. الرسم تجريدي للغاية لكنه يثير إعجابي إلى أقصى الحدود.

لا يمكن للمرء أن يشاهد فيه بشراً، بل مجرد خطوط منحنية وظلال. أكتشف، في تلك اللحظة، أن ماك ليس معمارياً فحسب، بل هو، كذلك، فنان. فأسأله أن يصمم غلاف كتابي الجديد.

يصل ب. وهو يتذمر من كون الكراسي قد وضبت - وأنه لا يوجد شيء يستطيع المرء الجلوس عليه.

فيسأله ماكس: «ولماذا تريد أن تجلس؟ هنالك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه».

ويذهب بعيداً فيخاطبني ب. معاتباً:

«كم هو نشيط زوجك!».

أتساءل في نفسي كيف يمكن لمن يرى ماكس في إنكلترا نائماً في بعد ظهيرة يوم صيفي أن يصدق ذلك...

تداعى أفكاري إلى ديفون، إلى الصخور الحمراء والبحر الأزرق... كم هو جميل أن يعود المرء إلى وطنه. ابنتي، الكلب، زبادي قشدة ديفونشاير، التفاح، الاستحمام... وأتهد بنشوة.

الفصل السادس

نهاية الرحلة

كانت نتائج تحرياتنا مشجعة فنقرر المضي في التنقيب موسماً آخر. سيكون فريقنا هذه السنة مختلفاً.

فماك يعمل مع بعثة أخرى في فلسطين لكنه يأمل في أن يلتحق بنا في الأسابيع الأخيرة من الموسم. ولذلك سوف يرافقنا معماري آخر. كما سيضم فريقنا عنصراً إضافياً هو الكولونيل. إذ أن ماكس يأمل في إجراء بعض التنقيب في تل براك، إلى جانب التنقيب في شاغر بازار. وبذلك يمكن للكولونيل أن يتولى مسؤولية أحد الموقعين في حين يشرف ماكس على العمل في الموقع الآخر.

يسافر ماكس والكولونيل والمعماري الجديد معاً على أن ألتحق بهما بعد بضعة أسابيع.

وقبل أسبوعين من مغادرتهما، يتصل معمارينا بالهاتف ويسأل عن ماكس الموجود خارج المنزل. يبدو عليه القلق. أسأله إن كان هنالك ما أستطيع فعله.

يقول: «حسناً. الأمر يتعلق بالرحلة. أنا موجود الآن في شركة كوك كي أحجز عربة نوم إلى المكان الذي أخبرني عنه ماكس لكنهم يقولون لي إنه لا يوجد مكان بهذا الاسم».

أطمئنه.

«غالباً ما يقولون ذلك. إذ لم يسبق لأحد أن ذهب إلى أماكن كهذه. فطبيعي، إذن، أنهم لم يسمعوا به».

«يبدو أنهم يظنون أنني أعني الموصل».

أطمئنه: «حسناً. أنت لا تعني ذلك».

وفجأة يهبط علي الرحي. «هل سألتهم عن القامشلي أو نصيبين؟»

«القامشلي. أليس ذلك اسم المكان؟»

«إنه اسم المكان بالضبط، لكن المحطة هي نصيبين - وهي على الجانب التركي من الحدود. أما القامشلي، فمدينة سورية».

«هذا يفسر كل شيء. لم يقل لي ماك أنني يجب أن آخذ أي شيء

آخر. فهل يجب أن أفعل؟»

«لا أظن ذلك. لديك ما يكفي من أقلام الرصاص. أليس كذلك؟»

«أقلام رصاص؟» يبدو صوته كمن فوجئ بالأمر. «بالطبع».

أقول: «ستحتاج إلى الكثير من أقلام الرصاص»، دون أن أدرك الوقع الفاسد لهذه الكلمة في أذنه.

تمضي رحلتي إلى اسطنبول بسلام وأحصل على حصتي من الأحذية وأمر بسلام من الجمارك التركية!

اكتشف في حيدر باشا أنني سأشترك في مقصورة واحدة مع سيدة تركية ضخمة. لديها ست حقائب وسلتان شكلهما غريب وبعض الأكياس المخططة وطرود مؤن متنوعة. فإن أضفت حقيبتَي الاثنتين وصندوق القبعات، لا يبقى هناك من متسع كي نريح سيقاننا!

تودع السيدة البدنية سيدة أخرى لطيفة وأكثر رشاقة. تخاطبني

بالفرنسية وتتجاذب أطراف حوار ودي. أنا ذاهبة إلى حلب؟ آه، ابنة عمها لن تصل إلى هناك! هل أتكلم الألمانية؟ فابنة عمها تتكلم القليل من الألمانية.

لا، للأسف، لا أتكلم الألمانية. ولا التركية؟ ولا التركية!

يا لسوء الطالع! فابنة عمها لا تتكلم الفرنسية! فماذا سنصنع؟ كيف سنتخاطب؟

أقول إنه يبدو لي أننا لن نكون قادرين على التخاطب.

أمر يدعو للثناء، تقول ابنة العم اللطيفة، لأن الأمر يمكن أن يكون مثيراً لكليكما. لكن فلنقل كل ما نستطيع قوله قبل مغادرة القطار. أنت متزوجة، صح؟ أقر أنني متزوجة. «والأبناء؟ لديك العديد من الأبناء بلا ريب؟ لابنة عمي أربعة أبناء - لكن»، ثم تضيف باعتزاز، «ثلاثة منهم صبية!». أحس أنني لا أستطيع الإقرار باكتفائي بابنة واحدة، كرمي للمكانة الإنكليزية. فأضيف، بلا خجل، ابنين آخرين.

«ممتاز»، تقول ابنة العم ببشاشة. «وماذا عن الإجهاض؟ كم مرة أجهضت؟ ابنة عمي أجهضت خمس مرات، مرتين في الشهر الثالث ومرتين في الشهر الخامس وأنجبت مرة واحدة مولوداً ميتاً في الشهر السابع». أتردد بعض الشيء في اختراع حالة إجهاض لمجرد تعزيز أواصر الصداقة بينما قبل أن تأتي صافرة القطار لنجدتي وتغادر ابنة العم اللطيفة العربية ثم تصرخ على طول الممر: «عليكما أن تتبادلا المعلومات بالتفصيل بلغة الإشارة».

الآفاق غير مشجعة، لكن أمورنا تسير على خير ما يرام من خلال الإيماءات والابتسامات. تعرض رفيقتي علي حصة سخية من مخزونها

الهائل من الطعام المفعم بالتوابل، وأعطيتها، بالمقابل، على سبيل الشراكة، تفاحة أحضرتها من عربة الطعام.

تزداد الفسحة المخصصة لأقدامنا ضيقاً بعد فصر سلال الطعام وملاً روائح الطعام وعبير التوابل المكان !

ومع حلول الليل، تتحقق رقيقة رحلتي من أن النافذة محكمة الإغلاق. أصعد إلى السرير العلوي وأنتظر سماع أصوات شخير لطيف ومنتظم من السرير السفلي.

ثم أنسل بخفة إلى الأسفل وأشق النافذة بحذر. وأنسحب من جديد إلى سريري دون أن يفتضح أمري.

إيماءة هائلة تنم عن المباغثة عندما يتبين في الصباح أن النافذة مفتوحة. إذ تحاول السيدة التركية أن تؤكد لي، من خلال عدد لا يحصى من الإشارات، أن الأمر لم يحدث بخطأ منها. فأطمئنها، إيمائياً، أنني لا ألومها على الإطلاق وأن الأمر، كما أظن، هو واحد من تلك الأمور التي يمكن أن تحدث.

نصل إلى محطة القطار التي تقصدها السيدة التركية فتودعني بكبير تهذيب. فنتبادل الابتسامات والإيماءات والانحناءات معربتين عن أسفنا لأن الحاجز اللغوي حال دون أن نتبادل وقائع حياتنا الأساسية. أجلس، عند الغداء، قبالة سيدة أمريكية عجوز لطيفة. تتأمل مطولاً في نسوة يعملن في الحقول.

وتتنهد قائلة: «يا لهذه الأرواح المسكينة. أتساءل إن كن يدر كهن أنهن حرات».

أتساءل بشيء من الضياع: «حرات؟»

«بالطبع. لأنهن لم يعدن يرتدين البرقع. لقد تخلص مصطفى كمال من كل هذه الأمور. إنهن حرات الآن».

أنظر إلى أولئك النسوة العاملات بتفكير. يبدو لي أن هذه الناحية لا تعني شيئاً لهن. فيومهن هو جولة لا تنتهي من الكد وتساورني شكوك كثيرة في أنهن حظين بترف تغطية وجوههن. فنساء عمالنا المحليين لا يفعلن ذلك.

بيد أنني لا أجادلها في هذه النقطة.

تنادي السيدة الأمريكية النادل وتطلب كأساً من الماء الحار وتقول:

«*Je vais prendre des remèdes*».^(١٨)

ينظر إليها الرجل بوجه خلو من التعابير. يسألها إن كانت ترغب في القهوة أو الشاي؟ لكننا نفهمه بمشقة أن المطلوب هو كأس من الماء الساخن من غير إضافات.

«هلا تناولت معي بعض الأملاح؟» تسأل بلطف كمن يدعوني إلى كأس من الكوكتيل. أشكرها قائلة إنني لا أحب الأملاح. تلح علي: «لكنها مفيدة من أجلك». أعاني من صعوبات كبيرة في تجنب الإسهال.

أنسحب إلى مقصورتني وأتساءل كيف هي حال الإمساك لدى عبد السلام هذه السنة!

أقطع رحلتي في حلب لأن ماكس يريدني أن أحضر بعض الأشياء من هناك. وأوافق، بسبب حصولي على يوم فراغ كامل قبل أن أستقل

١٨- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أريد أن أتناول أدوية" (المترجم).

القطار التالي إلى نصيين، على الانضمام إلى مجموعة ذاهبة بالسيارة إلى قلعة سمعان.

يتبين أن المجموعة تتألف من مهندس مناجم وكاهن طاعن في السن وشبه أصم. يتبادر إلى ذهن الكاهن، لسبب من الأسباب، أن مهندس المناجم، الذي لم ألتق به من قبل، هو زوجي.

فيقول، مرتباً على يدي بحنان ونحن في طريق العودة: «زوجك يتكلم العربية بطلاقة يا عزيزتي».

أصرخ بشيء من الارتباك:

«بالفعل، لكنه ليس كذلك».

«آه، بالطبع، إنه كذلك»، يقول الكاهن مؤنباً. «إنه اختصاصي ممتاز باللغة العربية».

فأصيح: «إنه ليس زوجي».

يلتفت الكاهن إلى المهندس الذي أصبح وجهه أحمر قرميداً: «زوجتك لا تتكلم العربية على الإطلاق كما أفهم».

فيجيبه بصوت مرتفع: «هي ليست...».

«لا»، يقول الكاهن. «لقد عرفت أنها غير بارعة باللغة العربية».

ثم يضيف مبتسماً: «عليك أن تعلمها».

نصرخ بصوت واحد: «نحن لسنا زوجين!».

تتغير ملامح الكاهن. ويرمقنا بقسوة واستنكار.

ويتساءل: «و لم لا؟»

يخاطبني مهندس المناجم بقنوط: «أنا أستسلم».

ثم نضحك كلانا فتنفرج أسارير الكاهن.

ويقول: «لقد فهمت. كنتما تمتاز حانني قليلاً».

تتوقف السيارة أمام الفندق ويخرج منها بحذر ويطلق زفرة طويلة عبر شاريه الأبيضين ويلتفت صوبنا ويتسم بمحبة قائلاً:

«بارككما الله أنتما الاثنين. وأتمنى لكما حياة طويلة وهانئة معاً!».

وصول مظفر إلى نصيبين. كما هي العادة، يتوقف القطار في مكان تبلغ الهوة بين درجه و سطح مغطى بحجارة حادة غير مثبتة خمسة أقدام! يتكرم أحد رفاق الرحلة بالقفز إلى الأسفل وإزالة الحجارة كي أستطيع القفز دون أن ألوي كاحلي. ألمح من بعيد ماكس وهو يدنو كما أشاهد سائقنا ميشيل وأتذكر كلمات الطاقة الثلاث لديه. «فرقع»- والتي تعني تطبيق قوة عمياء (وعادة ما تكون النتائج كارثية)، و«ساوي بروفا» ثم «إيكونوميا»- التي تمثل المبدأ العام للاقتصاد الذي أودى بنا، في مرة سابقة، إلى نفاذ الوقود منا في قلب الصحراء.

وقبيل التقائنا، يخاطبني رجل تركي يرتدي زياً رسمياً بتجههم: «جواز السفر» ويأخذه بعيداً ويقفز إلى القطار.

ثم تتبادل التحيات وأصافح يد ميشيل المتينة فيقول لي: «بونجور، كيف حالك؟» ثم يحمد الله على سلامتي بالعربية. يلتقط بعض العمال الحقائب التي يلقيها سائق القطار من النافذة، فأبحث عن جواز سفري الذي اختفى تماماً مع التركي ذي الزي الرسمي.

عربة النقل ماري الزرقاء تنتظرنا بإخلاص. يفتح ميشيل بابها الخلفي فتلقني عيناي بأعين مألوفة. هنالك عدة دجاجات مقيدة

معاً بشكل غير مريح وصفائح بنزين وكتل من الخيش يتبين في نهاية المطاف أنها مخلوقات بشرية. توضع حقائبي فوق الدجاج والبشر ويذهب ميشيل كي يتفقد جواز سفره، فيمضي ماك في إثره خشية أن يمارس ميشيل «الفرقة» مورطاً إيانا في تعقيدات دولية لا قبل لنا بها. وبعد عشرين دقيقة، يعودان منتصرين.

تنطلق السيارة بنا وهي تصرّ وتترنج وتحشرج وتتقافز بين المطبات. تغادر تركيا إلى سورية كي نصل، بعد خمس دقائق، إلى مدينة القامشلي النامية.

لدينا الكثير من الأعمال التي علينا إنجازها سيراً على الأقدام قبل العودة إلى المنزل. نتوجه أولاً إلى متجر «هارودز» - أي مؤسسة السيد ياناكوس - هناك ألقى ترحيباً حاراً ويُقدم لي كرسي خلف درج النقود وتصنع القهوة من أجلي. ميشيل يعمل على شراء حصان سنربط به عربة نقل بها الماء من نهر جفجغ إلى موقع التنقيب في تل براك. لقد عثر ميشيل، كما يقول، على حصان ممتاز، حصان «إيكونوميا» للغاية. يسأله ماكس بارتيا، بأي معنى هذا الحصان «إيكونوميا». هل هو حصان جيد؟ حصان كبير؟ حصان ذو جلد؟ إذ إن دفع مبلغ إضافي صغير لقاء حصان جيد أفضل، على حد قوله، من الحصول على حصان بخس ورديء.

تغادر إحدى رزم الخيش سيارة النقل كي يتبين أنها الرجل الجلف الذي سيصبح السقاء وهو رجل يتمتع (على حد زعمه) بالخبرة في الخيول. ولذلك فهو ذاهب مع ميشيل كي يقدم تقريره عن الحصان. نشتره، في ذلك الوقت، فأكهة معلبة وزجاجات من نبيذ مشكوك في نوعيته وبعض المعكرونة وقدرراً من مربى الخوخ والتفاح وسواها

من أطايب السيد ياناكوس. ثم نتجه إلى مكتب البريد حيث نلاقي فيه صديقنا القديم، مدير المكتب ذا اللحية غير الحليقة بمنامته القذرة التي يبدو أنه لم يغسلها أو يستبدلها منذ السنة الماضية. نتسلم رزم صحفنا ورسالة أو اثنتين ونرفض ثلاث رسائل أخرى يفرضاها مدير المكتب علينا بإصرار وهي معنونة بخط يد أروبي ومرسلة إلى السيد تومبسون، ونذهب إلى المصرف.

بناء المصرف حجري وفسيح وخوا وهادئ للغاية والجو فيه لطيف. هناك مقعد في الوسط يجلس عليه جنديان وعجوز ذو لحية مخضبة بالحناء يرتدي أسماً جديرة بأن تكون موضوعاً للوحة فنية وصبي بملابس أوروبية ممزقة. هم جميعاً جالسون بسكينة يحدقون في الخواء ويصقون بين الفينة والأخرى. ويوجد في أحد الأركان سرير غامض تغطيه ملاءات قذرة. يستقبلنا بالترحاب كاتب يجلس خلف نضد. يقدم ماكس شيكاً لصرفه فيقودنا إلى مكتب *Monsieur le directeur*. والسيد المدير هذا ضخم الجثة، بشرته بلون القهوة ومهذار. يستقبلنا بكبير مودة ويطلب لنا القهوة. لقد حل هذا المدير، في السنة الماضية، مكان المدير السابق وهو حزين لذلك. فقد جاء إلى هنا من مدينة اسكندرون التي يوجد فيها، كما يقول، بعض الحياة! أما هنا! (يلوح بيديه إلى الأعلى)،

ثم «(on ne peut même pas faire un bridge!)»^(١٩). «لا»، ثم

يردف وقد تضاعف إحساسه بالألم،

«pas même un tout petit bridge».

١٩- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "فلا يستطيع المرء أن يلعب ولو قليلاً من البريدج" (المترجم)

(ملاحظة: ما الفرق بين *un tout petit bridge* و *un bridge*?)

أظن أن الأمر في الحالتين يتطلب وجود أربعة لاعبين).

تمضي نصف ساعة في الحديث في الوضع السياسي ووسائل الراحة (أو الانتقال إلى وسائل الراحة) في القامشلي، لكنه يقر أنه «*Mais tout de même on fait de belles constructions*»^(٢٠).

يبدو أنه يعيش في أحد هذه المنازل الجديدة. مبنى لا تتوفر فيه الإنارة الكهربائية أو الصرف الصحي أو وسائل الراحة الحضارية - لكن على الأقل *construction* -

«*une construction en pierre vous comprenez!*»^(٢١).

تستطيع المدام أن تشاهده في طريقها إلى شاغر بازار. أعدده أن ألقى نظرة عليه.

يتطرق النقاش إلى الشيوخ المحليين. فيقول إنهم سواء.

«*Des propriétaires- mais qui n'ont pas le sou!*»

وهم جميعاً غارقون في الديون.

يقاطعنا أمين الصندوق بين الفينة والأخرى باستمارات يوقعها ماكس ويسدد مبالغ صغيرة كالستين سنتيماً *pour les timbres*. تصل القهوة. وبعد أربعين دقيقة، يعود أمين الصندوق الضئيل وبرفقتة ثلاث وثائق أخيرة وطلب أخير هو

٢٠- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "على الرغم من أنه تبنى منشآت جميلة هنا" (المترجم)

٢١- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "مبنى من الحجر إن فهمتم قصدي!" (المترجم)

«Et deux francs, quarante cinq centimes pour les timbres, s'il vous plait»

وتختتم المراسم الأخيرة ويصبح بمقدورنا استلام المال.

«C'est à dire, si nous avons l'argent ici!»^(٢٢)

فيشير ماكس، ببرودة، إلى أنه قدم إشعاراً بنيته صرف شيك قبل أسبوع من الآن. فيهز أمين الصندوق كتفيه مبتسماً. «آه حسناً. سوف نرى». ولحسن الحظ يتبين أن كل شيء على ما يرام وأن المال قادم و *les timbres* ملصقة في مكانها فنستطيع المغادرة. ما يزال الأشخاص أنفسهم جالسين على المقعد وهم يحدقون في الفضاء ويصقون.

نعود إلى هارودز. السقاء الكردي في انتظارنا حيث يقدم إلى ماكس تقريراً عن الحصان - حسناً، لا يستطيع المرء أن يدعو حصاناً! إنه ليس بحصان على الإطلاق، بل امرأة عجوز - مجرد امرأة عجوز! بما يتطابق تماماً مع مفهوم "الإيكونوميا" لدى ميشيل. فيذهب ماكس لتفقد الحصان وأعود إلى كرسي خلف درج النقود.

يروح السيد ياناكوس الصغير عني بحوار أخرج يتناول الأحداث العالم. يقول «Votre roi». «-vous avez un nou- Votre roi». أوافق على أننا حصلنا على ملك جديد. ثم يكافح السيد ياناكوس كي يعبر عن أفكار تتجاوز في تعقيدها حصيلته اللغوية. «Le Grand roi- Plus grand roi dans», يقول. «roi d'Angleterre tout monde- aller- comme ça» وينفذ حركة معبرة، «pour une femme!». الأمر يفوق طاقته. «! Pour une femme». لا، إنه أمر لا

٢٢- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أي إن كان لدينا المال هنا!" (المترجم)

يصدق. هل من المعقول أن تتمتع المرأة في إنكلترا بهذه الأهمية؟ ثم يردد بنبرة ذهول «*le plus grand roi au monde*»^(٢٣).

يعود ماكس والرجل الكردي وميشيل. لقد سقط اقتراح ميشيل على الفور بالتصويت وتلقى تقريراً شديداً، لكنه استعاد رباطة جأشه على الفور. وهم الآن في طريقهم إلى الدخول في مفاوضات من أجل الحصول على بغل. يتمم ميشيل قائلاً إن شراء بغل سيكلف مبلغاً باهظاً. فيقول الكردي إن البغل حيوان نافع على الدوام. هكذا ينطلق ميشيل والكردي بحثاً عن امرأة يعرف زوج ابنة عمها الثانية رجلاً لديه بغل للبيع.

يظهر مدبر منزلنا الأبله منصور بصورة مفاجئة. يشرق وجهه ترحيباً ويصافحني بحرارة. كان هو من تطلب تعلمه إعداد المائدة موسماً كاملاً - بل ما يزال حتى الآن يحضر شوفاً من أجل الشاي. أما ترتيب الأسرة فيشكل تحدياً كبيراً لقدراته العقلية. تتميز حركاته بالبطء والإصرار وهو يقوم بكل شيء على طريقة كلب تعلم خدعة جديدة بنجاح.

هل نرور بيت أمه (التي هي بمحض المصادفة غاسلة ملابسنا) كي نطلع على مجموعة من الأنتيكات؟

نذهب إلى هناك. الغرفة نظيفة ومزخرفة. نتناول القهوة للمرة الثالثة في ساعتين. يتم إحضار الأنتيكات وهي زجاجات رومانية صغيرة وكسر من الزجاج والخزف وعملات معدنية غريبة وكمية كبيرة من النفايات. يفرز ماكس هذه الأشياء إلى مجموعتين، يرفض

٢٣- يتحدث الشاب بفرنسية ركيكة عن حادثة تنازل الملك البريطاني إدوارد الثامن عن العرش عام ١٩٣٦ لإصراره على الزواج من امرأة أمريكية مطلقة (الترجم)

أولاهما ويعرض ثمناً للأخرى. تدخل إلى الغرفة امرأة يبدو أنها معنية بالأمر. تبدو مسألة أيهما سيسبق الآخر، إنجاز الصفقة أم ولادة توأميها أمراً قابلاً للنقاش. بل إنها قد تضع خمسة توائم بحسب ما يوحي مظهرها. تصغي المرأة إلى ترجمة منصور لما نقوله وتهز رأسها.

نغادر البيت عائدين إلى عربة النقل. ثم نمضي، وقد افتتحت مفاوضات شراء البغل بالفعل، كي نتفقد براميل الماء التي سيتم نقلها بواسطة العربة التي سيجرها البغل. يقع ميشيل، مرة أخرى، في مأزق جديد. لقد أوصى على برميل كبير لا تتسع له العربة ومن شأنه قتل أي حصان أو بغل. «لكن برميل ماء واحد أكثر إيكونوميا من برميلين صغيرين وسعته أكبر!»، يقول ميشيل منتحياً. فيجيبه ماكس قائلاً إنه أحق لعين وإنه سيلتزم في المستقبل بما يقال له. فيتمتم برجاء «ساوي بروفا؟» لكنه يحرم حتى من تحقيق هذه الأمنية الصغيرة.

ثم نقابل الشيخ - صديقنا القديم - يبدو الآن، بلحيته المصطبغة بالحناء، شبيهاً بهنري الثامن أكثر من أي وقت مضى. يرتدي جلبابه الأبيض المعهود وقد لف جسده بعباءة خضراء بلون الزمرد. يبدو مزاجه طيباً للغاية، لأنه يبلغنا بنيته زيارة بغداد خلال وقت قصير على الرغم من أن استصدار جواز سفره يتطلب بضعة أسابيع بالطبع. ثم يقول لماكس: «أخي. كل مالي هو لك. بل إنني لم أثر بذرة واحدة هذا العام كي تكون الأرض رهن تصرفك». فيجيبه ماكس: «كم هي سعادتي كبيرة لأن الشهامة التي أبديتها صبت في صالحك. فالمحصول هذه السنة سيء للغاية وسيمنى كل من زرعوا أرضهم بخسائر كبيرة. سوف يهنئك الجميع على فطنتك».

هكذا، يفترق الرجلان على وفاق، وقد نالت المجاملات نصيبها.

فنقفز إلى ماري الزرقاء ويفرغ ميشيل حملاً من البطاطس والبرتقال
فوق صندوق قبعتي فيسحقه وتصيح الدجاجات احتجاجاً. يرجونا
العديد من العرب والأكراد أن نقلهم معنا، فنوافق على اصطحاب
أثنين، فيحشران نفسيهما بين الدجاج والبطاطس والأمتعة. وننطلق
إلى شاعر بازار.

الفصل السابع

الحياة في شاغر بازار

المح من بعيد، بكثير من الإثارة، منزلنا. إنه ينتصب هناك بقبته
فيبدو كمقام مكرس لأحد الأولياء الصالحين!

يخبرني ماكس أن الشيخ فخور للغاية بهذا المنزل. إذ يطوف
حوله، بين الفينة والأخرى، مع أصدقائه بإعجاب. بل إن ماكس
يظن أن الشيخ يجمع المال بواسطته تحت زعم أن المنزل له وأنا مجرد
مستأجرين.

تتوقف ماري الزرقاء أمام المنزل بفرامل ميشيل العنيفة (فرقع!)
المعهود ويسارع جميع من في الداخل إلى الخروج للترحيب بنا.
هنالك وجوه قديمة وأخرى جديدة.

دمتري الطاهي هو نفسه بوجهه الطويل اللطيف الذي يوحى
بالأمومة. يرتدي سروالاً من قماش المسلمين عليه رسوم أزهار تشع
بهجة. يمسك يدي ويضعها على جبهته ثم يريني بفخر صندوقاً
خشيباً فيه أربعة جراء حديثة الولادة قائلاً إنها ستصبح، في المستقبل،
كلاب حراستنا. هناك، كذلك، الفتى علي الذي كان، بدوره، معنا
في السنة الماضية. إنه الآن يشعر بشيء من التفوق مع استخدام مساعد
طاه آخر أقل مرتبة اسمه فرheid. ليس هناك الكثير مما يمكن قوله عن

فرهيد باستثناء أن هناك، على الدوام، ما يجعله قلقاً. لكن ماكس يؤكد لي إنها طبيعة متأصلة في فرهيد.

لدينا الآن مدبر منزل جديد اسمه صبري. وهو طويل القامة ومتين البنيان ويبدو عليه الذكاء الشديد. يكشر كاشفاً عن أسنان بيضاء وذهبية منضدة بتناسق.

يجهز الكولونيل وبامبس الشاي من أجلنا. يقوم الكولونيل بكل شيء بانضباط عسكري. فقد أرسى نظاماً جديداً يكون على الرجال بموجب الاصطفاف بانتظام عند استلام البقشيش. هم يرون في الأمر نكتة كبيرة. أما الكولونيل، فينفق الكثير من الوقت على ترتيب الرتل. وقد وجد في الأيام التي سافر فيها ماكس إلى القامشلي فرصته الكبرى. إذ يعلن بفخر أن المنزل أصبح الآن دقيقاً كدبوس جديد. فكل ما له مكان أصبح في مكانه والكثير من الأشياء التي لم يكن لها من مكان صار لها مكان الآن! إلى درجة سوف تتسبب بكل أنواع الإزعاجات!

أما بامبس فهو معمارينا الجديد. ولقبه هذا مشتق من ملاحظة بريئة أبقاها للكولونيل أثناء رحلتها. فقد رفع بامبس ستائر نافذة القطار أثناء اقترابه من نصبيين مع شروق الشمس ونظر باهتمام إلى البلاد التي سوف يمضي فيها الأشهر القليلة القادمة.

«كم هو مثير للفضول هذا المكان. الكدمات في كل مكان!»^(٢٤).

فيصرخ الكولونيل: «كدمات؟ ألا تدرك، أيها الزميل غير الموقر، أن

٢٤- الترجمة الإنكليزية لكلمة كدمة هي *bumps*. ومن هنا جاء لقب المهندس المعماري *bumps* أي كدمات (الترجم)

كل كدمة من هذه الكدمات هي مدينة تعود إلى آلاف من السنين؟».

منذ تلك اللحظة، التصق لقب بامبس بصاحب التعليق!

هنالك مقتنيات جديدة يجب أن نلقي عليها نظرة. لدينا، أولاً، سيارة سيتروين مستعملة يطلق الكولونيل عليها اسماً هو بيلو.

يتبين، مع مرور الوقت، أن بيلو سيد في غاية المزاجية. فهو، لسبب أو لآخر، يختار الكولونيل كي يسيء التصرف معه، فيرفض الاشتغال بعناد أو يتعطل في مكان غير مناسب.

لكن حل هذا الغموض يهبط علي، ذات يوم، كالوحي فأشرح للكولونيل أن الخطأ خطأه.

«ما الذي تعنيه بكلمة خطئي؟»

«ما كان عليك أن تسميها بيلو. فإن كانت سيارة النقل لدينا قد بدأت باسم هو كوين ماري، فإن أقل ما كان يمكنك فعله هو أن تناديها باسم الإمبراطورة جوزيفين. فلو أنك فعلت ذلك، لما عانيت من المتاعب!».

يقول الكولونيل، بما هو عليه من روح الانضباط، إن الوقت قد فات على كل حال. فبيلو هو بيلو وعليه أن يعلم نفسه حسن السلوك. أرمق بطرف عيني بيلو الذي يبدو وكأنه يراقب الكولونيل باستهتار ويساورني إحساس قوي أن بيلو يفكر في ارتكاب أخطر الجرائم العسكرية - العصيان!

بعد ذلك، يسارع رؤساء العمال كي يرحبوا بنا. يبدو يحيى ككلب سعيد أكثر من أي وقت مضى. أما علاوي، فوسيم للغاية كما هو على الدوام في حين أنه يوجد لدى العجوز عبد السلام الكثير ليقوله.

أسأل ماكس عن حَال الإمساك الذي يعاني منه عبد السلام،
فيجيبني أن معظم الأمسيات خصصت لنقاشات مضية حول هذا
الشأن!

ثم نمضي إلى غرفة الأنتيكات. كانت حصيلة الأيام العشرة الأولى
من العمل وفيرة وأدت إلى اكتشاف حوالي مائة رقيم فأحس الجميع
بالبهجة. سوف نبدأ، التنقيب في تل براك، كما في شاغر بازار، في
غضون أسبوع من الآن.

أشعر، لدى عودتي إلى البيت في شاغر بازار، وكأنني لم أغادره
قط، على الرغم من أن المنزل يبدو الآن، بفضل ولع الكولونيل
بالنظام، أكثر ترتيباً بكثير من أي يوم مضى. وهو أمر يذكرني بقصة
أجبان كامامير الحزينة.

فقد اشترى ماكس ست قطع من جبن كامامير من حلب وفي ظنه
أنه يستطيع التعامل مع هذا النوع من الجبن كما يعامل الجبن الهولندي
وأنه يستطيع تخزينه كما يشاء. أكلت قطعة واحدة من الجبن قبل
وصولي، ثم قام الكولونيل، الذي وقع، أثناء ترتيب المنزل، على
القطع الخمس الباقية، بتكديسها بإتقان خلف خزانة في غرفة المعيشة.
وهناك، اكتسبت قطع الجبن هذه طبقة من ورق الرسم وورق الآلة
الكاتبة ورماد السجائر، الخ... وذبلت في الظلام وأصبحت طي
النسيان وغير مرئية، وإن لم تكن غير مستنشقة إن جاز القول.

إذ لم يمض أسبوعان حتى بدأنا، جميعنا، نشم ونخمن.

« لست واثقاً أنه ليس لدينا أي مصارف للمياه»، قال ماكس.

«ثم إن أقرب خط للغاز يبعد عنا مائتي ميل».

«لذلك أظن أنه لا بد أن يكون فأراً ميتاً».

«بل جرذ ميت على أقل تقدير!».

أصبحت الحياة في الداخل لا تطاق، فأطلقنا عملية بحث دؤوب عن الجرذ المتفسخ المزعوم. عندها، وعندها بالذات، اكتشفنا كتلة هلامية كريهة الرائحة كانت، ذات يوم، خمس قطع من جبن كامامبير، تجاوزت المرحلة السائلة إلى المرحلة الغازية.

تتجه نظرات الاتهام إلى الكولونيل على الفور ونعهد بالبقايا المروعة إلى منصور كي يدفنها في مكان بعيد عن بيتنا. ثم يشرح ماكس للكولونيل بانفعال كيف أن هذه الحادثة تؤكد له ما كان يعرفه على السدوام - وهو أن التنظيف خطأ كبير! فيرد الكولونيل قائلاً إن التنظيف، بحد ذاته، لا عيب فيه والدليل على ذلك هو أن تنظيف البيت من قطع الجبن فكرة حسنة وأن الخطأ يكمن في سهو علماء الآثار الذين لا يتذكرون أن لديهم جبن كامامبير في البيت. أما أنا فأقول لهما إن الخطأ الحقيقي هو شراء جبن كامامبير ناضج بكميات كبيرة وتخزينه! ويتساءل بامبس عن المغزى من شراء جبن كامامبير أصلاً. فهو لم يستسغ هذا النوع من الجبن يوماً! في حين يمضي منصور ببقايا الجبن بعيداً ويدفنها بامتثال، لكنه في الواقع يشعر بالحيرة. يبدو أن الخواجات يحبون هذه الأشياء لأنهم دفعوا مبلغاً كبيراً من المال لشرائها. لكن لماذا يتخلصون منها عندما تصبح مزاياها الجيدة أكثر ظهوراً مما كانت عليه من قبل؟ لا بد أن ذلك جزء من العادات الاستثنائية للمخدومين!

تختلف مشاكل الخدم في حوض الخابور عن مثيلاتها في إنكلترا. يمكنك القول إن الخدم هنا يعانون من مشكلة اسمها المخدوم!

فنزواتنا وآراؤنا وما نحب وما نكره غريبة للغاية وهي، بالنسبة إلى العقل المحلي، لا تتبع أي نسق منطقي.

فهناك، على سبيل المثال، أنواع متعددة من قطع القماش ذات نقوش مختلفة وألوان حواف مختلفة تستخدم كل منها لغاية محددة. فلم كل هذا الترتيب؟

ولماذا، عندما يستخدم منصور منديل مائدة ذا إطار أزرق في إزالة الطين عن مبرد السيارة، تخرج خاتون غاضبة من المنزل وتمطره باللعنات وقد أزلت قطعة القماش هذه الطين بنجاح منقطع النظير؟ ثم تتميز غضباً دون سبب وجيه عندما تدخل إلى المطبخ وتكتشف أن أدوات الطعام تجفف بعد تنظيفها بقطعة قماش؟

فيحتاج منصور محاولاً تبرئة نفسه: «لكنني لا أستخدم قماشاً نظيفاً في هذا الأمر. إنها مجرد قطعة قماش قدرة!».

بيد أن التبرير الذي يقدمه يزيد الطين بلة، على ما يبدو، بشكل غير مفهوم على الإطلاق.

وعلى الصورة نفسها، يصبح ابتكار المدنية أدوات المائدة، بالنسبة إلى خادم قلق، مصدر الصداع مزمن.

لقد راقبت منصور، أكثر من مرة، من خلال الباب، وهو يحاول، بكثير من العصبية، تنسيق المائدة من أجل الغداء.

يقوم، أولاً، بترتيب غطاء الطاولة - ويختبر في هذا الأمر مختلف الأساليب الممكنة ويتراجع إلى الخلف، في كل مرة كي يحدد الأسلوب الأفضل من الناحية الجمالية.

ثم يختار، بصورة لا يحيد عنها، أن يمد الغطاء على عرض الطاولة

بحيث يتدلى بأناقة من جانبيها الطوليين ويتكشف جزء من سطحها على طول بوصة أو بوصتين من جهة الرأسين. ويهز رأسه راضياً ثم ترسم علامات التجهيم على جبهته ويحدق في سلة من القش شبه متأكلة اشتراها أحدهم بثمان زهيد من بيروت تضطجع فيها أدوات المائدة بانسجام.

وهنا، نصل إلى لب المشكلة. يستجمع منصور طاقاته العقلية ويضع، بكل الحرص الواجب، شوكة على صحن كل فنجان وسكيناً إلى يسار كل طبق. ثم يراجع إلى السوراء ويميل رأسه إلى أحد الجانبين كي يدرس النتيجة. ويهز رأسه ويتنهد. هنالك، على ما يبدو، ما ينبئه أن هذا الترتيب غير صحيح. وهنالك، على ما يبدو كذلك، أمر ينبئه أنه لن يتقن المبدأ الحاكم للتشكيلات المختلفة التي يمكن تركيبها من الأشياء الثلاثة التي هي السكين والشوكة والملقعة. بل إن الترتيب الذي يعتمد في توزيع الشوكات من أجل الشاي، الذي هو أكثر الوجبات بساطة، لا يلقي القبول. إذ أننا نطلب، لسبب ما عصي على الفهم، سكيناً، في حين لا يوجد ما يستوجب تقطيعه! الأمر ببساطة شديدة بلا معنى.

بهذه الطريقة ينفذ منصور مهمته المعقدة محتتماً إياها بتنهيدة عميقة. لكنه اليوم، بالتحديد، عازم على إرضائنا. فيلقي نظرة أخرى على المائدة. ويضيف شوكتين إلى يمين كل طبق وملقعة أو سكيناً إلى يساره. ثم يأخذ نفساً عميقاً ويضع الأطباق في مكانها وينحني فوقها وينفخ بقوة كي يزيل أثر أي غبار قد يكون عالقاً بها. ويغادر الغرفة مترنحاً نتيجة للمجهود الذهني الذي بذله ويعلم الطاهي أن المائدة جاهزة وأنه يستطيع أن يخرج العجة من الفرن الذي أبقاها فيه على

مدى الدقائق العشرين الأخيرة كي تحتفظ بحرارتها وتكتسب طبقة قاسية وشهية.

عندئذ، يتم إرسال فرهد في طلبنا، فيصل إلينا ونظراته تشي بالقلق وكأنه على وشك إبلاغنا بوقوع كارثة، فنتنفس الصعداء عندما يبلغنا إن العشاء جاهز.

نتناول هذه الليلة كافة الأطباق التي يعتبرها ديمتري الأكثر رقياً. فنبداً بالمقبلات التي تتضمن بيضاً مسلوقاً مطهواً بالمايونيز الغني وسمك السردين والفاصولياء الباردة والرنة. ثم يقدم لنا الطبق الذي يمتاز به ديمتري وهو كتف (؟) الضأن المحشو بالرز والزبيب والتوابل. وهذا الطبق حافل بالغموض. إذ يوجد خيط قطني طويل عليك أن تقطعه أولاً ثم تستطيع، بعد ذلك، الحصول على أجزاء من الحشوة بسهولة، أما اللحم الفعلي فيفلت منك، قبل أن تكتشف الضأن الفعلي، وقد أوشكت على الانتهاء من الطبق ووصلت إلى شريحة اللحم المغلفة للحشوة! ثم نتناول الكمثرى المعلبة. إذ يحظر على ديمتري أن يصنع الحلوى الوحيدة التي يتقنها ونبغضها جميعاً، وهي الكريم كاراميل. وبعد العشاء، يعلن الكولونيل، باعتزاز، أنه علم ديمتري صنع فاتح شهية.

توزع علينا أطباق في كل طبق منها شريحة صغيرة من الخبز العربي المطهو بالدهن الحار مذاقها كالجبن إلى حد ما. ففاتح للكولونيل بأن فاتح شهيته هذا لا يروق لنا كثيراً!

ثم توضع على الطاولة بعض الحلويات التركية وفاكهة مجففة لذيدة من دمشق. وفي تلك اللحظة، يصل الشيخ في زيارة مسائية. كان قرارنا التنقيب في شاغر بازاز قد غير حاله بصورة جذرية من رجل مفلس

بصورة لا رجاء فيها إلى رجل يمكن للذهب أن ينهمر عليه كالشلال في أية لحظة. لقد اقتنى لنفسه، بحسب روايات رؤساء العمال، زوجة أيزيدية حسناء، مستغلاً الوضع الجديد، وازدادت ديونه بشكل هائل نتيجة حصوله على قرض جديداً معنوياته مرتفعة بالتأكيد. وهو، كالعادة، مدجج بالسلاح. ينزع بندقيته بلا مبالاة ويعلقها في إحدى الزوايا ويسهب في شرح مزايا المسدس الأوتوماتيكي الذي اشتراه للتو.

يقول: "أترى؟"، مسدداً فوهة المسدس إلى الكولونيل. "الآلية هي هكذا- ممتازة وبسيطة. تضع إصبعك على الزناد بهذا الشكل وتخرج الرصاصات الواحدة تلو الأخرى".

يسأله الكولونيل بصوت مخنوق إن كان المسدس محشواً.

إنه محشو بالطبع، يجيبه الشيخ بدهشة: ما نفع المسدس إن لم يكن محشواً؟

فيغير الكولونيل، الذي يحمل خوفاً عسكرياً مبرراً من الأسلحة المحشوة المسددة باتجاهه، مكان جلوسه على الفور ويحاول ماكس إلهاء الشيخ عن دميته الجديدة عارضاً عليه الحلوى التركية. فيخدم الشيخ نفسه بسخاء ثم يمص أصابعه بإعجاب ويطوف ببصره علينا وقد أشرق وجهه.

آه، يقول وقد لاحظ انشغالي بالكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز. "خاتونك تقرأ إذن؟ لكن هل تكتب كذلك؟" يجيبه ماكس بالإيجاب.

فيقول الشيخ بإعجاب: "يا لها من خاتون متعلمة. وهل تصف

العقاقر للنساء؟ إن كانت كذلك، فسوف تأتي زوجاتي إليها ذات مساء كي يشرحن لها آلامهن“.

فرد ماكس إن زوجات الشيخ مرحب بهن لكن هذه الخاتون لا تفهم الكثير من اللغة العربية لسوء الحظ.

فيهدف الشيخ: ”ستدبر الأمر، ستدبر الأمر“.

ثم يستعلم ماكس منه عن رحلته إلى بغداد.

فيقول الشيخ: ”لم يجر الترتيب لها بعد. هنالك الكثير من الصعوبات والشكليات“.

يتابنا شك كبير في أن الصعوبات ذات طبيعة مالية. إذ أن هنالك شائعات تقول إن الشيخ أنفق كل المال الذي تلقاه منا بالإضافة إلى الخوة التي تقاضاها من عمال قريته.

ثم عوداً على بدء: ”في أيام البارون...“.

لكن ماكس يتحايل عليه قبل أن يأتي على ذكر الذهب بسؤاله عن الإيصال الرسمي بمبلغ الستين ليرة سورية الذي ناله الشيخ. ”سوف تطلبه الحكومة“.

فيغير الشيخ الحديث على الفور ويتحدث عن صديق عزيز وقريب يقف في الخارج وعينه في حالة سيئة. فهلا خرجنا وألقينا نظرة عليها وقدمنا له النصح؟

نخرج في الظلام ونتفحص العين بالاستعانة بنور كشاف. لا شك أن الأمر يفوق طاقتنا. فالعين في حال سيئة للغاية. هكذا عين يجب أن يراها طبيب، يقول ماكس. ثم يضيف وبأسرع ما يمكن.

يهز الشيخ رأسه. سيذهب صديقه إلى حلب. فهل لنا أن نعطيه

رسالة للدكتور ألتونيان هناك؟ يدي ماكس موافقته ويبدأ في كتابة الرسالة ثم يتوقف قليلاً ويسأل: "هل قلت إن هذا الرجل قريب لك؟" "نعم".

فيسأله ماكس وهو ما يزال يكتب: "اسمه؟".

يكرر الشيخ السؤال وقد أخذ على حين غرة: "اسمه؟ لا أعرف. علي أن أسأله".

يختفي الشيخ في الظلام من جديد ثم يعود بالمعلومات المتعلقة باسم قريه وهو محمد حسن.

يقول ماكس وهو يكتب: "محمد حسن".

ثم يسأله الشيخ: "أم أن المطلوب هو اسمه على جواز السفر؟ اسمه على جواز السفر هو داوود سليمان".

ينظر ماكس إليه بحيرة ويسأله عن الاسم الفعلي للرجل.

فيجيبه الشيخ بسخاء: "سمه ما شئت".

يستلم الشيخ الرسالة ويستعيد تجهيزاته الحربية ويباركنا بحرارة ويغيب مع تابعه الغامض في الظلام الدامس.

يبدأ الكولونيل وبامبس نقاشاً حول الملك إدوارد الثامن والسيدة سيمبسون، يليه نقاش آخر حول الزواج بشكل عام سيفضي، بالضرورة، إلى موضوع الانتحار!

عند هذه النقطة أغادرهما وأذهب إلى النوم.

تهب رياح قوية هذا الصباح. تتصاعد قوتها حتى تتحول إلى عاصفة ترابية في منتصف اليوم. يعاني بامبس الأمرين مع قبعته التي

أحضرها معه إلى التل وسط الريح العاصفة قبل أن ينتهي الأمر به،
أخيراً، إلى تعليقها حول عنقه. وهنا، يهب ميشيل، باندفاعه المعهود
لمساعدة الغير، لنجدته.

ويقول وهو يشد حزام القبعة بقوة: ”فرقع“.

فيستحيل لون وجهه بامبس قرمزيًا وهو يختنق ببطء.

ثم يقول ميشيل بمرح وهو يشد الحزام بقوة أكبر: ”*Beaucoup*
forca“ ويصبح وجهه بامبس أسود. ويتم إنقاذه في اللحظة الأخيرة!
ينشب شجار حاد بعد العمل بين علاوي ذي المزاج الحامي ونجارنا
سركيس. وكما هي العادة، ينشب الخلاف من لا شيء على الإطلاق،
لكنه يبلغ مستويات قاتلة.

وهنا يضطر ماكس إلى تقديم واحدة مما يدعوها ”خطبه المدرسية“.
يقول إن ممارسته لدور مدير المدرسة تزداد إتقاناً من يوم إلى يوم،
وتندفق منه المواعظ الأخلاقية الباعثة على الغثيان بسهولة ويسر!
الخطبة التي يلقيها مثيرة للإعجاب.

يسألها ماكس: ”هل تتصوران أن أفكاري وأفكار الخواجة
الكولونيل وأفكار خواجة عصا المساحة متوافقة باستمرار؟ وأنا لا
نرغب في أن نختلف أحياناً؟ لكن هل نرفع أصواتنا ونصرخ ونشهر
السكاكين؟ لا! إننا نلقي كل تلك الأشياء خلف ظهورنا حتى نعود
إلى لندن! أما هنا، فنضع العمل في المقام الأول. في المقام الأول على
الدوام! ونضبط مشاعرنا!“.

يشعر علاوي وسركيس بتأثر بالغ ويسويان الخلاف بينهما ويبديان
كياسة في مسألة من منهما يخرج من الباب أولاً، بطريقة تمس شغاف
القلوب وتحلو متابعتها!

يأتي أحد العمال إلى ماكس طالباً إجازة لأربعة أيام. وما حاجته إلى إجازة مدتها أربعة أيام؟ يقول، كني يذهب إلى السجن!

اشترينا دراجة هوائية، دراجة هوائية يابانية زهيدة الثمن. وسوف تصبح هذه الدراجة ملكاً لعلي الصغير ومبعث فخره وسيستخدمها في الذهاب إلى القامشلي مرتين في الأسبوع من أجل إحضار البريد. يغادر علي في الصباح الباكر وملوّه الإحساس بالأهمية والسعادة ويعود مع حلول ساعة تناول الشاي.

أقول لماكس بارتياح إن المسافة طويلة. فالقامشلي تبعد أربعين كيلومتراً عن هنا. أجري بعض الحسابات الذهنية السريعة وأتمت "خمسة وعشرون ميلاً— وخمسة وعشرون ميلاً إياباً" ثم أضيف برعب: "ربما يعجز الصبي عن القيام بالرحلة. إنها بعيدة جداً عليه". فيقول ماكس (بقلب متحجر برأيي الشخصي): "آه، لا أظن ذلك". فأتمت: "لا بد أن يكون منهكاً". وأغادر الغرفة بحثاً عن علي المستنزف، فلا أجد له أثراً.

وأخيراً، يفهم ديمتري ما أتحدث عنه.

علي؟ لقد عاد علي من القامشلي منذ نصف ساعة. وأين هو الآن؟ لقد ذهب بالدراجة إلى قرية جيرماير الواقعة على بعد ثمانية كيلومترات لزيارة صديق.

يتلاشى قلقي على علي بسرعة ولاسيما عند رؤيتي له واقفاً أمام المائدة في وقت العشاء بوجه مشرق لا تبدو عليه آثار التعب.

بمازحني ماكس متمتماً بإيجاز: "تذكري سويس ميس".

فتداعى أفكاري إلى زمن سويس ميس.

وسويس ميس هذه كانت واحدة من خمسة جراء هجينة من تنقينا الأول في الأريجية بالقرب من الموصل. تمتعت هذه الجراء بأسماء (أو بالأحرى فرضت عليها أسماء) على شاكلة وولي بوي، بوجي، وايتفانغ، وتومبوي وسويس ميس. ماتت بوجي صغيرة بسبب إفراطها في تناول الكليجة، وهي نوع من المعجنات الثقيلة على نحو خاص يتناوله أبناء الطوائف المسيحية في عيد الفصح. فقد أحضر عمالنا المسيحيون بعض الكليجة من أجلنا وتحول الأمر إلى مصدر للحرج. هكذا أطعمنا بوجي، خفية، ما بقي من الكليجة، التي عانينا، نحن أنفسنا، من نتائجها ناهيك عن عسر الهضم الشديد الذي أصاب فتاة بريئة كانت ضيفة لدينا إثر تناولها كمية كبيرة منها مع الشاي. لكن بوجي دبت إلى الشمس في الخارج، وهي تكاد لا تصدق حسن طالعها، والتهمت غذاءها الغني وماتت على الفور! كان موتاً بفعل النشوة - فيه الكثير مما تحسد عليه! احتلت سويس ميس، دوناً عن الجراء الأخرى، مكانة مميزة لدى السيد. فقد كانت تأتي إلى ماكس في ساعة المغيب مع انتهاء العمل فيقوم بتنقيتها من القراد بعناية. بعد ذلك، تصطف الكلاب أمام المطبخ بانتظام، وسويس ميس في المقدمة، وتتقدم، الواحد تلو الآخر، عندما ينادى عليها كي تتلقى عشاءها.

ثم كسرت سويس ميس ساقها في مغامرة ما وعادت وهي تعرج وقد صارت مريضة للغاية. لكنها لم تمت على كل حال. وعندما حان موعد مغادرتنا الموقع، أثقل مصير سويس ميس كاهلي. فكيف لها أن تعيش بعد رحيلنا وهي على هذه الحال من العرج؟ نافحت أن الأمر الوحيد الواجب هو أن نأخذها بعيداً عن هذا المكان. إذ لا يمكن لنا أن ندعها هنا كي تموت جوعاً. لكن ماكس لم يلق بالألماً

قلت، بل طمأنني بتفاؤل أن سويس ميس ستكون على خير ما يرام. فقلت نعم، قد يصح ذلك بالنسبة للكلاب الأخرى، لكن سويس ميس معاقبة.

تعمق الجدال وازداد حدة. لكن ماكس خرج في النهاية منتصراً، فغادرنا الموقع بعد أن نفحنا البستاني العجوز مبلغاً من المال داعين إياه إلى ”رعاية الكلاب ولاسيما سويس ميس“، لكن دون كبير أمل في أنه سيقوم بذلك. طاردتني المخاوف حول مصير سويس ميس على مدى العامين التاليين وكنت ألوم نفسي باستمرار على عدم اتخاذي موقفاً صارماً. وعند مرورنا التالي بالموصل، ذهبنا إلى بيتنا القديم كي نلقي عليه نظرة. كان البيت خاوياً ولا أثر لحياة فيه. فتمتت لماكس قائلة: ”أساءل عما حل بسويس ميس“.

وفجأة سمعنا صوت زججرة. كان هنالك كلب جالس على الدرج - كلب مخيف في الواقع (لم تكن سويس ميس جميلة حتى عندما كانت جرواً). ثم نهض الكلب ورأيته وهو يعرج. ناديناها سويس ميس باسمها فاهتز ذيلها قليلاً لكنها استمرت في الزججرة. ثم، ومن وسط الشجيرات، ظهر جرو صغير وجرى مسرعاً إلى أمه. لا بد أن سويس ميس عثرت لنفسها على زوج وسيم لأن الجرو كان جميلاً للغاية. رمقنا الأم وابنها برباطة جأش وإن لم تتعرف إلينا بحق.

فقال ماكس بلهجة الظفر: ”أترين؟ لقد قلت لك إنها ستكون على ما يرام. وإلا كيف تفسرين بدانتها. سويس ميس ذكية ولذلك كان لا بد أن تنجو. فكري في الأوقات الممتعة التي كانت لتفوتها لو أننا أخذناها بعيداً!“.

لم نشتر البغل في النهاية. بل اقتنينا حصاناً، حصاناً حقيقياً، لا

امرأة عجوزاً، بل حصاناً كبيراً، أميراً بين الخيول. ومع الحصان جاء رجل شركسي لا يمكن فصله عن الحصان على ما يبدو.

”يا له من رجل!“، يقول ميشيل وهو ينوح بإعجاب. ”الشركس يعلمون كل شيء عن الخيول. إنهم يعيشون من أجل الخيول. يا لها من رعاية، ويا له من اهتمام ذاك الذي يوليه هذا الرجل لحصانه! إنه لا يكف عن الاهتمام براحته. ثم كم هو مهذب! يا لسلوكه الطيب معي!“.

بيد أن ماكس لا يبدي أي انبهار مؤكداً أن الزمن وحده كفيل بإظهار ما إذا كان الرجل جيداً. ثم يتم تقديمه لنا. شعره طليق ويتعل حذاءً عالياً. بما يذكرني، في بعض جوانبه، براقصي الباليه الروس.

يزورنا اليوم زميل فرنسي من بعثة مدينة ماري. ويأتي بصحبته مهندس المعماري الذي يبدو، كالكثيرين من المعماريين الفرنسيين، أشبه بقديس رديء. لديه واحدة من تلك اللحى الضعيفة العصية على الوصف وهو لا يقول شيئاً باستثناء ”*Merci, Madame*“ بلهجة رفض مهذب لكل ما يقدم له. ثم يشرح لنا السيد بارو معاناته المستمرة مع معدته.

يغادر الرجلان بعد زيارة ممتعة ونعبر له عن إعجابنا بسيارته. فيقول السيد بارو بحزن:

«*Oui, c'est une bonne machine, mais elle va trop vite.*

Beaucoup trop vite». ويضيف: «*L'année dernière elle a tué deux de mes architectes!*»^(٢٥).

٢٥- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: ”نعم هي آلة جيدة بالفعل لكنها تسير بأسرع مما ينبغي، بأسرع مما ينبغي بكثير. لقد قتلت اثنين من مهندسي المعماريين في السنة الماضية“ (المترجم)

ثم يركبان السيارة ويجلس المعماري الشبيه بالقديسين خلف المقود ويقلعان على نحو مفاجئ بسرعة ستين ميلاً في الساعة، مخلفين عاصفة من الغبار، وسط الحفر والمطبات ويتلويان في دروب القرية الكردية. من الواضح أن معمارياً آخر لم يردعه مصير سلفه سيقع ضحية السرعة الكبيرة لهذه الآلة. واللائمة تقع، بلا ريب، على السيارة! لا على الرجل الذي تضغط قدمه على دواسة السرعة.

الجيش الفرنسي يجري مناورات الآن. وهو أمر يستثير الكولونيل الذي تستيقظ اهتماماته العسكرية من سباتها في الحال. لكن الضباط الذين يخاطبهم يقابلونه ببرود شديد وينظرون إليه بشك. أخبره أنهم يظنون أنه جاسوس.

فيتساءل الكولونيل بسخط: «جاسوس؟ أنا؟ كيف لهم أن يفكروا بذلك؟»

«حسناً. من الواضح أنهم فكروا بذلك».

«كل ما فعلته أنني طرحت عليهم بضع أسئلة بسيطة. هذه الأمور مثيرة للاهتمام من الناحية التقنية. لكن ردودهم ملتبسة للغاية».

كم إن الأمر مخيب للكولونيل المسكين الذي يتوق للتحديث في الشؤون العسكرية لكنهم يردونه على أعقابه بحزم.

وتثير المناورات قلق عمالنا، كذلك، وإن بطريقة مختلفة تماماً. إذ يصل رجل وقور ملتجئ إلى ماكس.

«هل سيتدخل العسكر في تجارتي يا خواجه؟»

«لا، بالتأكيد لا. هم لن يتدخلوا في الحفر على الإطلاق».

«لا أقصد العمل يا خواجه، بل تجارتي الخاصة».

يسأله ماكس عن تجارتها، فيجيبه الرجل باعتزاز أنه يهرب السجائر! يبدو تهريب السجائر عبر الحدود العراقية علماً قائماً بذاته. إذ ما إن تدخل سيارة الجمارك إلى إحدى القرى في يوم ما، حتى يدخل المهربون إليها في اليوم التالي. يسأله ماكس إن كان رجال الجمارك يعودون مرة أخرى إلى أية قرية سبق لهم زيارتها. فيرقه الرجل بنظرة عتاب ويقول بالطبع لا. وإن فعلوا، فستكون الكارثة. بهذه الطريقة، يدخل الرجال سجائر كلفتها بنسان لكل مائة سيجارة!

يطرح ماكس على بعض الرجال أسئلة تتناول كلفة المعيشة. يحضر معظم من يأتون من القرى البعيدة كيساً من الدقيق يكفيهم عشرة أيام. ثم يقوم شخص ما من القرية بإعداد الخبز لهم لأنهم يعتبرون صنع الخبز بأنفسهم أدنى شأناً من مقامهم. كما يحضرون البصل حيناً والرز أحياناً أخرى وقد يحضرون حليباً رائباً. نكتشف، بعد جمع الأسعار، أن نفقات معيشة الرجل تبلغ بنسين أسبوعياً.

ثم يأتي عاملان تركيان ويطرحان، بقلق، بعض الأسئلة عن العسكر.

«هل سيثيرون المشاكل لنا يا خواجه؟»

«ولماذا يثيرون المشاكل لكما؟»

يبدو أنه لا يحق لهما عبور الحدود. بيد أن أحد عمال الحفر يطمئنهما قائلاً:

«سيكون الأمر على ما يرام. أنتما تضعان الكوفية».

تقابل القبعة في هذا الجزء من العالم بالضيق وصيحات السخرية من العرب والأكراد من ذوي الكوفيات الذين يشيرون بأصابعهم

بازدراء إلى الرجل التعس الذي يضع غطاء رأس أوروبي امتثالاً لأوامر مصطفى كمال، وهم يصيحون «تركي، تركي!».

يدخل فرheid بوجهه القلق مع انتهائنا من تناول طعام العشاء، ويبلغنا بنبرة مفعمة بالقنوط أن الشيخ أحضر زوجته كي يسألن خاتون النصح.

ينتابني شيء من التوتر. يبدو أن صيت حكمتي الطبية قد ذاع. وهو صيت غير مستحق بالتأكيد. لا تتردد المرأة الكردية في وصف أعراض مرضها لماكس بالتفصيل كي يترجمها لي. أما المرأة العربية الأكثر تواضعاً، فلا تأتي إلي إلا إن كنت وحدي، فيهيمن الإيماء على المشهد. يعتبر الصداع من الأمور التي يسهل وصفها وتلقى المريضة قرص الأسبيرين بخشوع. وفي حين يستطيع المرء أن يميز العين المتهبة بسهولة، إلا أن شرح كيفية استخدام أملاح البوريك أكثر صعوبة.

أقول: «مي حار» (أي ماء ساخن)

فتكرر: «مي حار».

ثم أقدم عرضاً عملياً باستخدام قرص من البوريك. «مثل هذا!». تليها حركة إيمائية ختامية تصف كيفية غسل العينين.

فترد المريضة بالتظاهر بشرب جرعة كبيرة، فأهز رأسي نفيماً. إنه للاستخدام الخارجي للعينين. فيخيب رجاء المريضة بعض الشيء. أن رئيس العمال يبلغني، بعد بضعة أيام، أن دواء الخاتون أفاد زوجة أبي سليمان كثيراً. إذ صنعت منه مغطساً لعينيهما ثم شربته كله، حتى آخر قطرة!

ويعتبر فرك المعدة من الحركات الإيمائية الأكثر شيوعاً.

وهذه الحركة تعني أمراً من اثنين: (أ) سوء هضم حاد، (ب) أو شكوى من العقم.

تبلي بيكاربونات الصوديوم بلاء حسناً مع الحالة الأولى، كما أنها حازت على سمعة مفاجئة بعض الشيء في التعامل مع الحالة الثانية. «كان لمسحوق خاتونك الأبيض في الموسم الماضي مفعول السحر! لقد أصبح لدي الآن ابنان قويان - توأمان!».»

بيد أن استعراض إنجازات الماضي لم يحل دون انكماش قليلاً أمام المحنة التي تنتظرنى. لكن ماكس يشجعني بتفاؤله المعهود. كان الشيخ قد أخبره أن زوجته تعاني من عينيها. إنها حالة بوريك نموذجية.

نساء الشيخ منقبات بالطبع، على العكس من نساء القرية. ولذلك أحمل مصباحاً إلى حيث ساعاين المريضة في مستودع صغير خاو.

ينس الكولونيل وبامبس ببضع ملاحظات سفيهة ويذلان كل ما في وسعهما لإزعاجي وأنا في طريقي إلى حجرة المعالجة.

يقف هناك، في عتمة الليل في الخارج، حوالي ثمانية عشر شخصاً. يزجر الشيخ مرحباً، بماكس بسرور ويلوح بيده لخيال منقب فارغ الطول.

ألقي عبارات الترحيب التقليدية وأتجه إلى المستودع الصغير على رأس خمس نساء، لا امرأة واحدة. النساء يشعرن بالكثير من الإثارة وهن يثرثرن ويضحكن.

يغلق باب المستودع علينا ويقف ماكس والشيخ في الخارج لتقديم ما قد يلزم من خدمات الترجمة.

أشعر، في مواجهة هذا العدد من النساء، بشيء من الارتباك. هل كلهن زوجات؟ وهل كلهن في حاجة إلى الرعاية الطبية؟

ثم ترفع النقب. واحدة من النساء فتية وطويلة القامة وجميلة للغاية. أتصور أنها قد تكون الزوجة الأيزيدية الجديدة التي اقتناها الشيخ بمقدم إيجار الأرض. أما الزوجة الرئيسية، فأكبر سنًا بكثير، وتبدو في الخامسة والأربعين من العمر وربما تكون في الثلاثين. وكلهن متزينات بالحلي ويبدون مرحات ويتمتعن بجمال كردي.

تشير المرأة التي هي في منتصف العمر إلى عينيها وتمسك وجهها. ليست هذه الحالة مما يمكن علاجه بأملح البوريك للأسف الشديد. إنها تعاني، إن أمكن القول، من نوع خبيث من أنواع تسمم الدم. أرفع صوتي مخاطبة ماكس. إنه تسمم. أظن أنه تسمم في الدم. يجب أن تذهب إلى طبيب أو مستشفى في دير الزور أو حلب كي تتلقى الحقن المطلوبة.

يترجم ماكس ما قلته للشيخ الذي يبدو كما لو أنه أغرم بهذا التشخيص. ثم يناديني ماكس:

«إنه معجب للغاية بكائك. هذا بالضبط ما قاله له أحد الأطباء في بغداد. وقد قال له الطبيب، هو أيضاً، أنها يجب أن تأخذ *des piqures*^(٢٦). أما وأنتك تقولين الأمر نفسه، فسيأخذ الشيخ هذا التشخيص على محمل الجد. وسوف يصطحب زوجته، في وقت ما، إلى حلب بالتأكيد».

أقول إنه يفعل حسناً إن أخذها في أقرب وقت ممكن.

٢٦- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: حقناً (الترجم)

هذا الصيف، يقول الشيخ، أو على أبعد حد، في الخريف. لا حاجة إلى العجلة. فكل شيء ممشية الله.

الزوجات الأصغر سناً، أو مهما يكن شأنهن، يفحصن ملابسهم بشغف ومرح. أعطي المريضة بعض أقراص الأسبيرين لتسكين ألمها وأنصحها باستخدام مغاطس الماء الساخن وما إلى ذلك. بيد أنها تبدو أكثر اهتماماً بمظهري منه بحالتها الصحية. أقدم لهن الحلويات التركية ونضحك جميعنا ونبتسم وتلمس كل منا ملابس الأخرى.

وأخيراً، تعيد النساء وضع النقاب آسفات ويغادرن. أما أنا، فأعود إلى غرفة المعيشة بأعصاب محطمة.

أسأل ماكس إن كان يظن أن الشيخ سيأخذها إلى المستشفى في وقت ما، فيجيبني ماكس إنه ربما لن يفعل.

يذهب ميشيل اليوم إلى القامشلي مع غاسلة الملابس ولائحة طويلة من المشتريات. وعلى الرغم من أن ميشيل لا يتقن القراءة والكتابة، إلا أنه لم ينس يوماً بنداً واحداً وهو قادر على تذكر الأسعار التفصيلية لكل مادة، ناهيك عن نزاهته التي تبلغ حدود الوسواس الأمر الذي يعوض عن الكثير من سجاياه المزعجة الأخرى التي يمكنني أن أضعها في لائحة بالترتيب التالي:

صوته المنتحب ذو النبرة المرتفعة.

ميله إلى القرع على "التوتية" أسفل نافذتك.

محاولاته الواعدة قتل المسلمين على الطريق.

قدراته في الجدل.

لدينا الكثير من الصور الضوئية اليوم وأتعرف إلى حجرتي المظلمة

الجديدة التي تمثل، بلا ريب، تطوراً كبيراً عن «زنزانة برج لندن» في عامودا. إذ أستطيع أن أعمل فيها بقامة منتصبه كما أنها تضم طاولة وكرسيًا.

لكن جدرانها، وبسبب كونها إضافة حديثة إلى البيت، إذ لم يمض على بنائها سوى بضعة أيام قبل وصولي، ما تزال رطبة. هنالك نوع غريب من الفطور ينمو على الجدران، وعندما يحتجز المرء بين جدرانها في نهار حار، فإنه لا يخرج منها في نهاية اليوم إلا وقد أوشك على الاختناق بالفعل!

نفح ماكس الصبي الصغير الذي يجلس في الخارج ويغسل الخزفيات قضيماً من الشوكولا. الصبي الصغير يعترض دربه هذه الليلة :

”أتوسل إليك يا خواجه أن تخبرني باسم تلك الحلوى. إنها لذيذة المذاق إلى درجة لم تعد معها تعينني الحلويات التي تباع في البازار. علي أن أشتري هذه الحلوى الجديدة ولو كان ثمنها مجيدية كاملة!“
أقول لماكس إنه عليه أن يشعر كأنه خلق مدمناً على المخدرات. فتناول الشوكولا يؤدي إلى التعود.

فيجيبني بأن الأمر لا يشبه ما حدث لرجل عجوز قدم له قطعة من الشوكولا في السنة الماضية. فقد شكره الرجل بكياسة ووضعها في ثنايا رداثه. لكن ميشيل الفضولي سأله إن كان سيأكلها قائلاً: ”إنها لذيذة“. فأجابه العجوز ببساطة: ”إنها جديدة وقد تكون خطيرة!“.

اليوم هو يوم عطلتنا فنغادر إلى تل براك لإجراء بعض الترتيبات هناك. الأكمة نفسها تبعد عن نهر جفجف ميلاً واحداً تقريباً، فتكون المسألة الأولى التي ينبغي حلها هي مشكلة الماء. كنا قد وظفنا حفار

آبار محلي بالفعل، لكن الماء الذي تم استخراجُه من التل كان أكثر ملوحة من أن يصلح للشرب. فعلينا، لهذا السبب، أن نجلب الماء من النهر. ومن هنا كان الرجل الشركسي والعربة وبراميل الماء (والحصان الذي ليس بامرأة عجوز). نحتاج كذلك إلى خفير كي يقيم عند الحفريات.

أما في ما يخصنا، فنستأجر منزلاً في القرية الأرمنية الواقعة على النهر. معظم منازل القرية مهجورة. أنفقت مبالغ كبيرة على بناء هذه المستوطنة - لكن دون ترتيب صحيح للأولويات على ما يبدو. فالبيوت (أكواخ بائسة من الطوب الطيني على الرغم من أنها قد تبدو جميلة للعين الغربية!) كانت في الواقع أكثر طموحاً مما ينبغي وأكبر وأشد تعقيداً مما هو مطلوب، في حين لم تول ناعورة الماء التي يعتمد عليها الري ونجاح المستوطنة برمتها ما تستحقه من الاهتمام لأنه لم يكن هناك ما يكفي من المال لبنائها كما ينبغي. وقد بدأت هذه المستوطنة على شكل كومونة. إذ تم تزويدها بالأدوات والحيوانات والمحاريث وما إلى ذلك على أن يتم تسديد ثمنها من الأرباح التي تحققها القرية. لكن ما حصل بالفعل هو أن الناس هناك بدؤوا يتعبون من الحياة في البرية وصاروا يتمنون العيش في مدينة، فغادروا القرية، الواحد تلو الآخر، مصطحبين معهم أدواتهم وتجهيزاتهم. والنتيجة أنه أصبح ينبغي استبدال الأدوات باستمرار وأخذت ديون من بقوا في القرية واستمروا في العمل فيها بالتراكم لبالغ ذهولهم. وأخيراً، تعطلت الناعورة تماماً وارتكست المستوطنة إلى مجرد قرية - قرية ساخطة إلى حد ما. المنزل الذي استأجرناه مهيب تماماً بما يتمتع به من جدار يطوق فناء و"برج" حقيقي من طابقيين يقع على أحد جوانبه. ويواجه البرج، من الجهة الأخرى، صف من الغرف تفتح كل منها على الفناء. سر كيس النجار منهمك الآن بإصلاح المشغولات الخشبية

للأبواب والنوافذ. وبذلك لم يبق سوى بعض الغرف التي تصلح للإقامة.

نرسل ميشيل كي يحضر الخفير الجديد من قرية تبعد ميلين بالإضافة إلى خيمة.

يبلغنا سر كيس أن غرفة البرج هي الأكثر جاهزية. فترتقي بضع درجات ونبحتاز سطحاً صغيراً ونصل إلى غرفتين. نتفق على تزويد الغرفة الداخلية بسريرين عسكريين على أن نخصص الغرفة الخارجية لتناول الطعام، الخ... النوافذ مزودة بمصاريع خشبية ذات مفصلات، لكن سر كيس سيضيف بعض الألواح الزجاجية.

يعود ميشيل ويبلغنا أن الخفير الذي أرسلناه إليه كي ينقله إلى الأكمة لديه ثلاث زوجات وثمانية أطفال والعديد من أكياس الدقيق والرز وعدد من المواشي، مما يجعل نقلهم جميعاً بعربة النقل مستحيلاً. فماذا نفعل؟

يغادر ميشيل من جديد مزوداً بثلاث ليرات سورية وتعليمات تقضي بنقل كل ما يمكن نقله على أن يستأجر الباقون حميراً كي نقلهم إلى التل.

يظهر الشركسي على حين غرة وهو يقود عربة الماء ويغني ويلوح بسوط طويل. العربة مطلية بطلاء أزرق فاقع وأصفر والشركسي ينتعل حذاءً عالياً ويرتدي ملابس مرحة، فيبدو المشهد برمه أقرب إلى الباليه الروسي أكثر منه في أي يوم مضى. يترجل الشركسي ويفرقع بسوطه ويستمر في الغناء وهو يمشي مترنحاً. من الواضح أنه ثمل للغاية!

عثة جديدة من عثرات ميشيل!

يتم صرف الشركسي وإحضار عبد الحسن، وهو رجل جدي
وسوداوي يقول عن نفسه إنه يفهم الخيول.

ينفذ الوقود منا أثناء عودتنا إلى البيت على بعد ميلين من شاعر
بازار. فيلتفت ماكس إلى ميشيل بغضب ويشتمه.

فيرفع ميشيل يديه إلى السماء ويندب براءته المكلومة.

لقد قام بما قام به من أجل صالحنا. لقد كان يريد أن يستفيد من
الوقود حتى آخر قطرة.

”لم أخبرك، أيها الأحمق، أن تملأ الخزان باستمرار وأن تحتفظ
بصفيحة احتياطية؟“

”ليس هناك من متسع لصفيحة احتياطية ناهيك عن أنها قد
تسرق.“

”ولماذا لم تملأ الخزان بالوقود؟“

”أردت أن أعرف المسافة التي يمكن للسيارة أن تجتازها بما لدينا.“
”غبي!“

فيقول ميشيل باسترضاء: ”ساوي بروفا“ فيستشيط ماكس غضباً.
أما نحن فتراودنا رغبة جامحة في ”فرقة“ ميشيل فيما هو مستمر في
التحديق فينا كرجل نزيه بريء أدين من غير وجه حق!

يكظم ماكس غيظه لكن دون أن يمتنع عن القول إنه يستطيع أن
يرى الآن لماذا ذبح الأرمن!

نعود إلى البيت أخيراً فيرحب بنا فرheid الذي يعرب عن رغبته في
”التقاعد“ لأنه لا يكف عن الشجار مع علي!

الفصل الثامن

شاغر وبراك

لكل عظمة قصاص. يعتبر صبري، بين الخادمين اللذين يعملان لدينا، الأفضل بلا منازع. فهو يتميز بالذكاء والرشاقة والتكيف وهو، فوق ذلك، مرح على الدوام. أما مظهره العام الذي يتسم بالشراسة وسكينه الكبير المشحوذ بعناية الذي يضعه تحت وسادته في الليل، فأمران هامشيان! والحقيقة أنه في كل مرة يطلب إجازة، يكون ذلك من أجل زيارة قريب قابع في السجن في دمشق أو في أي مكان آخر لارتكابه جريمة قتل! يقول صبري بجدية بالغة، إن تلك الجرائم ضرورية كلها لأنها تتصل بأمور تتعلق بشرف العائلة أو هيبتها. ودليله على ذلك أن الجناة في كل تلك الجرائم لم يتلقوا أحكام سجن طويلة.

فصبري، على الرغم من كل شيء، هو الخادم المفضل بما لا يقارن - لكن منصور هو من يحتل منصب كبير الخدم بفعل الأقدمية في الخدمة. وعلى الرغم من أن منصور يجسد مقولة ماكس حول كونه أغبى من أن لا يكون نزيهاً، إلا أنه، ولأقلها بصراحة، مصدر دائم للصداع!

ولكونه كبير الخدم، يقوم منصور على خدمتي وخدمة ماكس، في حين يحظى الكولونيل وبامبس، بسبب كونهما أدنى رتبة، بخدمات الذكي والرشيقي صبري.

سيطر علي، منذ الصباح الباكر أحياناً، شعور بالاشمئزاز من منصور! إذ يدخل إلى الغرفة، بعد أن يقرع بابها ست مرات تقريباً، والشك ما يزال يعتمل في صدره حول ما إذا كان هو المقصود بالفعل بكلمة «ادخل» المتكررة. ويقف في الداخل وتثقل أنفاسه وفي يديه فنجانان من الشاي الثقيل لا يكادان يتوازنان.

ثم يتقدم ببطء جاراً قدميه على الأرض ويتحول تنفسه إلى شخير ويضع أحد الكوبين على الكرسي الموجود بجوار سريري، فينسكب معظم الشاي فيه على الصحن. وترافقه، مع اقترابه، رائحة بصل في أفضل الأحوال ووثوم في أسوأها، والرائحتان غير مستساغتين حقاً في الخامسة صباحاً.

يصيب الشاي المسفوح منصور بالقنوط. فيحرق إلى الأسفل إلى الكوب والصحن ويهز رأسه ويشير إليهما بإصبعه بحزن. فأقول له بصوت شرس نصف مستيقظ: «دع!».

يأخذ منصور نفساً عميقاً ويجر قدميه إلى الجهة الأخرى من الغرفة حيث ينام ماكس ويكرر الدور بحذافيره.

ثم حينذاك، يتحول اهتمامه إلى المغسلة. فيحمل الحوض الخزفي بحذر ويتجه إلى الباب ويفرغ محتوياته في الخارج، ثم يعود بالحوض ويسكب فيه ما مقداره نصف بوصة من الماء وينكب عليه بإصبع واحد. تستمر تلك العملية عشر دقائق تقريباً، يتهد بعدها ويذهب إلى الخارج كي يعود بصفيحة كبير وسين مملوءة بالماء الساخن ويضعها أرضاً ويخرج بمشية متقايلة ويصفق الباب خلفه بطريقة تجعله يفتح من جديد على الفور!

أتناول الشاي البارد وأنهض من السرير وأنظف الحوض بنفسني

وألقي الماء في الخارج وأوصد الباب بطريقة صحيحة وأبدأ يومي.

يكلف منصور نفسه، بعد الفطور، بمهمة «ترتيب غرفة النوم». ويتمثل الإجراء الأول، بعد دلق كميات كبيرة من الماء في محيط المغسلة، بمسح الغبار بعناية ومنهجية. وأداؤه، في هذا المجال، لا غضاضة فيه من حيث المبدأ، إلا أنه يستغرق الكثير من الوقت.

ثم يخرج منصور من الغرفة، وقد امتلأت نفسه بالرضا عن نتائج المرحلة الأولى، ويحضر مكنسة ويبدأ بكنس الأرض بقوة مثيراً عاصفة من الغبار تجعل الجو خانقاً. ثم يرتب الأسرة بطريقة تجعل قدميك مكشوفتين حين تندس في السرير أو أنه يقوم بدس نصف الملاءة تحت الفراش بحيث تكاد لا تبلغ وسطك. أغض الطرف، كذلك، عن بعض التفاصيل الهامشية كمد الملاءات والبطنيات بترتيب معكوس أو استخدام غلافي الوسائد في تغليف وسادة واحدة. فهذه اللمحات الفنية لا تحدث إلا في يوم تبديل الملاءات.

وأخيراً، يهز منصور رأسه علامة على الموافقة ويغادر الغرفة وقد نال منه العمل الشاق والجهد العصبي الذي بذله. يأخذ منصور نفسه وواجباته على محمل الجد وهو يتمتع بضمير حي كذلك. وهي أمور تركت أعمق الأثر في نفوس الخدم الآخرين، بل إن الطاهي ديمتري يقول لماكس بجديفة بالغة: «صبري إنسان كادح ومبادر، لكنه لا يتمتع، والحق يقال، بالمعرفة والخبرة اللتين يملكهما منصور الخبير بعبادات الخواجات!». فيضطر ماكس، تجنباً للمساس بالتراتبية السائدة، إلى إصدار أصوات تفيد بالموافقة، على الرغم من أننا، كلانا، نرنو إلى صبري الذي ينفذ ملابس الكولونيل ويطويها بنشاط.

حاولت مرة، على سبيل التطوع، أن أزرع في منصور أفكار

الخاصة حول روتين العمل المنزلي، لكنها كانت حركة خاطئة أربكت منصور وأيقظت فيه عناده الفطري.

فقد أبلغ ماكس بحزن أن «أفكار خاتون غير عملية. إنها تطلب مني أن أضع ورق الشاي على الأرض. لكن ورق الشاي يوضع في إبريق الشاي كي يشرب. ثم كيف أمسح الغبار بعد كنس الغرفة؟ في حين أنني أمسح الغبار وأدعه يقع على الأرض كي أقوم بكنسه. هكذا هو المنطق».

ومنصور قوي للغاية حين يتعلق الأمر بما هو منطقي. إذ يقابل طلب الكولونيل إضافة بعض المربى إلى اللبن بتأنيب فوري: «لا، هذا ليس ضرورياً».

وهناك بعض من بقايا تقليد عسكري ما تزال عالقة بمنصور. فاستجابته الفورية لأي استدعاء له تكون بكلمة: «*Présent!*». وهو يستخدم العبارة البسيطة نفسها في الإعلان عن الغداء والعشاء:

«*La soupe!*»

لكن ساعة الاستحمام التي تسبق العشاء مباشرة هي الوقت من اليوم الذي يتجلى فيه منصور. ففي هذه الساعة، يصبح منصور رئيساً ولا يعود مضطراً إلى القيام بأي شيء بنفسه. إذ يحضر فرهيد وعلي، تحت أنظاره، صفائح كيروسين كبيرة من الماء المغلي وأخرى من الماء البارد (الذي يغلب عليه الطين) من المطبخ ويجهزان المغاطس - التي هي أشياء نحاسية دائرية كبيرة تشبه قدوراً ضخمة لحفظ الطعام. ثم يخرج فرهيد وعلي، بإشراف منصور، بالقدور النحاسية وهما يترنحان ويفرغانها أمام الباب مباشرة، في العادة، بحيث يمكن لمن يخرج بعد العشاء غافلاً أن ينزلق على الطين السائل ويسقط على طول قامته.

يكتسب علي، منذ تعيينه ساعياً للبريد ونيله دراجة هوائية، مكانة تتخطى الأعمال المنزلية الوضيعة. أما فرheid القلق، فيكلف بمهمة نطف ريش الدجاج الأزلية وبالغسيل الطقوسي للمواد الغذائية باستخدام كميات هائلة من الصابون دون ماء تقريباً.

يزداد التشديد على أعلى المعايير الصحية ومعايير النظافة العامة في الحالات النادرة التي أدخل فيها إلى المطبخ كي «أري» ديمتري كيفية تحضير طبق أوروبي ما.

فإن التقطت قدرأ يشي مظهره بالنظافة التامة، يختطفه أحدهم من يدي بسرعة ويعطي فرheid إياه.

«فرheid، نظف هذا كي تستخدمه خاتون».

فياخذ فرheid القدر ويفركه بعناية بصابون أصفر ثم يصقل السطح الصابوني بسرعة ويعيده إلي. فتتأبني الهواجس أن كعك «السوفليه» بنكهة الصابون قد لا يكون مقبولاً احتمالاً، لكنني أخدم هذه الفكرة في الحال وأرغم نفسي على الاستمرار.

الأمر برمته مرهق للأعصاب. ابتداء بدرجة الحرارة في المطبخ التي تبلغ في العادة تسعاً وتسعين فهرنهايت - ويتطلب الحفاظ على هذا القدر من البرودة الاكتفاء بفتحة صغيرة تسمح بدخول الضوء بحيث تسود المكان، في نهاية الأمر، أجواء من القيقظ والظلمة معاً. أضف إلى ذلك الأثر المززع الذي تخلفه الثقة المطلقة والتبجيل اللذين تنضح بهما الوجوه التي تحيط حولي، وهنالك، في الواقع، عدد كبير منها. فبالإضافة إلى ديمتري وفرheid المجد وعلي المتعجرف، يأتي لمتابعة العملية كل من صبري ومنصور وسركيس النجار والسقاء وأي عامل غريب قد يكون لديه ما يفعله في المنزل. المطبخ صغير والحشد كبير.

يتحلّق الجميع حولي ويزدادون دنواً مني ويراقبون أقلّ حرّكاتي شأناً
 بعيون ملوّهة الإعجاب والإجلال. تزداد أعصابي توتراً مع ذلك
 الشعور الذي ينبئني أنّ كل شيء سيكون خطأ بالتأكيد. هكذا، أسقط
 بيضة على الأرض وأكسرها. فيخال الجميع، من فرط ثقتهم بي، أنّ
 الأمر جزء من الطقس!

أتابع العمل وحرارتي تزداد ارتفاعاً بالتدرّج، ويزداد معها
 ارتباكِي. فهذه القدور تختلف عن أي شيء عرفته من قبل ومقبض
 خفاقة البيض محلول بصورة غير منتظرة وكل ما أستخذه غريب إن
 في الشكل أو في الحجم... أمالك نفسي وأقرر بيأس أنّه مهما تكن
 النتيجة، فسأزعم أنّها النتيجة المرجوة بالضبط!

والواقع أنّ النتائج تتفاوت. ففي حين تحقّق قشدة الليمون نجاحاً
 كبيراً، يتبين أنّ البسكويت المغطس بالزبدة لا يؤكل فنتخلص منه سراً.
 وفي حين تمضي أمور كعك سوفليه الفانيليا على خير ما يرام بطريقة
 إعجازية، يتبين أنّ لحم الدجاج المطهو على طريقة ميريلاند على درجة
 من القسوة لا يمكن للمرء معها أن ينشب أسنانه فيه (أكتشف، فيما
 بعد، أنّ السبب في ذلك يعود إلى طراوة لحم الدجاج المستخدم وسنه
 التي لا تصدق)!

لكنني أستطيع الزعم أنّني أعلم الآن الأطباق التي يمكن تعليمها
 وتلك التي ينبغي عدم التطرق إليها. إذ لا ينبغي للمرء أن يجرب في
 الشرق أي طبق يجب تناوله حال طهوه. وعجة البيض والسوفليه
 ورقائق البطاطا يجب أن تصنع قبل ساعة من تقديمها ثم توضع في
 الفرن إلى أن تنضج ولا طائل من أي احتجاج على ذلك. ومن جهة
 أخرى، يمكن لأي طبق، بغض النظر عن تعقيده، يتطلب فترة إعداد

طويلة ويمكن إبقاؤه في الانتظار أن ينجح. هكذا، أزيلت، لبالغ الأسف، العجة والسوفليه من لائحة ديمتري. ومن جهة أخرى، لا يمكن لأي طاه أن يصنع المايونيز بالجودة نفسها باستمرار.

هنالك كذلك ما يمكن التنويه إليه طالما أننا نتحدث عن الطهو. إنه طبق نعرفه باسم «البفتيك». يحيي هذا الطبق الشهى آمالاً عريضة فينا في كل مرة يتم الإعلان عنه - آمالاً سرعان ما يحكم عليها بالخذلان في اللحظة التي يوضع أمامنا طبق فيه قطع صغيرة من اللحم الدهني المسفوع.

فيقول الكولونيل بصوت حزين: «بل إن طعمها لا يشبه لحم العجل في شيء».

وهذا، بالضبط، هو التفسير الحقيقي. فالطبق يخلو من أي أثر للعجل.

تمارس أعمال الجزارة هنا بطريقة بسيطة للغاية. إذ يمضي ميشيل، بين الفنية والأخرى، وبصحبته عربية النقل، إلى إحدى القرى أو العشائر المجاورة ثم يعود ويفتح الباب الخلفي لماري الزرقاء فتنهمر ثمانية خراف!

تذبح هذه الخراف، الواحد تلو الآخر، وفق ما تقتضيه الحاجة مع الالتزام التام بأوامري المشددة بضرورة الامتناع عن ذبحها خارج نوافذ غرفة المعيشة! وأعرض كذلك على رؤية فرهيد يدنو من الدجاج ويده سكين طويلة حادة.

يتعامل العمال مع هذه الحساسية المفرطة التي تبديها خاتون بتساهل معتبرين إياه طرفة أخرى من الطرائف الغربية.

أتذكر إحدى المرات، وكنا نقيب بالقرب من الموصل، حين اقترب رئيس عمالنا العجوز من ماكس بحماسة شديدة.

«عليك أن تأخذ خاتونك إلى الموصل غداً. هناك حدث عظيم. عملية شتى! سيشتقون امرأة. لا بد أن خاتونك ستستمتع بالأمر كثيراً. عليها أن لا تفوت ذلك بأي ثمن!».

لكن عدم اكتراثي بهذه الدعوة، بل اشمئزازي منها، أذهله.

«لكنها امرأة. وشتى النساء من الأحداث النادرة لدينا. إنها امرأة كردية دست السم لثلاثة أزواج! لن ترضى خاتون بتفويت هذا الحدث بكل تأكيد، بكل تأكيد!».

لكن رفضي الصارم الحضور الحق بمكانتي لديه أضراراً بالغة. فتركنا بحزن وذهب كي يستمتع بعملية الشنى بنفسه.

هنالك كذلك ضروب حساسية غير متوقعة، وإن بطرق أخرى، تباغت المرء. فعلى الرغم من عدم اكتراثنا بمصير الدجاجات والديوك الرومية (وهي مخلوقات كريهة مقرقرة)، فقد اشترينا، ذات مرة، إوزة بدينة لطيفة. ولسوء الحظ، تبين أن الإوزة تتمتع بروح اجتماعية. بدا جلياً أنها كانت تعيش في القرية التي جاءت منها كفرد من أفراد الأسرة. فقد حاولت، منذ يومها الأول معنا، أن تشارك ماكس مغطسه. وكانت تدفع الأبواب المغلقة باستمرار وتحشر منقارها فيها كما لو أنها تقول برجاء: «أنا وحيدة». ومرت الأيام وفقدنا كل رجاء. إذ لم يعد أحد منا قادراً على الإيعاز بقتل الإوزة.

لكن الطاهي أخذ الأمر على عاتقه أخيراً. وقدمت الإوزة، وفق الأصول، محشوة على الطريقة المحلية وكانت شهية، بالتأكيد، من

حيث الطعم والرائحة. لكن أحداً منا لم يذق منها لقمة. وكانت تلك أكثر الوجبات التي قدمت لنا إحباطاً.

وبدوره، ألحق بامبس العار بنفسه، ذات يوم، عندما قدم ديمتري، بكل اعتزاز، حملاً - برأسه وقوائمه وكل شيء فيه. إذ لم يقتض الأمر من بامبس سوى نظرة سريعة على الحمل كي يولي الإدبار إلى الخارج على الفور.

لكن، فلنعد إلى مشكلة «البفتيك». يقدم الحمل، بعد ذبحه وتقطيع أوصاله، بالترتيب التالي: يتم حشو الكنف أو جزء منه بالتوابل والرز ثم يخاط (طبق ديمتري العظيم). ثم السيقان. يلي ذلك طبق كبير مما اصطلاح خلال الحرب الأخيرة على تسميته باسم «الفضلات الصالحة للأكل». ثم طبق من اللحم والخضار المطهوه مع الرز. أما الأجزاء الأخيرة المنبوذة من الحمل غير الجديرة بأن تضمن في الأطباق الأفضل، فتعرض للقلبي مدة طويلة إلى أن يصغر حجمها ويقسو قوامها - وهو الطبق المعروف باسم «البفتيك»!

كان العمل في التل يتقدم بشكل مرض. إذ تبين أن النصف الأول برمته ينتمي إلى عصور ما قبل التاريخ. فقد أجرينا، في أحد أجزاء، التل عملية «قص عميق» من القمة إلى التربة العذراء كشفت لنا خمس عشرة طبقة إشغال متتالية، عشر منها تنتمي إلى ما قبل التاريخ. فقد هجر التل تماماً بعد عام ١٥٠٠ قبل الميلاد بسبب عوامل التعرية التي لم يعد ارتفاع التل، معها، مقبولاً على ما يبدو. وهناك، كما هي الحال دائماً، بضعة أضرحة رومانية وإسلامية متطفلة تماماً. لكننا نزعم أن الأضرحة برمتها رومانية تجنباً لإثارة مشاعر المسلمين. على الرغم أن الرجال أنفسهم يبدون الكثير من عدم التوقير، فيصيحون

ويضحكون من غير تحفظ: ”هذا جدك الذي نبش قبره يا عبد الله!“،
 ”بل هو جدك يا داوود!“.

عثرنا على العديد من التماثيل المثيرة للاهتمام على شكل منحوتات حيوانية، جميعها من الأصناف المعروفة. وفجأة، تبدأ بالظهور بعض الأشكال المثيرة للفضول. دب صغير مسود، رأس أسد، وأخيراً شكل إنسان بدائي غير مألوف. أبدى ماكس بعض التحفظات على تلك الأشياء، لكن الشكل البشري أكد شكوكه. هنالك مزور في صفوفنا. ”وهو رجل ذكي للغاية“، يقول ماكس وهو يقلب الدب بإعجاب: ”قطعة جميلة“.

وتبدأ التحريات البوليسية. القطع تظهر في ركن محدد من الموقع ويعثر عليها، عادة، أحد شقيقين من سكان قرية تبعد حوالي عشر كيلومترات. وذات يوم، تظهر، في مكان آخر من الموقع ”ملقعة“ من البيتومين ذات مظهر مريب. لقد ”عثر عليها“ رجل آخر من القرية نفسها. نوزع البقشيش كالمعتاد دون أن نبس ببنت شفة.

ثم يحل يوم دفع الأجور ومعه الكشف الكبير! إذ يعرض ماكس الأدلة ويلقي خطبة إدانة ملتهبة واصفاً الأمر بالخديعة ويحطم القطع (على الرغم من أنه يحتفظ بالدب على سبيل الفضول)، ويطرد الرجال الذين دسوها، فيرحلون. يمرح على الرغم من زعمهم البراءة بصوت مرتفع.

وفي اليوم التالي، يتهامس الرجال أثناء العمل.

”الخواجة يعرف كل شيء. إنه وافر العلم في الآثار، لا يمكنك أن
 تخذع عينيه“.

يشعر ماكس بشيء من الحزن لأنه كان يود أن يعلم كيف تمت عملية التزييف بالضبط، وقد نالت الصنعة المتقنة لهذه القطع إعجاباه.

يستطيع المرء، الآن، أن يرسم لنفسه صورة عن شاغر بازار كما كان عليه قبل ثلاثة إلى خمسة آلاف عام. لا بد أن هذا المكان كان يقع على طريق قوافل مطروق للغاية يصل حران بتل حلف مروراً بجبل سنجار في العراق إلى دجلة ثم إلى نينوى القديمة. وكان هذا الموقع جزءاً من شبكة من المراكز التجارية العظيمة.

يشعر المرء أحياناً بوجود لمسة شخصية - لمسة خزاف وضع علامته على قاعدة قدر - مخبأ في جدار يخفي قدراً صغيراً مليئاً بأقراط ذهبية ربما تكون بائدة ابنة مالك البيت. ثم لمسة شخصية أخرى، لكنها، هذه المرة، أقرب إلى أزمنتنا، هي عملة معدنية عليها اسم هانس كراوفينكل من نورمبرغ يعود تاريخ صكها إلى عام ١٦٠٠ ميلادية، وقد تم العثور عليها مرمية في قبر إسلامي - في دليل على أنه كان هنالك تواصل بين هذه البقعة المجهولة من العالم والقارة الأوروبية في ذلك الزمن.

هنالك بعض القدور الفخارية البديعة للغاية التي تعود إلى حقبة قد ترقى إلى خمسة آلاف عام، تحمل نقوشاً، وهي، برأيي الشخصي، آية في الجمال وجميعها مصنوعة يدوياً.

وهنالك عذراوات ذلك العصر أيضاً. شخوص معممة بنهود عامرة - غريبة وبدائية لكنها تمثل المعونة والعزاء بلا أدنى شك.

وهناك، كذلك، التطور المذهل لموضوعة "البوكرانيوم" في صناعة الخزف التي بدأت برأس بسيط لحيوان وأصبحت، بالتدريج، أقل طبيعانية وأكثر شكلانية إلى أن بلغت حداً لا يستطيع المرء التعرف إلى ما يمثله الشكل ما لم يطلع على المراحل الوسيطة التي أفضت إليه.

(أكتشف بذعر، في الواقع، أنه يتطابق تماماً مع النقش البسيط المطبوع على رداء حريري أرنديه أحياناً آه، حسناً - لـ "البوكرانيوم" وقع مستحب أكثر من وقع "معين يجري!").

ثم يحل اليوم الذي سنضرب فيه معاولنا، للمرة الأولى، في تل براك. وهي لحظة مهيبة بالفعل.

يتعاون سركيس وعلي على تجهيز غرفة أو اثنتين. كما أن السقاء وحصانه الجليل الذي هو ليس بعجوز مسنة والعربة والبراميل - كلها على أهبة الاستعداد.

يغادر الكولونيل وبامبس إلى تل براك، في الليلة السابقة، ويقضيان ليلتهما هناك كي يصعدا إلى التل في الصباح الباكر.

أما ماكس وأنا، فنصل في حوالي الساعة الثامنة. أمضى الكولونيل، للأسف الشديد، ليلة حزينة ومزعجة في مصارعة الخفافيش! يبدو أن غرفة البرج مبتلاة، بكل ما للكلمة من معنى، بالخفافيش - وهي مخلوقات يكن الكولونيل لها بغضاً شديداً.

يبلغنا بامبس أنه كان، كلما استيقظ في تلك الليلة، يرى الكولونيل يدور في الغرفة مهاجماً الخفافيش بقسوة باستخدام منشفة حمام.

نمكث في المكان بعض الوقت ونتابع تقدم أعمال الحفر.

يدنو السقاء الكتيب مني ويروي لي قصة طويلة عن ما يبدو أنه محنة مريرة. يصل ماكس فأسأله أن يستقصي الأمر.

يبدو أن للسقاء زوجة وعشرة أبناء في مكان ما بالقرب من جرابلس وأن قلبه منفطر على غيابهم. فهلا أعطيناه دفعة على الحساب كي يرسل في طلبهم؟

أترافع لصالح الموافقة على الطلب. لكن ماكس يبدو متردداً.
ويقول إن وجود امرأة في البيت سيجلب المتاعب.

نصادف، في طريق عودتنا إلى شاغر بازار، مجموعة كبيرة من
العمال يسرون على الأقدام في طريقهم إلى موقع التنقيب الجديد.
يصيحون: "الحمد لله. هل من عمل لنا في الغد؟"
"نعم، سيكون هناك عمل".

يشكرون الله من جديد ويتابعون السير.

نمضي في البيت يومين خاليين من الأحداث ثم يحين موعد نوبتنا
في تل براك. لم يحدث أي شيء هام هناك حتى الآن، لكن العمل
واعد والبيوت وما إلى ذلك تنتمي إلى الحقبة التاريخية المطلوبة.

تهب اليوم ريح قوية من الجنوب - ريح مقيمة للغاية تبعث على
الحنق والتوتر. فنستعد لأسوأ الاحتمالات بانتعال الأحذية المطاطية
ذات الساق العالية وارتداء المعاطف الواقية بل وحتى المظلات. أما
تأكيدات سركيس على أنه أصلح السقف فلا نأخذها على محمل الجد.
إذ يبدو أننا سنعيش في هذه الليلة حالة "ساوي بروفا"، كما يمكن
لميشيل أن يقول في مثل هذه المناسبة.

يقبضي الوصول إلى تل براك عبور أراض غير ممهدة، إذ لا يوجد
أي طريق يفضي إلى التل. نصادف، في منتصف الطريق إلى التل، اثنين
من عمالنا يغذون السير إلى "العمل". لدينا في الواقع متسع لهما.
هكذا يتوقف ماكس ويعرض إقلاهما فيقابلان العرض بفرح كبير.
يسير، في أعقابهما، كلب يلتف حول عنقه طوق بال.

يصعد الرجلان ويستعد ميشيل للانطلاق. يسألهما ماكس وماذا

عن الكلب؟ سوف نقل كليهما كذلك. يقولان إنه ليس كليهما. فقد ظهر فجأة في الصحراء وتبعهما.

نعابن الكلب عن كلب. إنه لا ينتمي إلى سلالة معروفة، لكن من الواضح أنه هجين أوروبي! فهو يشبه كلاب سكاى تيريه الاسكتلندية بالسوان كلب داندي دينمونت مع لمسة مؤكدة من كلب كيرن. طوله كبير ويتمتع بعينين كهرمانيتين براقتين وأنف بني باهت. مظهره لا يشي بالبوئس أو بالأسف لما هي عليه حاله أو بالجبن - على العكس من الكلاب الشائعة في الشرق. يجلس في مكانه بهدوء ويتأملنا بوجه مشرق وبذيل يتأرجح قليلاً.

يقول ماكس إننا سنأخذه معنا ويأمر ميشيل بحمله ووضعه في السيارة.

”نعم، نعم“ يقول الرجلان العربيان. ”سوف يأكل لحمك بالتأكيد! الأفضل أن تدعه هنا يا خواجه“.

يقول ماكس لميشيل: ”احمله وضعه في الداخل أيها الأحقق اللعين“.

يتوتر ميشيل ويتقدم من الكلب الذي يدير رأسه صوبه بسرور.

فيتراجع ميشيل بسرعة. أما أنا، فينفذ صبري، وأقفز إلى الخارج وأصعد برفقته إلى الجهة الخلفية من ماري الزرقاء. ضلوعه تكاد تلتصق بجلسده. نقفل عائدين إلى تل براك حين يتم تسليم الوافدة الجديدة إلى فرهد مع تعليمات واضحة بوجوب تقديم وجبة كبيرة لها. نتجادل، كذلك، حول الاسم الذي سوف نطلقه عليها ثم يستقر رأينا على اسم الآنسة أوستابنكو (لأنني أقرأ حالياً رواية ”العروس البعيدة“). بيد أن هايو هو الاسم الذي صارت تعرف به الآنسة أوستابنكو بفضل

بامبس. تتكشف هايو عن كلبة ذات شخصية مذهلة متعطشة إلى الحياة وجسورة بالتأكيد لا يخيفها شيء أو أحد. وهي تتميز بخفة دم مؤكدة وبمزاج رائع وتبرهن، في كل الأوقات، عن تصميم على القيام بما يحلو لها. وهي تتمتع، كذلك، بالأرواح التسعة التي تعزى إلى القطط عادة. فإن علققت في الداخل، تتدبر أمر خروجها بطريقة ما. وإن علققت في الخارج، تتدبر أمر دخولها - بل إنها حفرت بأسنانها ذات مرة فتحة قطرهما قدمان في الجدار الطيني. تحضر كل الوجبات وتبدي عزيمة لا يستطيع المرء الصمود في وجهها. وهي لا تتوسل الطعام بالتأكيد - بل تطلبه.

تشكل لدي قناعة أن أحدهم قيدها إلى حجر ثقيل باستخدام حبل مربوط بعنقها وحاول إغراقها، لكن هايو، بحبها للحياة، قضت الحبل وسبحت إلى الشاطئ ورمقت الصحراء بفرح وتبعت الرجلين بغريزتها التي لا تخطئ. والدليل على نظريتي أنها ترافقنا إلى كل مكان باستثناء المرات التي نجتمع فيها أمام نهر جفجف. إذ تجلس في الممر بثبات وتهز رأسها ثم تستدير عائدة إلى البيت وكأنها تقول: "لا، شكراً. لا أحب أن يفرقني أحد. هذا مخيف!".

يسعدنا سماع أبناء أن الكولونيل أمضى ليلة أفضل من ذي قبل. فقد طرد سركيس معظم الخفافيش أثناء ترميم السقف، كما ابتكر الكولونيل جهازاً على شاكلة أجهزة هيث روبنسون قوامه وعاء كبير مملوء بالماء تقع الخفافيش فيه في نهاية المطاف وتغرق. والآلية، كما يقدمها الكولونيل لنا، معقدة للغاية وإعدادها يقطع الكثير من ساعات نومه.

نرتقي إلى الأكمة ونتناول الغداء في بقعة محمية من الريح. ومع

ذلك تتخلل كل لقمة كميات كبيرة من الرمل والغبار. يبدو الجميع فرحين، بل إن السقاء السوداء سوداوي نفسه يظهر شيئاً من الفخر وهو ينتقل بين التل وجنح جيئة وذهاباً كي يحضر الماء للرجال. حيث يقود العربة إلى أسفل التل ثم تصعد الحمير إليه محملة بجرار الماء في مشهد فيه لمسات كتابية رائعة.

ثم تأتي ساعة الاستراحة فتبادل تحيات الوداع ويستقل الكولونيل وبامبس ماري الزرقاء إلى شاغر بازار وتسلم نوبتنا التي ستدوم يومين في تل براك.

تبدو غرفة البرج جذابة للغاية. فأرضيتها مغطاة بحصيرة وبعض البسط. ولدينا إبريق وحوض وطاولة وكريسيان وسريران عسكريين ومناشف وملاءات، بل وبعض الكتب كذلك. النوافذ مغلقة من غير إحكام. نأوي إلى السرير بعد وجبة غربية بعض الشيء أعدها علي وقدمها فرheid الكتيب، قوامها حساء سبانخ تعوم فيه جزر صغيرة من شيء نظن أنه "البفتيك" من جديد!

تمضي ليلة هائلة لم يظهر فيها سوى خفاش واحد طرده ماكس باستخدام مشعل. فنقرر أن نخبر الكولونيل أن قصصه عن مئات الخفافيش فيها مبالغات فجة وأنها تعود، على الأرجح، إلى الإفراط في الشرب. يدعى ماكس، في الرابعة والربع صباحاً، إلى الشاي وينطلق إلى الأكمة. أما أنا فأعود إلى النوم من جديد ثم يقدم إلي الشاي في الساعة السادسة. يعود ماكس إلى الفطور في الساعة الثامنة. ويقدم الطعام لنا بتباه. بيض مسلوق، شاي، خبز عربي، مرطبانان من المربي وعلبة من مسحوق الكستر. وبعد بضع دقائق، يقدم لنا طبقاً آخر - هو بيض مقلي مخفوق.

”Trop de zèle“^(٢٧)، يتمتم ماكس معرباً عن خشيته من الوصول الوشيك للعجة ويرسل إلى علي غير المرئي رسالة مفادها أننا اكتفينا. فيتهدد فرهد ويمضي حاملاً الرسالة. ثم يعود وقد قطب جبينه بقلق وحيرة. لا بد أن كارثة كبيرة قد حلت، لكن لا - يسألنا بكل بساطة: «هل ترغبون في بعض البرتقال مع الغداء؟»

يعود بامبس والكولونيل في منتصف اليوم. بامبس يعاني الأمرين من قبعته بسبب الريح العاصفة، فيصل ميشيل لنجدته بـ «الفرقة» المعهودة، لكن بامبس يفلت من يديه بمهارة وقد تذكر ما حل به في المرة السابقة.

نتناول غداءنا المعهود وهو اللحم البارد والسلطة- لكن علي، بروح المبادرة لديه، يتحفنا بما هو أفضل. فتناول شرائح من الباذنجان المقلي البارد ونصف المطهو مع بطاطس مقلية باردة ودهنية وأقراصاً صغيرة من «البفتيك» المقلي بشدة، فكان الأمر فوضى من السمن البارد الأخضر!

يقول ماكس إنه سيشعر بالأسف لتثبيط همة علي، لكنه سيكون مضطراً إلى لجم خياله.

نقع على عبد السلام الذي يستغل ساعة الغداء في إلقاء عظة رنانة على الرجال تبعث على الاشمئزاز.

يصيح ملوحاً بذراعيه: «هل ترون كم أنتم محظوظون؟ أليس كل ما يصنع هو من أجلكم؟ أليست كل الأفكار مكرسة لكم؟ لقد سمح لكم أن تحضروا طعامكم إلى هنا وأن تتناولوه في فناء المنزل.

٢٧- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: «الكثير من الحماسة» (المترجم)

تفاضون أجوراً كبيرة - نعم، أنتم تتفاضون المال سواء عثرت على شيء أم لم تعثروا على شيء. فأني سخاء وأية شهامة! وهذا ليس كل شيء. فبالإضافة إلى أجوركم المجزية، تتفاضون أموالاً إضافية مقابل كل ما تعثرون عليه. والخواجة يراكم كما لو كان أباً لكم - ويحول دون أن يؤذي أحدكم الآخر. فإن أصابتكم حمى أعطاكم الدواء. وإن سدت أحشاؤكم أعطاكم ما يفتحها! كم هو حسن - كم هو سعيد طالعكم! وهناك بادرة سخاء إضافية! هل يدعكم تعملون وأنتم ظمآنون؟ هل يجعلكم تحضرون الماء بأنفسكم؟ لا، بالطبع لا! إنه يحضر لكم الماء إلى الأكمة - وهو ليس مرغماً، لكنه سخاؤه العظيم - من جفجف! ماء يكلف إحضاره بعربة يجرها حصان الكثير من المال. فكروا في الكلفة وفي النفقات! أي طالع حسن هو طالعكم كي يستخدمكم رجل كهذا».

ننسل بعيداً ويدي ماكس استغرابه كيف لا يقوم أحد من العمال بقتل عبد السلام. كان هو نفسه ليفعل ذلك لو كان واحداً منهم. فيجيبه بامبس إن الرجال، على العكس من ذلك، يثنون على كلامه. وهو محق. فهم يومئون بروؤوسهم ويتمنون بالموافقة وينظر أحدهم إلى الآخر:

«ما يقوله منطقي. الماء يجلب من أجلنا. نعم، هنالك الكثير من الكرم في ذلك. إنه على حق. نحن محظوظون. إنه رجل حكيم عبد السلام هذا».

يقول بامبس إنه لا يفهم كيف ينطلي عليهم هذا الكلام، لكنني أخالفه الرأي. وأتذكر كيف يقبل الإنسان في طفولته على الحكايات! هنالك في العربي بعض من المقاربة الساذجة المباشرة للحياة. هكذا

يصبح عبد السلام، بمواظبه المضجرة، مفضلاً لدى العمال على علاوي الأكثر عصرية والأقل ادعاء. وعبد السلام، فضلاً عن ذلك، راقص عظيم. ففي المساء، يجتمع الرجال في الفناء في بيت تل براك ويقودهم العجوز عبد السلام في سلسلة طويلة من الخطوات النمطية التي يصعب تحليلها وتستمر أحياناً حتى وقت متأخر من الليل. أما كيف يقومون بذلك ثم يصلون إلى الأكمة في الخامسة صباحاً فسر مستغلق - ثم هناك أيضاً سر وصول رجال قادمين من قرى تبعد ثلاثة كيلومترات وخمسة كيلومترات وعشرة كيلومترات مع شروق شمس كل يوم في اللحظة نفسها! إنهم لا يملكون ساعات جدارية ولا ساعات يد وهم، بالتأكيد، ينطلقون من دورهم في أوقات تتراوح بين عشرين دقيقة وساعة قبل الشروق، لكنهم يصلون في الوقت المحدد من غير إبطار أو تأخير. يفاجئني كذلك حين أراهم، مع انتهاء العمل (قبل نصف ساعة من مغيب الشمس)، وهم يرمون سلالهم ويضحكون ويحملون أدواتهم على أكتافهم ويجرون - نعم، يجرون - بمرح على طول الكيلومترات العشرة التي تفصلهم عن قراهم! الاستراحة الوحيدة التي يحصلون عليها هي نصف الساعة المخصصة للفقير والغداة المخصصة للغداء ناهيك عن كون الغداء الذي يحصلون عليها غير كاف بمعاييرنا. صحيح أنهم يعملون بأسلوب نصفه، نحن، بالكسول تتخلله فترات من الحفر المحموم أو الجري عندما تحتاجهم موجة من الفرحة الغامر - لكنه في نهاية المطاف عمل يدوي شاق. قد يكون عامل المعول أوفرهم حظاً لأنه يستطيع الجلوس، بعد انتهائه من خلخلة الأرض حوله، كي يستمتع بتدخين لفافة بينما يقوم عامل المجرفة بملء السلال. أما فتية السلال، فلا ينالون أي قسط من الراحة باستثناء تلك التي ينتزعونها لأنفسهم - وهم حاذقون في ذلك - من

خلال التمهّل أثناء التوجه إلى مكان المكب أو بقضاء وقت طويل في التنقيب في سلالهم.

صحتهم، بالإجمال، ممتازة على الرغم من انتشار حساسية العين بينهم وقلقهم الشديد من الإمساك! والسل شائع بينهم في أيامنا هذه - وقد جلبته إليهم الحضارة الغربية. لكن قدراتهم على التعافي مذهلة. فقد يشج رجل رأس رجل آخر تاركاً فيه جرحاً مريعاً. فيسألنا المصاب أن نعالجه ونضمده لكنه يذهل حين نقترح عليه أن يغادر العمل باكراً. «ولماذا؟ إنه مجرد ألم في الرأس!». ثم يمر يومان أو ثلاثة أيام يشفى الجرح بعدها تماماً على الرغم من ضروب العلاج غير الصحية التي لا بد أن يكون الرجل قد أخضع نفسه لها عند عودته إلى البيت.

كان هنالك، ذات مرة، رجل يعاني من بثرة كبيرة ومؤلّمة في ساقه، فأرسله ماكس إلى بيته لأنه كان محموماً بالتأكيد.

«سوف تتقاضى أجرك عن يوم العمل هذا كما لو كنت حاضراً».

فغمغم الرجل وذهب. ثم في بعد ظهيرة ذلك اليوم، رآه ماكس فجأة وهو يعمل. «ماذا تفعل هنا؟ لقد أرسلتك إلى بيتك». «لقد ذهبت إلى البيت يا خواجه (يبعد ثمانية كيلومترات). لكنني ضجرت إذ لم يكن هناك أي حديث أشارك فيه! فقط النساء. فأقفلت عائداً. وساقى كما ترى على خير ما يرام. لقد زال التورم!».

نعود اليوم إلى شاغر بازار في حين يحل الآخراّن محلنا في تل براك. أي ترف عظيم أن نعود إلى بيتنا. نجد الكولونيل، عند وصولنا، مشغولاً بتعليق الملاحظات في كل مكان - ومعظمها ذات طابع مهين! كما قام بترتيب البيت بحيوية نعجز معها عن العثور عن

أي شيء نحتاج إليه. فتتوسل الانتقام! وأخيراً، نقص صورة السيدة سمبسون من صحيفة قديمة ونعلقها بالدبابيس في غرفة الكولونيل! هنالك الكثير من الصور الضوئية التي يجب التقاطها وتحميضها. ولأن الحر شديد اليوم، أخرج من غرفة التحميض وأشعر كما لو كنت قطعة من فطر جداري. ينهك العمال بمدى بماء نقى نسبياً. حيث يقومون بتخليصه من قطع الطين الكبيرة أولاً ثم يمررونه عبر نسيج قطني إلى أوعية مختلفة بحيث لا يبقى عالقاً فيه، لحظة استخدامه، سوى القليل من الرمل والغبار اللذين يحملهما الهواء فتكون النتيجة النهائية مرضية تماماً.

نفذ اليوم عملية إنقاذ لا تنسى. فقد كانت الأمطار التي هطلت خلال الليل غزيرة والأرض هذا الصباح لما تزل مشبعة بالماء. وفي الثانية عشرة ظهراً، يلوح من بعيد فارس ذو مظهر جامح يدنو بضراوة وتهور من يحمل الأبناء الطيبة من إكس إلى غنت^(٢٨). لكن الأبناء التي يحملها سيئة، في الواقع. الكولونيل وبامبس عالقان في الطمي في منتصف الطريق إلينا. يقفل الفارس عائداً بمجرتين ونشكل، على عجل، فريق إنقاذ مكوناً من خمسة رجال بالإضافة إلى سركيس ونحشرهم في السيارة بوالو. يصطحب الرجال معهم مجارف وألواحاً إضافية ويمضون بفرح وهم يغنون!

يصيح ماكس في إثرهم محذراً إياهم من أن لا يعلقوا هم أنفسهم وهو ما حدث بالفعل - لكن، ولحسن طالعهم، على مسافة بضعة مئات من الياردات من المكان الذي تقف ماري الزرقاء فيه بحزن،

٢٨- في إحالة إلى قصيدة للشاعر والمسرحي الإنكليزي روبرت براونينغ عنوانها "كيف حملوا الأبناء الطيبة من إكس إلى غنت" (المترجم)

ومحورها الخلفي غارق في الطمي وركابها مرهقون وقد حاولوا على مدى خمس ساعات شاقة أن يتشلوها وأفقدتهم صوابهم هتافات ميشيل الطيب وتعليماته التي يصدرها بنبرته البكاء المرتفعة والتي تقتصر، بالإجمال، على كلمة «فرق!» وهو يحطم الرافعة الثالثة على التوالي! وأخيراً، تفلح ماري الزرقاء، بمعونة الرجال الأشداء (الذين تم اختيارهم بناء على متانة بنيانهم) وبارشادات سركيس العاقلة، في الخروج من المستنقع، فتندفع بقوة تجعل الطمي يغطي كل الحاضرين من رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم مخلفة حفرة كبيرة دعاها الكولونيل «ضريح ماري».

هطلت أمطار وافرة أثناء إقامتنا الأخيرة في تل براك، فلم ييل سقف سركيس حسناً في مواجهة الرشح. وفضلاً عن ذلك، تفتح مصاريع النوافذ وتغلق باستمرار بفعل الرياح وتحتاج الأمطار الغرفة. ولحسن الحظ، تسقط أغزر الأمطار في يوم العطلة فلا يتعطل العمل - على الرغم من أنها تجعلنا نلغي رحلتنا القصيرة المقررة إلى بركان تل كوكب.

توشك أعمال شغب على الاندلاع عندنا، في إحدى المرات، بسبب مسألة يوم العطلة - حين تنتهي دورة العمل البالغة عشرة أيام في يوم سبت ويكلف عبد السلام بإبلاغ العمال أنه لن يكون هنالك من عمل في اليوم التالي، لكنه يثرثر بحماقته المعهودة قائلاً: «غداً هو الأحد، ولذلك لن يكون هناك من عمل!».

فيعم الصخب في الحال! ماذا- هل سيتعرض كل هؤلاء المسلمين الطيبين للمهانة ويضحى بهم كرمى لعيون عشرين أرمنياً مسيحياً بانساً؟ يحاول رجل ناري اسمه عباس عيد تنظيم إضراب. فيتكلم

ماكس فيهم مؤكداً أنه حين يريد أن يكون يوم الأحد أو يوم الاثنين أو يوم الثلاثاء أو يوم الخميس أو يوم الجمعة أو يوم السبت يوم عطلة فإنه سيكون يوم عطلة. أما عباس عيد، فلن يرى أحد وجهه في التل من جديد! في حين يؤمر الأرمم الذين يسعون، من خلال ضحكاتهم المكتومة، إلى جريمة قتل بإغلاق أفواههم. ثم بعد ذلك، يبدأ توزيع الأجور. فيتوارى ماكس في ماري الزرقاء ويخرج ميشيل من المنزل مترنحاً بأكياس المال (حمداً لله أنها ليست ليرات مجيدية. فقد صارت الليرة المجيدية غير قانونية و صار التعامل بالليرة السورية ملزماً) ويرميها في عربة النقل. يطل ماكس برأسه من النافذة المجاورة لمقعد السائق (يبدو كعامل قطع تذاكر في كوة محطة قطارات) ويضع ميشيل كرسيّاً في عربة النقل كي ينظم توزيع المال، فيشكل القطع النقدية المعدنية في أكوام ويتهدد بعمق وهو يتأمل كل هذا المال الذي سيذهب إلى جيوب المسلمين!

يفتح ماكس سجلاً كبيراً ويبدأ المرح. يتقدم العمال الواحد تلو الآخر عندما ينادون بأسمائهم ويأخذون استحقاقهم. كان اليوم السابق قد شهد مآثر حسابية جبارة استمرت حتى الليل وتم، خلالها، التحقق من قيمة البقشيش الذي يستحقه كل عامل وأضيفت إلى أجره.

يبدو التفاوت في القسمة والنصيب كبيراً اليوم على نحو خاص. إذ يتقاضى بعض الرجال مكافآت مجزية في حين يخرج آخرون بخلو الوفاض تقريباً. لكن الجميع يتبادلون النكات والقفشات، بل إن أولئك الذين فاتهم حسن الطالع يبدون جذلين للغاية. تسارع امرأة كردية حسناء فارعة القامة نحو زوجها الذي يحصي ما تلقاه.

«كم لديك؟ أرني». ثم تضع يدها، دون تردد، على المال برمته وتمضي به بعيداً.

يشيح عاملان عربيان يبدو عليهما التهذيب بوجهيهما بلطف وقد صدمهما ما شاهداه من سلوك لا أنثوي (ولا رجولي كذلك)!

تخرج المرأة الكردية من كوخها الطيني من جديد وتعنف زوجها على طريقة إفلاته حماراً من رسنه. فيتنهد الكردي، وهو رجل ضخم الجثة ووسيم، بحزن. فمن يود أن يكون زوجاً كردياً؟

هنالك مقولة شائعة مفادها إن العربي، إن سلبك في الصحراء، يكتفي بضربك ويدعك على قيد الحياة، أما الكردي فيسلبك ثم يقتلك لمجرد المتعة!

ربما تكون هيمنة زوجته عليه في البيت هي ما يحضه على إبداء الشراسة في الخارج!

وأخيراً، يتقاضى الجميع أجورهم بعد مرور ساعتين. ويحل سوء تفاهم بسيط بين داوود سليمان وداوود سليمان محمد. بما يرضي الطرفين. ويعود عبد الله باسمأ كي يقول إنه تقاضى عشرة فرنكات ونصف عن طريق الخطأ، ويحتج محمد الصغير بحدة من أجل خمسة وأربعين سنتيماً - «خرزتان وحافة قدر فخاري وقطعة من السبج يا خواجة وكان ذلك يوم الخميس الماضي!». تدرس كافة الدعاوى والدعاوى المضادة وتم تسويتها. ثم نلتمس المعلومات حول من سيستمر في العمل ومن سيغادر. ويتبين لنا أن الجميع تقريباً سيغادرون. «لكن من يدري ما سيحدث بعد الجولة التالية يا خواجة؟». فيقول ماكس: «بالطبع، عندما ينفذ المال!». «الأمر كما تقول يا خواجة».

يتبادل الجميع التحية ويودعون بعضهم. أما الليلة، فستكون حافلة بالغناء والرقص في فناء البيت.

نعود إلى شاغر في يوم حار جميل. كان الكولونيل يدمدم بغضب بسبب سلوك بيلو التي داومت، في الآونة الأخيرة، على خذلانه في تل براك باستمرار. وفي كل مرة كان فرheid يأتي ويؤكد للكولونيل أن السيارة على ما يرام ولا تشكو من أي عيب ثم يقوم بتشغيلها، فتعمل على الفور في تأكيد على هذه الحقيقة، فيزداد إحساس الكولونيل بالمهانة.

أتممت بنبرة ذات دلالة: «جوزيفين؟». فينبح الكولونيل بأسلوب عسكري: «بل بيلو!».

ثم يصل ميشيل ويشرح بصوته المرتفع أن الأمر لا يتطلب سوى تنظيف المكربن - والأمر بسيط للغاية - ويرى الكولونيل كيف يتم ذلك. ثم يمارس ميشيل خدعته المفضلة في مص القود والتغرغر به ثم شربه، فيرمقه الكولونيل بنظرة اشمزاز باردة. ثم يهز ميشيل رأسه ويتسم بسعادة ويقول للكولونيل محاولاً إقناعه: «ساوي بروفا؟» ويشعل لفافة. فنحبس أنفاسنا في انتظار نشوب النار في حلق ميشيل، لكن شيئاً من ذلك لا يحدث.

تقع بعض التعقيدات التافهة. إذ يطرد أربعة عمال لأنهم لا يكفون عن القتال. ويتشاجر علاوي ويحيى ثم لا يعود أحدهما إلى مكاملة الآخر. سرق أحد البسط من بيتنا. يغضب الشيخ كثيراً ويعقد محكمة للتحقيق في القضية. أما نحن فنستمع بمراقبة الأمر عن بعد - يجلس رجال ملتحمون في الهواء الطلق في حلقة ويقربون رؤوسهم. يفسر

منصور الأمر بالقول «إنهم يعقدون الجلسة هناك كي لا يسترق أحد السمع إلى الأسرار التي يتداولونها».

أما الإجراءات التالية، فشرقية تماماً. يأتي الشيخ ويؤكد لنا أن الجناة معروفون له وأنه سيحل الأمر وسنستعيد بساطنا.

أما ما يحدث على أرض الواقع، فهو أن الشيخ يضرب ستة من أعدائه اللدودين وربما يترهم فوق ذلك. لا يظهر البساط بالطبع لكن الشيخ في قمة المرح ويسدو متخماً بالمال من جديد. يأتي عبد السلام إلى ماكس ويقول له بتكتم: «سأخبرك من سرقت بساطك. إنه صهر الشيخ، الشيخ الأيزيدي. إنه رجل شرير للغاية، لكن شقيقته جميلة».

وتلوح في عيني عبد السلام ملامح أمل بالاستمتاع بمشاهدة الأيزيديين يضطهدون قليلاً، لكن ماكس يصرح أنه سيسجل البساط في خانة الخسائر ولن يفعل المزيد من أجله. ثم يقول وهو يرمق منصور وصبري بقسوة: «عليكما الانتباه في المستقبل والامتناع عن مد البسط في الشمس في الخارج».

أما الحدث المحزن التالي فهو حدث مجيء رجال الجمارك والقائهم القبض على اثنين من عمالنا بتهمة تدخين سجائر عراقية. كان حظ هذين الرجلين تعيساً للغاية. فالواقع هو أن الرجال المائتين والثمانية (وهم عمالنا المسجلون على لوائح الأجور) يدخنون، جميعاً، سجائر عراقية مهربة! يطلب موظف الجمارك مقابلة ماكس ويقول له: «هذه مخالفة خطيرة». «سوف نمتنع عن إلقاء القبض على هذين الرجلين في موقع العمل كرمي لك يا خواجه. فالأمر لن يكون مشرفاً لك». يجيبه ماكس: «أشكرك على لطفك وكياستك». «بيد أننا نقترح يا خواجه أن تقوم بطردهما مع حرمانهما من أجرهما». «لن يحدث ذلك».

لست أنا من يجب أن يسهر على تطبيق القوانين في هذه البلاد. فأنا أجنبي. أما هذان الرجلان، فهما ملزمان بالعمل كما أنني ملزم بسداد أجريهما. لا أستطيع حرمانهما من الأجر». وتم تسوية المسألة، في نهاية المطاف، (برضا الطرفين المذنبين) على شكل غرامة تقتطع من أجريهما ويتم تسديدها لضابط الجمارك.

يقول الرجلان «إن شاء الله» ويهزان أكتافهما ويعودان إلى العمل. لكن ماكس، بقلبه الرقيق، يبدي كراماً مفراطاً في البقشيش المخصص للمدانيين هذا الأسبوع فيخرجان راضيين. لكنهما لا يرتابان، ولو قليلاً، بإحسان ماكس، بل يعزوان الفضل إلى رحمة الله التي لا تحدها حدود.

قمنا برحلة خاطفة أخرى إلى القامشلي. أصبحت لهذه الزيارة الآن طعم زيارة باريس أو لندن من حيث التشويق. تمضي الإجراءات كالمعتاد - هارودز - الحوار المفكك مع السيد ياناكوس - جلسات العمل الطويلة في المصرف - لكن حضور كاهن كبير من الكنيسة المارونية، بصليبه المرصع وشعره المنمق وثوبه القرمزي يضفي عليها نكهة جديدة. يلكنني ماكس كي أعرض على «المونسنيور» الكرسي الذي أجلس عليه، فأقوم بذلك على مضض - وبشعور بروتستانتية غاضبة. (ملاحظة: هل كان لي، في ظروف مماثلة، أن أعرض كرسي على رئيس أساقفة يورك إن كنت جالسة عليه؟ أقرر أنني إن فعلت، فلن يأخذه بالتأكيد!). لكن الأرشمندريت أو المفتي الكبير، أو أيًا يكن منصبه، يأخذ الكرسي ويغوص فيه ثم يتنهد برضا ويرمقني بنظرة عطف.

لا حاجة بي إلى القول إن ميشيل يخضع قوة أعصابنا لأشد

الاختبارات قسوة! إذ يقوم بعمليات شراء غبية تتميز بالحد الأعلى من الاقتصاد. ثم يذهب، كذلك، مع منصور لشراء حصان آخر، ويدخل منصور، بخيلاء الفارس، على متن الحصان المزعوم إلى دكان الحلاق المحلي الذي يقص ماكس شعره فيه!

فيصيح ماكس: «اخرج من هنا أيها المجنون!».

«لكنه حصان رائع»، يصرخ منصور. «وهادئ!».

في تلك اللحظة، يشب الحصان على قائمته الخلفيتين فيختبئ كل من في الدكان خوفاً من حافريه الأماميين.

يطرح منصور والحصان في الخارج ويعود ماكس إلى حلالة شعره مرجئاً كل ما يتمنى قوله لمنصور إلى وقت لاحق!

تناول غداء شهياً ومنشوداً مع المقدم الفرنسي في الشكنة العسكرية وندعو بعض الضباط الفرنسيين لزيارتنا ونعود إلى هارودز كي نطلع على آخر ارتكابات ميشيل. يبدو أن السماء ستمطر فنقرر العودة في الحال.

تمت عملية شراء الحصان ويناشدنا منصور السماح له بالعودة إلى المنزل على متنه.

يقول ماكس إنه إن امتطاه فلن يصل إلى المنزل أبداً.

لكنني أقول إن الفكرة عظيمة وأناشد ماكس السماح لمنصور بامتطاء الحصان.

«ستيبس جسدك على متنه ولن تكون قادراً على الحركة»، يقول ماكس.

فيجيبه منصور إن جسده لا يتيبس عندما يمتطي حصاناً.

يتم الاتفاق على أن يعود منصور إلى البيت على متن الحصان في اليوم التالي. فالبريد سيتأخر يوماً واحداً وبذلك يمكن لمنصور إحضاره معه.

مطر السماء أثناء عودتنا (بصحبة الدجاجات المقيدة في وضعية غير مريحة كالعادة وبعض الكائنات البشرية المتهالكة). تنزلق السيارة في طريق عودتنا بطريقة مذهلة، لكننا نتمكن من الوصول إلى البيت قبل أن يصبح السير على الطريق متعذراً.

كان الكولونيل قد عاد للتو من تل براك وازدادت معاناته مع الخفافيش. وعلى الرغم من أنه استطاع استدراج الخفافيش إلى الحوض باستخدام مصباح كهربائي بنجاح كبير، إلا أنه قضى الليل برمته في ذلك، فلم يحصل على قسط كبير من النوم. نقول بيروود إننا لم نر أية خفافيش!

هنالك، في صفوف عمالنا، عامل يجيد القراءة والكتابة! اسمه يوسف حسن وهو واحد من أشد العمال كسلاً. فلم أره في زياراتي العديدة للموقع يعمل ولو مرة. فهو إما أن يكون قد انتهى، للتو، من حفر البقعة المخصصة له أو أنه على وشك أن يبدأ أو توقف مؤقتاً لإشعال لفافة. وهو فخور إلى حد ما بإجادته القراءة والكتابة. وفي أحد الأيام تسلى مع أصدقائه بكتابة العبارة التالية على علبة سجائر فارغة: «غرق صلاح برو في نهر جفجغ». فسر الجميع بسعة اطلاعه وبالدهابة نفسها!

ثم علقت علبة السجائر الفارغة هذه بكيس خبز فارغ تم دسه في كيس دقيق وعاد، كما هو متوقع، إلى المكان الأصلي الذي خرج منه، وهو قرية تل خنزير. وهناك، لاحظ أحدهم الكتابة فأخذها إلى

رجل متعلم كي يقرأها. وعلى الفور أرسل الخبر إلى قرية جيرماير، مسقط رأس صلاح برو. والنتيجة: يصل، في يوم الأربعاء التالي، إلى تل براك، موكب عظيم من المحزونين - من رجال ونساء نائحات وأطفال باكين.

«يا للأسف، يا للأسف، يصرخون بلوعة. «لقد غرق محبوبنا صلاح برو في جفجف - ونحن هنا من أجل جثمانه!».

ثم يحدث أن يكون أول ما تقع أعينهم عليه هو صلاح برو شخصياً وهو يحفر بفرح ويصق في الرقعة المخصصة له. ذهول - تليه تبريرات - ثم يحاول صلاح برو، وقد فقد صوابه، أن يشج رأس يوسف حسن بمعوله. وينضم صديق إلى كل من الطرفين، قبل أن يصل الكولونيل إلى المكان ويأمر الجميع بالتوقف (من دون جدوى) ويحاول اكتشاف سبب الشجار.

يعلن ماكس عن جلسة استجواب يليها النطق بالحكم.

يوقف صلاح برو عن العمل يوماً واحداً للسببين التاليين: (أ) للشجار، (ب) لعدم الكف عن الشجار عندما أمر بذلك. في حين يحكم على يوسف حسن بالذهاب إلى جيرماير (أربعين كيلومتراً) سيراً على الأقدام كي يشرح ما حدث ويقدم الاعتذار عن فكرته الخرقاء. كما يتم تغريمه بأجر يومين.

أما العبرة مما جرى، فهي، على حد قول ماكس فيما بعد أمام حلقة من المختارين، أن معرفة القراءة والكتابة أمر بالغ الخطورة!

يصل منصور، الذي احتجز في القامشلي ثلاثة أيام بسبب الطقس الرديء، فجأة، على متن الحصان ميتاً أكثر منه حياً. ليس الأمر أنه يعجز عن البقاء واقفاً فحسب - بل يضاف إلى تلك البلية قيامه بشراء

سمكة كبيرة طازجة من القامشلي. لكن حال السمكة تسوء، بسبب اضطراره إلى الانتظار في المدينة. ثم يحضرها معه لسبب لا يمكن قبوله! تدفن السمكة على عجل ويذهب منصور إلى فراشه وهو يئن ويغيب عن الأنظار ثلاثة أيام. أما نحن، فنستمتع، في تلك الأثناء، بالخدمة البارعة التي يقدمها صبري.

وأخيراً يحين موعد زيارة بركان تل كوكب. فيتطوع فرheid للعمل دليلاً لنا، وقد لاح على سحنته الذعر أكثر من أي وقت مضى، لأنه «يعرف المنطقة». نعبّر نهر جفجفع على جسر متهاالك وندع أنفسنا لقيادة فرheid البائسة.

لكن أمورنا ليست بذلك السوء، في الواقع، بمعزل عن فرheid الذي يكاد القلق يقضي عليه في الطريق. إذ يلوح كوكب في الأفق باستمرار وهو أمر مفيد، لكن الأرض الصخرية التي علينا عبورها تزداد سوءاً مع دنونا من البركان الخامد.

هيمنت أجواء التوتر على البيت قبل انطلاقنا - فقد نشب خلاف حاد حول قطعة صابون صغيرة سرعان ما تحول إلى هياج جماعي. ثم يقول رؤساء العمال ببرود إنهم يفضلون عدم الذهاب في الرحلة، لكن الكولونيل يرغمهم على ذلك. فيستقلون ماري الزرقاء من جهتين مختلفتين ويجلسون وقد أدار كل منهم ظهره للآخر! ويجلس سركيس بينهما في وضعية القرفصاء كالدجاجة ويمضي الرحلة دون أن يكالم أحداً. يصعب تحديد من تشاجر مع من بالضبط. لكنهم ينسون كل شيء مع وصولنا إلى كوكب. كنا نتوقع أن يكون في انتظارنا منحدر سلس وأرض مفروشة بالأزهار، بيد أننا نفاجأ، مع وصولنا، بمنحدر حاد كالجدار وبأرض تغطيها أحجار بركانية سوداء زلقة. يرفض

ميشيل وفرهيد الصعود منذ البداية بحزم، أما الباقون فيحاولون.
وسرعان ما أستسلم وأجلس أرضاً كي أستمتع بمراى الآخرين وهم
يزلون ويلهثون ويتعثرون. وينتهي الأمر بعبد السلام بأن يكمل طريقه
على أربع!

هنالك فوهة أصغر نتناول الغداء على حافتها. وهنالك كذلك
الكثير من الأزهار، فيالها من لحظات جميلة. يحيط بنا من كل
الجهات مشهد ساحر وتلوح تلال جبل سنجار من مسافة ليست
بالبعيدة. السكون مطبق في هذا المكان الرائع. وتجتاحني موجة من
السعادة وأدرك، في تلك اللحظة، مقدار حبي لهذه البلاد - وكم إن
الحياة فيها كاملة ومرضية.

الفصل التاسع

وصول ماك

يشارف الموسم على النهاية ويحين موعد انضمام ماكس إلينا ونحن نتطلع للقاءه قداماً. يطرح بامبس العديد من الأسئلة عن ماك ويقابل بعض إجاباتي بعدم التصديق. هنالك حاجة إلى وسادة جديدة، فنشتري واحدة من القامشلي، هي أفضل ما نجده، لكنها صلبة كالرصاص بما لا يقبل أي نقاش.

«لا يمكن للزميل العزيز أن ينام على هذا الشيء»، يقول بامبس.

أؤكد له أن ماك لا يمانع في النوم على أي شيء.

«البراغيث والبق لا تقترب منه، ولا تثقل كاهله أية أمتعة أو مقتنيات شخصية». ثم أضيف وأنا أتذكر: «ربما باستثناء بساطه ذي النقوش المربعة ودفتر يومياته».

يبدو بامبس أكثر ارتياحاً من ذي قبل.

يحين يوم وصول ماك - الذي يصادف يوم عطلتنا، فنخطط لحملة معقدة. يغادر الكولونيل إلى القامشلي في الخامسة والنصف صباحاً بالسيارة بيلو كي ينتهز فرصة انتظار ماك في قص شعره. (والكولونيل يقص شعره باستمرار لأنه يصر على الالتزام بالحلاقة العسكرية!).

نتناول طعام الفطور في السابعة ونغادر في الثامنة إلى عامودا

حيث من المقرر أن نلتقي هناك بالآخرين ونمضي معاً إلى رأس العين كي نفحص بضعة تلال في الأرجاء. (عطلاتنا هي على الدوام أشبه بعطلات سائقي الحافلات!). يرافقنا في الحملة، كذلك، كل من صبري وديمثري اللطيف، فيتألقان ويتعلان حذائين لامعين ويعتمران قبعتي هومبورغ ويرتديان سترتين أرجوانيتين ضيقتين عليهما، ضيقتين للغاية. أما ميشيل الذي علمته تجاربه السابقة المريرة الكثير، فيكتفي بملابس العمل - لكنه يضع طماقين أبيضين في دلالة على حس العطلة لديه.

عامودا قدرة كالعادة، بل إنني لا أتذكر أنني شاهدت فيها هذا العدد من جيف الخرفان المتفسخة من قبل. الكولونيل وماك لم يصلا بعد، فتراودني فكرة أن يبيلو ربما يكون قد خذل الكولونيل كالعادة.

بيد أنهما سرعان ما يصلان. وبعد القيام ببعض المشتريات (الخبز على رأسها - فخبز عامودا ممتاز)، نتحضر للانطلاق كي نفاجأ ببيلو وقد حاد عن سلوكه الطيب الذي أبداه حتى الآن، إذ تفرغ إحدى عجلاته من الهواء، فيهرع ميشيل وصبري كي يعالجا الأمر ويحتشد حولهما جموع من الناس يزدادون، بالتدريج، التصاقاً بهما - كما هي عادة العاموديين.

نتابع المسير أخيراً. ثم بعد مرور ساعة، يكرر ببيلو سلوكه الشرير فتفرغ عجلة أخرى من الهواء. مزيد من عمليات الإصلاح، لكن، يبدو الآن أن عدة ببيلو لم تعد صالحة. فالرافعة لا تعمل ومضخة الهواء معطلة تماماً. لكن صبري وميشيل يجترحان المعجزات فيستخدمان أسنانهما وأظفارهما في سد الأجزاء التالفة من الخرطوم.

وأخيراً، نستأنف رحلتنا من جديد بعد أن أضعنا ساعة ثمينة. ثم

نصل إلى واد امتلاً بالماء على نحو غير منتظر - فتوقف وتداول في مسألة ما إذا كان اجتياز الوادي بسرعة كفيلاً بإخراجنا منه.

ميشيل وصبري، بالطبع، من أنصار الرأي القائل إن الأمر ممكن بمشيئة الله وواسع رحمته. لكننا نقرر، لبالح الأسف، أن نتعقل وقد أخذنا في الحسبان أنه إن لم يكن الله تعالى راغباً في التدخل وانتشال هيكل بيلو بمعجزة ما، فإننا سنعلق في الوادي وقد لا نخرج منه.

يخيب قرارنا رجاء سكان القرية المحلية إلى درجة تدفعنا إلى الظن أنهم ربما يجنون قوت يومهم من انتشال السيارات الغارقة. يخوض ميشيل غمار الماء في الوادي لاختبار عمقه، فتراءى ملابس التحتية على نحو مدهش! سروال قطني أبيض غريب معقود على كاحليه بشرطين يبدو معهما كسروال نسائي تحتي من العصر الفيكتوري!

نقرر تناول طعام الغداء بمحاذاة الوادي. وبعد الغداء أجدف في الماء بقدمي مع ماكس - وكان الأمر ممتعاً إلى اللحظة التي برزت فيها أفعى من الماء حارمة إيانا من التجديف.

يدنو منا رجل عجوز ويجلس بجوارنا. يسود الصمت الطويل المعهود الذي يلي إلقاء التحية.

ثم يستفسر منا بأدب جم إن كنا فرنسيين؟ ألماناً؟ بريطانيين؟ إنكليز!

يهز رأسه. «هل أصبحت البلاد تابعة للإنكليز الآن؟ لا أستطيع أن أتذكر. أعرف أنها لم تعد تتبع للأتراك».

نقول: «لا. لم يعد الأتراك موجودين هنا منذ الحرب».

«الحرب؟» يقول الرجل بحيرة.

«الحرب التي دارت منذ عشرين عاماً».

يفكر. «لا أتذكر أية حرب... آه، نعم، في الوقت الذي ذكرته، كان العسكر يتنقلون على السكة الحديدية جيئة وذهاباً. تلك كانت الحرب؟ لم نعرف أنها كانت حرباً. لم تصل إلينا هنا».

ثم ينهض، بعد صمت طويل، ويودعنا بتهديب ويمضي في حال سبيله.

نعود عن طريق تل بندا الذي تتناثر فيه ما تبدو آلافاً من الخيام السوداء. إنهم البدو القادمون من الجنوب من أجل المرعى مع اقتراب فصل الربيع. هنالك ماء في وادي وجه والمشهد برمته ينبض بالحياة. أما بعد أسبوعين، على وجه الاحتمال، فسيصبح المكان خاوياً ويسود الصمت فيه من جديد.

ألتقط لقية من سفوح تل بندا. تبدو القطعة أشبه بصدفة صغيرة، لكنني أكتشف، بعد التدقيق، أنها، في الواقع، مصنوعة من الصلصال وعليها آثار طلاء. تثير هذه القطعة فضولي وأحاول أن أتكهن، من غير جدوى، هوية من صنعها ولأية أسباب. هل كانت تزين مبنى ما أو صندوق أدوات تبرج أو طبقاً؟ هل هي صدفة بحرية - من ذا الذي خيل إليه أو علم أن البحر كان يغمر تلك المنطقة وهي على ما هي عليه من يابسة كل تلك الآلاف من السنين؟ أدعو ماكس إلى التخمين معي - لكنه يقول بحذر إننا لا نملك أية بيانات - ثم يستدرك بلطف إنه سيستعلم من أجلي إن تم العثور على أشياء من النوع نفسه في أماكن أخرى. أما ماك، فلا أنتظر منه مجرد المحاولة - فهذا ليس من طباعته والأمر لن يثير اهتمامه، في حين يبدي بامبس قدراً أكبر بكثير من اللطف ويوافق بحماسة على الانخراط في اللعبة. ويستمر البحث

عن «تنويعات على الصدفة الصلصالية» لبعض الوقت، إلى أن ينتهي الأمر بنا إلى الالتقاء عند الكولونيل الذي جمع أشياء كلها رومانية (في انحراف رهيب عن نوعية التنقيب الذي نقوم به). أوافق، مكرهة، على تجشم عناء التقاط صورة فوتوغرافية لمشبك روماني كان موجوداً بين لقانا (التافهة)، بل وأخصه بلوحة تعريف!

نعود إلى البيت والبهجة تغمرنا، فيهرع الشيخ للترحيب بـماك. «ها، الخواجة المهندس!». ويقبله بحرارة على وجنتيه.

يضحك الكولونيل بصوت خافت، فيحذره ماكس: «سوف تلقى المعاملة نفسها في المرة القادمة».

«لن أسمح لنفسي أن يقبلني هذا العجوز القميء؟»

فترأهه على ذلك، لكنه يستمر على تصلبه وترفعه. يخبرنا ماكس أنه، هو نفسه، استقبل كما يليق بأخ وتلقى عناقاً قلبياً حاراً— «لكن ذلك لن يحدث لي»، يقول الكولونيل بحزم.

يرحب رؤساء العمال بـماك بحرارة ويغدقون عليه الكلمات بالعربية، في حين يجيبهم بالإنكليزية كالمعتاد.

«آه، الخواجة ماك!»، يتنهد علاوي. «ما يزال مضطراً إلى الصغير كي يحصل على ما يريد!».

يتجسد أماننا عشاء حافل في أقل من لحظة، تليه حلويات خاصة احتفالاً بالعيد وبقدوم ماك (حلويات تركية، باذنجان محفوظ، قضبان شوكولا والسيجار)، ثم نجلس ونتكلم، ولو لمرة واحدة، في شؤون لا علاقة لها بعلم الآثار.

نتناول مسألة الأديان بشكل عام، وهي مسألة شائكة في هذا الجزء

الخاص من العالم لأن سورية تحفل بطوائف متعصبة من كل الألوان - ترغب كل طائفة منها في جز أعناق الطوائف الأخرى لأسباب وجيهة! ومن هناك، ننتقل إلى مناقشة قصة السامري الصالح. تتخذ كافة قصص الكتاب المقدس والعهد الجديد واقعية خاصة في هذا المكان وتمتع بمكانة مميزة. فهي كامنة في اللغة وفي العقيدة اليومية التي نسمعها باستمرار حيثما حللنا، وكثيراً ما أباحت بأن الاهتمام يتناول، أحياناً، جوانب غير تلك المتعارف عليها على نطاق واسع. إذ يتبين لي، فجأة، في قصة إيزابيل مثلاً، أن طلاء وجهها وزينة شعرها هما، بالضبط، ما تعنيه «إيزابيل» في الأوساط البروتستانتية البيوريتانية. أما هنا، فالأمر لا يتعلق بطلاء الوجه أو بزينة الشعر - فكل النساء العفيفات يطلون وجوههن (أو يقمن بوشمها) ويصبغن شعورهن بالحناء - بل حقيقة أن إيزابيل «أطلت من النافذة» - وهو فعل يفتقر إلى الاحتشام بالتأكيد!

ثم نقارب العهد الجديد حين أسأل ماكس أن يعيد علينا جوهر حواراته الطويلة مع الشيخ - لأن نقاشاتهما تقوم، كلياً، على الأمثال - إذ يلجأ المرء، كي يعبر عن رغباته أو مطالبه، إلى قصة تحمل إشارة إليها - فيقابلها الطرف الآخر بقصة أخرى تقلب الطاولة - وهلم دو اليك. أما اللغة المباشرة، فلا تستخدم على الإطلاق.

تتخذ قصة السامري الصالح، في هذه الأرجاء، واقعية لا يمكن أن تحملها في أجواء الشوارع المزدحمة والشرطة وسيارات الإسعاف والمستشفيات والمؤسسات العامة المعنية بتقديم المعونة. فإن سقط رجل على حافة الطريق الصحراوي الشاسع بين الحسكة ودير الزور، فإن هذه القصة يمكن أن تتكرر بسهولة في أيامنا هذه،

وهي تظهر القيمة الكبيرة التي تتخذها الشفقة في عيون سكان الصحراء.

ثم يباغتنا ماكس بالسؤال عن كم واحد منا سيهب لنجدة إنسان آخر حيث لا شهود ولا قوة رأي عام ولا معرفة أو حس. بمعنى الامتناع عن مد يد العون؟

«كلنا بالطبع»، يجيب الكولونيل بحزم.

«حقاً؟» يجيب ماكس بإصرار. «رجل ممدد في الأرض ويحتضر. تذكر أن الموت هنا ليس بتلك الأهمية. أنت على عجلة من أمرك. لديك ما تقوم به ولا تريد لشيء أن يؤخرك أو يزعجك. وليس للرجل أية صلة قرابة بك. ولن يعرف أحد إن كنت قد قلت، في نهاية المطاف، إن الأمر لا يعينك وإن أحداً آخر سيتولى الأمر، الخ... الخ...».

نستغرق، جميعاً، في كراسينا ونفكر وقد شعرنا، كلنا، على ما أظن، بشيء من الانكسار. هل نحن واثقون تماماً بجوهرنا الإنساني؟ وبعد صمت طويل، يقول بامبس ببطء: «أظن أنني سأمد له يد العون... نعم، أظن أنني سأقوم بذلك. ربما أذهب في حال سبيلي، ثم، قد أشعر بالعار وأعود إليه».

يوافقه الكولونيل.

«بالضبط، لا يمكن للمرء أن يشعر بالراحة».

يقول ماكس إنه يظن، بالفعل، أنه سيقوم بذلك، لكنه ليس متأكداً من نفسه تماماً وأتفق في الرأي معه.

يسود الصمت بيننا لبعض الوقت ثم أنتبه إلى أن ماك، كالعادة، لم يدل بدلوه.

«ماذا كنت لتفعل يا ماك؟»

يستيقظ ماك من ذهوله اللذيذ ويتكلم وقد فوجئ قليلاً: «أنا؟ آه، كنت لأمضي. لم أكن لأتوقف».

«لم تكن لتتوقف؟ على الإطلاق؟»

نظر إليه باهتمام في حين يهز رأسه الرقيق.

«الناس يموتون كثيراً في هذه الأرجاء. يستطيع المرء أن يشعر أن الأمر لا يعود يعني له شيئاً، إن عاجلاً أو آجلاً. لا أتوقع أن يقف أحد من أجلي».

لا، هذا صحيح، لا يتوقع ماك ذلك.

ثم يمضي بصوته اللطيف قائلاً.

«أظن أنه أفضل للمرء أن يمضي في حال سبيله - دون أن يلهيه الآخرون والأحداث باستمرار».

نستمر في النظر إليه باهتمام. وفجأة، تدهمني فكرة.

فأقول: «لكن فلنفترض أن الأمر يتعلق بحصان».

«آه، حصان!»، يقول ماكس وقد استعاد إنسانيته وحيويته على نحو مفاجئ ولم يعد مستغرقاً في ملكوته البعيد. «الأمر سيكون مختلفاً تماماً! كنت، بالطبع، لأقوم بكل ما هو ممكن من أجل الحصان».

فتزجر، جميعاً، ضاحكين ويبدو وكأنه قد بوغت.

اليوم هو يوم الإمساك بالتأكيد. فقد أصبحت الحالة الصحية لعبد السلام موضوع الساعة في الأيام القليلة الماضية. ووصفت له كل أنواع المليينات. لكن النتيجة أنه أصبح، «أكثر وهناً»، كما يقول.

«علي أن أذهب إلى القامشلي يا خواجه كي آخذ حقنة ترد لي قوتي».
 أما الحالة الصحية لصالح حسن فأكثر خطورة. إذ قاومت أمعاؤه
 كل أنواع الوصفات - من أكثرها لطفاً كشراب إينو إلى أشدها ضراوة
 متمثلة بنصف زجاجة من زيت الخروع.

ما يزال لدى ماكس بعض المخزون من عقار طبيب القامشلي
 الكفيل بشفاء حصان. فيعطي المريض جرعة كبيرة مؤكداً له أنه
 سينفحه بقشيشاً مجزياً «إن تحركت [أحشاؤه] قبل المغيب».

فيلتئم شمل أصدقائه وأقربائه حوله في الحال ويمضون فترة بعد
 الظهرية في الدوران معه حول الأكمة مشجعين إياه بالصيحات
 والنصح وعيونهم شاخصة بقلق على الشمس التي توشك على
 المغيب.

تكاد المهلة تنقضي. ثم، بعد ربع ساعة تقريباً من إطلاق صافرة
 نهاية يوم العمل، تتناهى إلى مسامعنا أصوات صيحات وتهليل.
 وتنتشر الأبناء كالنار في الهشيم! لقد فتحت بوابات الفيضان! ويتحلق
 حول الرجل الشاحب حشد صاخب مرافقاً إياه إلى البيت كي ينال
 المكافأة الموعودة!

أدار صبري، الذي يتولى بالتدريج المزيد من المسؤوليات، مؤسسة
 براك بقبضة حديدية - معتبراً أنها لم ترق بعد إلى المستوى المطلوب! فهو،
 مثل الآخرين، غيور على «سمعتنا». ينجح صبري في إقناع
 ميشيل بأن يتنكر لعقيدة «الإيكونوميا» وأن يتتاع من البازار في
 القامشلي أطباقاً للحساء. هكذا، تشق هذه الأطباق، بالإضافة إلى
 قدر كبير، طريقها إلينا كل مساء وتحتل مساحات واسعة من الطاولة
 الصغيرة، فنجد أنفسنا مضطرين إلى وضع كل شيء آخر على السرير

بحذر شديد! ثم ينسف مفهوم فرهيد عن كونك تستطيع أن تأكل كل شيء باستخدام سكين وتظهر مجموعة مذهلة من أدوات المائدة. كما يمنح صبري هايو حماماً ويحل عقد شعرها بمشط كبير (اشتراه ميشيل بحقد) بل إنه يعقد حول عنقها طوقاً من الساتان الوردي الرخيص. هكذا تكرر هايو نفسها له!

وصلت زوجة السقاء مع ثلاثة من أطفاله العشرة. (يخاطبني ماكس بلوم: «هذا صنيع يديك»). وهي امرأة نائحة وبغيضة بعض الشيء. أما الأطفال فمنفرون على نحو استثنائي. فأنوفهم، بصريح القول، في حالة تبعث على الغثيان. لماذا يعتبر سيلان الأنف عندما يترك وشأنه حكراً على صغار الإنسان؟ إذ لا يبدو أن صغار القطط والجراء وصغار الحمير تعاني من هذا البلاء.

يعلمهم ذووهم الشاكرون وجوب تقبيل أطراف أثواب المحسنين الكرام في كل فرصة ممكنة، فيطيعون الأمر متملصين من كل محاولاتنا الإفلات من هذا الطقس! ثم تبدو أنوفهم في حال أفضل وأشاهد ماكس وهو يرمق كمة بنظرة تعوزها الثقة!

نستهلك، في هذه الأيام، كميات كبيرة من الحبوب المسكنة لمواجهة الصداع. فالجو، الآن، قانظ وعاصف. يستغل رجالنا فضائل العلم بشقيه الغربي والشرقي معاً. فيتلعون الحبوب المسكنة التي نقدمها لهم ثم يهرعون إلى الشيخ الذي يضع على جباههم أقراصاً معدنية ساخنة حتى الاحمرار «كي يطرد الروح الشريرة». أما أنا، فلا أدري، على وجه التحديد، الطرف الذي يعزى إليه الفضل بالشفاء! يكتشف منصور، هذا الصباح، أفعى في غرفة نومنا عند دخوله إليها «ترتيبها». الأفعى ملتفة على نفسها في السلة تحت المغسلة.

يسود الهرج والمرج ويسارع الجميع كي يشاركوها في قتلها. أما أنا، فأسمع برعب، على مدى الليالي الثلاثة التالية قبل استغراقي في النوم، صوت فحيح. ثم أنسى الأمر برمته.

أسأل ماك على الفطور ذات صباح إن كان يرغب في الحصول على وسادة أنعم وأغمز بامبس بطرف عيني.

فيجيني ماك وقد بدا أنه أخذ على حين غرة: «لا أظن ذلك. وهل هنالك من عيب في وسادتي؟»

أرمي بامبس بنظرة ظفر فيبتسم بتكشيرة.

ثم يعترف لي فيما بعد: «لم أصدقك في ذلك الحين. ظننتك تختلقين قصة عن ماك، لكنه، في الواقع، شخص لا يصدق. يبدو أن لا شيء مما يلبسه يتسخ أو يتمزق أو يتجدد. وهو، كما تقولين بالضبط، لا يملك شيئاً في غرفته باستثناء بساطه ودفتر يومياته، بل إنه لا يحتفظ ولو بكتاب. لا أعرف كيف يتدبر شؤونه.»

أطوف بنظري على النصف الخاص بامبس من الغرفة التي يشارك الكولونيل إياها، الذي تتناثر فيه من غير ترتيب علامات على شخصيته العامرة بالحوية. وحدها الجهود المضنية التي يبذلها الكولونيل هي ما يحول دون حصول اجتياح لنصف الغرفة المخصص له.

فجأة، يبدأ ميشيل بضرب ماري الزرقاء المتوقفة تحت النافذة بمطرقة كبيرة فيطير بامبس إلى الخارج كالصاروخ طالباً منه التوقف!

ييدي كل من ماكس وبامبس، في هذه الفترة وقد حل الحر، تبايناً كبيراً في طريقه ملبسهما. إذ ينزع بامبس عنه كل ما يستطيع خلعه. أما ماكس، فينتهج الطريقة العربية ويضع على جسده كل ما هو متاح.

وهو الآن يرتدي معطفاً ثقيلاً من التويد ولا يبدو عليه أنه يعير أي اهتمام للشمس.

أما ماك، فنلاحظ أن الشمس لم تلفحه!

اقتربت اللحظة المحرقة، لحظة «الاققسام». فمع انتهاء الموسم، يحضر مدير الآثار أو يرسل مندوباً عنه لتقاسم حصيلة الموسم.

تتم هذه العملية، في العراق عادة، على مستوى القطعة وتستغرق عدة أيام.

أما في سوريا، فالنظام أشد بساطة. إذ يترك لماكس أمر توزيع كل ماتم العثور عليه إلى قسمين بالطريقة التي يريتها. ثم يأتي ممثل الجانب السوري ويفحص المجموعتين ويختار تلك التي ستعود ملكيتها إلى سورية، وتوضب المجموعة الأخرى من أجل إرسالها إلى المتحف البريطاني. كما يتم، عادة، اقتراض أية قطعة فريدة أو ذات أهمية خاصة قد يضمها النصف السوري كي تدرس وتعرض وتصور، الخ... في لندن.

ويكمن الشقاء الحقيقي في تشكيل المجموعتين. فانت محكوم بخسارة قطع تريدها بشدة، عليك، بالتالي، أن تضبط التوازن بين المجموعتين. يستدعينا ماكس، جميعنا، لمساعدته في فرز القطع إلى فئات. مجموعتان من الفؤوس الحجرية، مجموعتان من التماثيل وهكذا: قدور، حلي، أغراض مصنوعة من العظام، ... ثم ينادينا، الواحد تلو الآخر.

«الآن، أية مجموعة من الاثنتين ستأخذين؟ أ أو ب؟»

أتأمل المجموعتين.

«كنت لآخذ المجموعة ب.»

«حقاً؟ حسناً. أرسلني بامبس.»

«بامبس، أ أو ب؟»

«ب.»

«كولونيل؟»

«أ بالتأكيد.»

«ماك؟»

«ب على ما أظن.»

«هم»، يقول ماكس. «ب مجموعة قوية بالتأكيد.»

ثم يسحب تعويذة حجرية صغيرة جميلة على شكل رأس حصان من المجموعة ب ويضمها إلى المجموعة أ، مستبدلاً بها حملاً قبيحاً بعض الشيء ويجري بضعة تعديلات إضافية.

وندخل من جديد. وهذه المرة، نرجع المجموعة أ.

فيشد ماكس شعره.

وينتهي الأمر بنا، في نهاية المطاف، إلى أن نفقد كل إحساس بالقيمة والمظهر.

في ذلك الوقت، يعم المكان نشاط محموم. بامبس وماك يرسمان كالمجانين ويهرعان إلى التل لرفع مخططات البيوت والمباني. ويمضي الكولونيل الليل في العمل على اللقى التي لم يتم فرزها بعد تصنيفاً وتسمية. وآتي لمساعدته ونختلف بعنف على التسميات.

«رأس حصان - من الحجر الصابوني.»

أنا: «إنه كبش».

«لا. انظري إلى اللجام».

«هذا قرن».

«هيه، ماك. ما هذا؟»

ماك: «إنه غزال».

الكولونيل: «بامبس - ماذا تدعو ذلك؟»

أنا: «كبش».

بامبس: «يبدو وكأنه جمل».

ماكس: «لم يكن هنالك من جمال. الجمل حيوان حديث للغاية».

الكولونيل: «حسناً. ماذا تقول عن هذا؟»

ماكس: «بوكرانيوم أسلوبي!».

على هذه الشاكلة يمضي الأمر بين تعاويذ صغيرة متنوعة مبهمة
تمثل كلى وأخرى ملتبسة ومحيرة نطلق عليها، بتحفظ، اسماً مناسباً هو
«قطعة عبادة».

أحمض الأفلام وأطبعها وأحاول الإبقاء على الماء بارداً قدر
الإمكان - أقوم بمعظم العمل في الصباح الباكر، في الساعة السادسة.
فالجو يصبح قائظاً للغاية في هذا الوقت من العام.

يغادرنا عمالنا يوماً بعد يوم.

«إنه موسم الحصاد يا خواجة. علينا أن نذهب».

اختفت الأزهار منذ أمد طويل، وقد أكلتها قطعان الماشية، واكتسى
التل بلون أصفر باهت، والسهول حوله مغطاة بالذرة والشعير. الموسم

هذه السنة طيب.

وأخيراً، يحل اليوم المحتوم. فالسيد دونان وزوجته قادمان هذا المساء. إنهما صديقان قديمان سبق وقابلناهما في بعلبك عندما كنا في بيروت.

يحل المساء ويتم إعداد عشاء ممتاز (أو عشاء نظنه ممتازاً)، وتستحم هايو. يلقي ماكس نظرة متألمة أخيرة على المجموعتين اللتين تم توزيعهما على طاوولات كبيرة من أجل المعاينة.

«أظن أن التوازن محقق. فإن خسرنا تعويذة رأس الحصان الصغيرة الجميلة تلك وذلك الحتم الأسطواني النادر (المشير للاهتمام إلى حد كبير!)، حسناً، فسحصل على إلهة شاغر بازار الأم وعلى التعويذة ذات الفأس المزدوج وذلك القدر ذي النقوش الدقيقة... لكن، بالطبع، هناك ذلك القدر العتيق المطلي على الجانب الآخر. آه، اللعنة. علينا أن نحل هذه المشكلة الآن. أيهما تختارون؟»

نرفض بحسنا الإنساني المشترك أن تستطيل اللعبة أكثر من ذلك ونقول إننا لا نستطيع، ببساطة، أن نقرر. فيتمتم ماكس واصفاً دونان بالحكم الداهية. «سينال النصف الأفضل بالتأكيد.»

فنقوده بعيداً بحزم.

تمضي الساعات ويحل الليل ولا أثر للزوجين دونان.

«أتساءل عما يمكن أن يكون قد حل بهما؟» يفكر ماكس. «إنهما، كغيرهما في هذه الأرجاء بالطبع، يقودان بسرعة تسعين ميلاً بالساعة. أمل أنهما لم يتعرضا لحادث.»

العاشرة ليلاً، الحادية عشرة ليلاً ولم يصل آل دونان بعد.

يتساءل ماكس إن كانا قد ذهبنا إلى براك بدلاً من شاغر.

«لا. بالتأكيد لا. إنهما يعلمان أننا نقيم هنا».

وعند منتصف الليل، نستسلم ونمضي إلى أسرتنا. فالتاس هنا لا يستقلون السيارات كثيراً بعد حلول الظلام.

ثم بعد ساعتين، نسمع صوت سيارة. يهرع الفتية إلى الخارج وينادوننا بحماسة. فذهب من أسرتنا ونرتدي ما نصادفه ونخرج إلى غرفة المعيشة.

إنهما الزوجان دونان وقد ذهبنا إلى براك عن طريق الخطأ. فقد سألا، عند مغادرتهم الحسكة، عن الطريق إلى «موقع التنقيب عن الآثار» فأشار عليهما رجل كان يعمل في تل براك باستمرار بالذهاب إليه. ثم ضلنا الطريق واستغرق العثور على التل بعض الوقت. ولدى وصولهما، رافقهما دليل إلى شاغر عبر الأراضي الريفية.

لقد أمضينا نهارهما في السيارة، بيد أنهما يبدوان سعيدين للغاية وغير مكدرين.

يقول ماكس: «يجب أن تتناولوا شيئاً».

فتقول مدام دونان بتهذيب إنه لا ضرورة لتقديم شيء، بل يكفي كأس من النبيذ وقطعة من البسكويت.

في تلك اللحظة بالذات، يدخل منصور وفي إثره صبري وبرفتهمنا وجبة عشاء كاملة من أربع جولات! أما كيف تمكن الخدم من تدبير الطعام بهذه الطريقة فأمر أجهله تماماً. فهو أشبه بالمعجزة. يتبين لنا أن الزوجين دونان لم يتناولوا شيئاً وأنهما جائعان للغاية، فنأكل ونشرب حتى الساعات الأخيرة من الليل ومنصور وصبري واقفان يرمقاننا بابتسام.

وأثناء ذهابنا إلى النوم، يقول ماكس كالحالم إنه يود لو يأخذ منصور
وصبري معه إلى إنكلترا. فأقول وكنت، بدوري، أرغب في الحصول
على صبري: «إنهما نافعان للغاية».

أتصور، في لحظة الصمت التي تلت ذلك، الأثر الذي يمكن أن
يتركه صبري على خدمة المنزل على الطريقة الإنكليزية، بسكينه
الكبيرة - بمنزله المشبع بالزيت وبذقنه غير الحليقة وبضحكته الكبيرة
المجلجلة، وباستخدامه الرائع للقطع القماشية المخصصة لتنظيف
الزجاج!

الخدم في الشرق كالجان. فهم يبنشقون على حين غرة من حيث لا
تتوقع وتجدهم، لدى وصولك، في الانتظار.

لم نكن قد أشعرنا أحداً بقدمونا، لكننا وجدنا ديمتري، هناك،
ينتظرنا. لقد قطع كل ذلك الطريق من الساحل كي يكون حاضراً عند
وصولنا.

«كيف عرفت أننا قادمون؟»

«الأمر معروف أنه سيكون هناك تنقيب هذا العام أيضاً».

ثم يضيف بلطف: «وهو أمر موضع ترحيب. فأنا الآن أعيل أسرتي
اثنين من أشقائي، حيث تضم الأولى ثمانية أطفال والثانية عشرة. هم
يأكلون كثيراً. ولذلك فإن كسب المال أمر جيد. قلت لزوجتي أخي:
'أترين كم إن الله عظيم. لن نجوع هذا العام - لقد نجونا - الخواجات
قادمون من أجل التنقيب!'.»

يمضي ديمتري بعيداً بلطف عارضاً سرواله الموسليني المزدان برسوم
الأزهار. دمائه بتعبيراته المتأملّة تبرز أمومة عذراء شاعر بازار بما لا

يقاس. إنه يحب الجراء وصغار القطط والأطفال. وهو، وحده، دوناً عن بقية الخدم، لا يتشاجر مع الآخرين. بل إنه لا يستعمل السكين إلا في المطبخ.

ينتهي كل شيء! أنجزت عملية الاقتسام بعد الفحص والتدقيق والتفكير ووقفنا نتأمل العملية والألم المعتاد يعتصر قلوبنا. يستغرق الأمر من السيد دونان ساعة كي يتخذ قراره. ثم يمد يده بإشارة غالية سريعة.

«*Et bien*، سوف آخذ هذه».

أما نحن، فنتمنى على الفور، بما تمليه الطبائع البشرية، لو أنه اختار المجموعة الأخرى.

ينتهي التشويق، على كل حال، وتتلشى أجواء التوتر، ويسود الفرح ويتحول الاجتماع إلى حفلة. ثم نلتفت إلى موقع التنقيب ونفحص المخططات والرسوم المعمارية ونتوجه إلى تل براك وناقش أعمال التنقيب للموسم القادم وما إلى ذلك. يتجادل ماكس والسيد دونان في التواريخ الدقيقة وفي تعاقب العمل. وتروّح مدام دونان عنا بملاحظات دقيقة والفكهة. نتجاذب أطراف الحديث بالفرنسية على الرغم من أنه يخيل إلي أنها تجيد الإنكليزية. يضحكها ماك بالتزامه الصارم بكلمتي *oui* أو *non*.

«*Ah, votre petit architecte, il ne sait pas parler? Il a tout de même l'air intelligent!*».^(٢٩)

٢٩- بالفرنسية في الأصل وترجمتها: "أه، إنه لا يجيد الكلام، مهندسك المعماري الصغير؟ على الرغم من أنه يبدو ذكياً" (المترجم)

فنكرر الجملة لماك الذي لا يبدي أي اضطراب.

وفي اليوم التالي، يتحضر الزوجان دونان للرحيل. التحضيرات ليست كثيرة - إذ يرفضان أخذ أي طعام أو شراب معهما.

يهتف ماكس: «ستأخذان ماء بالتأكيد»، مذكراً إياهما بالمبدأ القائل بعدم السفر في هذه الأرجاء دون ماء.

فيهزان رأسيهما بلا مبالة.

«افتراضاً أن السيارة تعطلت».

فيضحك السيد دونان ويهز رأسه.

«آه، لن يحدث ذلك».

ويعلق جهاز التروس وتنطلق السيارة بالأسلوب الفرنسي الصحراوي المعهود. أي بسرعة ستين ميلاً في الساعة!

لم تعد لدينا أية تساؤلات عن أسباب ارتفاع معدلات وفيات علماء الآثار في هذه البقعة من العالم.

أما الآن، فنوضب قطعنا ونستغرق في ذلك عدة أيام! فتملاً الصناديق، الواحد تلو الآخر، وتغلق بإحكام وتدمغ.

ثم يأتي الدور على استعدادنا، نحن للرحيل. ننطلق من الحسكة على طريق قليل الاستخدام يخترق البراري إلى مدينة الرقة الواقعة على نهر الفرات حيث سنعبّر النهر من هناك.

ويقول ماكس: «وسوف نتمكن من إلقاء نظرة على نهر البليخ!».

ينطق كلمة «البليخ» بطريقة نطقه كلمة «جفجغ»، فأخال أنه
يخطط للحصول على قسط من التسلية في منطقة البليخ قبل أن
يترك التنقيب في سورية نهائياً.

أقول ببراءة: «البليخ؟»

فيجيبني بوقار: «تلال عظمة على طول النهر».

الفصل العاشر

الرحيل إلى الرقة

ها نحن ننتقل من جديد!

الألواح الخشبية تغلف المنزل من كل جوانبه وسركيس يثبت الألواح الأخيرة على الأبواب والنوافذ، في حين يقف الشيخ جانباً وقد انتفخت أوداجه بخيلاء. سيتم تأمين كل شيء إلى أن نعود! وسيعين أكثر رجال القرية مصداقية خفياً لدينا! حيث سيقوم، على ما يقول الشيخ، بحراسة المنزل ليل نهار!

«لا تخف يا أخي!»، يصرخ الشيخ. «سيخضع المنزل للحماية حتى لو اضطررت لدفع المال للرجل من جيبي».

يتسم ماكس، عالماً تمام العلم أن المكافأة المجزية المخصصة للخفير ستنتهي، على الأرجح، إلى جيب الشيخ، على شكل خوات.

ويجيب: «سيكون كل شيء على ما يرام في ظل رعايتك. لن تتعرض محتويات البيت للتلف بسهولة. أما من الخارج، فسيكون من دواعي سرورنا أن نسلمك إياه وهو على أفضل حال عند حلول ذلك اليوم».

«أبعده الله عنا!»، يقول الشيخ، «لأنك لن تعود إلينا بعد ذلك

اليوم وهو أمر سيكون سبباً لشقائي». ثم يضيف برجاء: «ربما ستقرب موسماً آخر فحسب. أليس كذلك؟»

«موسماً أو اثنين - من يدري؟ الأمر متعلق بمقتضيات العمل».

يقول الشيخ: «يوسفني أنك لم تعثر على أي ذهب - بل مجرد حجارة وفخار».

«هذه الأشياء تهمنا كذلك».

فتلمع عينا الشيخ بشراهة: «لكن يبقى الذهب هو الذهب. في أيام البارون...».

فيقاطعه ماكس بأناقة:

«وعند عودتنا في الموسم القادم، أية هدية شخصية تود أن أحملها لك من لندن؟»

«لا شيء - لا شيء على الإطلاق. لا أريد شيئاً. كم هو جميل أن يحمل المرء ساعة ذهبية».

«سأذكر ذلك».

«دعنا لا نتكلم عن الهدايا بين الإخوة! فأمنيته الوحيدة هي أن أخدمك وأخدم الحكومة. فإن فرغت جيوبي، فلا بأس من خسارة المال بهذه الطريقة المشرفة».

«لن يهنا لنا عيش إلا إذا تأكدنا أنك ستخرج من العمل هنا بالربح لا بالخسارة».

في هذه اللحظة، يأتي ميشيل من حيث كان يزعج الجميع بالحاحه وصراخه بالأوامر كي يقول إن كل شيء صار جاهزاً وأنا نستطيع الانطلاق.

فيتحقق ماكس من الوقود في الخزان ومن أن ميشيل ملأ الصفائح الاحتياطية كما طلب منه وأنه لم يصب بنوبة «إيكونوميا» مفاجئة. نعم، كل شيء جاهز: المؤن والماء وأمتعتنا وأمتعة الخدم، وماري الزرقاء تكاد تطفح بحمولتها على السطح، كما في الداخل، وعلي وديمتري محشوران بين الأمتعة. أما صبري وفرهيد، فيعودان إلى مسقط رأسيهما في القامشلي ويغادر رؤساء العمال بالقطار إلى جرابلس.

«إلى اللقاء يا أخي!»، يصيح الشيخ ويعانق الكولونيل، على حين غرة، مقبلاً وجنتيه.

فتجتاح الحملة موجة هائلة من الفرح!
ويستحيل وجه الكولونيل أرجوانياً.

ويودع الشيخ ماكس من جديد ويصافح «المهندس» بحرارة.

أستقل بيلو، مع ماكس والكولونيل وماك، في حين ينضم بامبس إلى ميشيل كي يكبح جماح أية «فكرة طيبة» قد تراوده في الطريق. ويعيد ماكس تعليماته على مسامح ميشيل. عليه أن يتبعنا، لكن ليس على مسافة لا تزيد عن ثلاثة أقدام. أما إن حاول دهنس أية مجموعة من الحمير والنساء المسنات، فسيحرم من نصف أجره.

فيتمتم ميشيل بين أنفاسه: «المحمديون!»، لكنه يؤدي التحية العسكرية ويقول بالفرنسية: «Très bien».

«حسناً، هيا بنا. هل الجميع حاضرون؟»

يأخذ ديمتري اثنين من الجراء معه، في حين ترافق هايو صبري.

يصيح صبري: «سأبقيها في أفضل حال حتى السنة القادمة من أجلك».

«أين منصور؟»، يصرخ ماكس. «أين ذلك الأحقق اللعين؟ سنتركه هنا إن لم يظهر. منصور!». «

Présent!»، يصرخ منصور وأنفاسه تتقطع وهو يجري من بعيد نحونا ويجر قطعتين كبيرتين من صوف الخراف تبعث منهما رائحة كريهة.

”لا يمكنك أن تأخذها معك. أوف!“.

”ستساوي الكثير من المال في دمشق!“.

”يالها من رائحة كريهة!“.

”ستكون الشمس كفيلة بتجفيفها إن قمنا بنشرها على سقف ماري ولن تفوح منها أية رائحة“.

”إنها مرفقة. دعها هنا“.

”لكنه محق. إنها تساوي الكثير من المال“، يقول ميشيل. ويتسلق إلى سقف سيارة النقل ويحكم وثاق الجلد باستخدام حبل.

فيقول ماكس مستسلماً: ”لن نشم أية رائحة طالما أن سيارة النقل خلفنا. وهي، على كل حال ستسقط من السيارة قبل أن نصل إلى الرقة. فقد قام منصور بعقد إحدى الأنشطة بنفسه!“.

فيضحك صبري ملقياً رأسه إلى الخلف، وتظهر أسنانه البيضاء والذهبية: ”هه، هه! ربما يرغب منصور في القيام بالرحلة على ظهر حصان!“.

فيتشجج رأس منصور. يبدو أن العمال لن يكفوا عن السخرية من رحلته الشهيرة من القامشلي.

يقول الشيخ بصوت مستغرق: "كم هو جميل أن يكون لدى المرء ساعتان ذهبيتان كي يقرض إحداهما لصديق".

فيعطي ماكس شارة الانطلاق بسرعة.

وتخترق السيارتان تكتل المنازل ببطء وتخرجان إلى طريق القامشلي - الحسكة. ويهتف حشد من الصبية الصغار ويلوحون بأيديهم.

بجتاز قرية تل خنزير التالية، فيخرج الرجال من المنازل ويلوحون ويصرخون. إنهم عمالنا السابقون.

"عودوا في السنة القادمة".

فيصيح ماكس بدوره: "إن شاء الله!".

تنطلق السيارتان على الطريق إلى الحسكة، فنلتفت إلى الخلف كي نلقي نظرة أخيرة على شاغر بازار.

نتوقف في الحسكة ونشتري الخبز والفاكهة ونذهب لوداع الضباط الفرنسيين. فيحشر ضابط فرنسي شاب كان قد قدم للتو إلى دير الزور أنفه برحلتنا.

"أنتم ذاهبون إلى الرقة إذن؟ دعوني أخبركم التالي. لا تتبعوا الشاخصة عند وصولكم إليها. بل اتخذوا الطريق إلى اليمين منها ثم الطريق الذي يتفرع منه إلى اليسار، فتجدون أنفسكم على مسار مباشر يسهل اتباعه. أما الطريق الآخر فمربك للغاية".

فيقاطعه النقيب الذي كان يصغي إلى ما يقول موصياً إيانا بشدة أن نتجه شمالاً باتجاه رأس العين ثم إلى تل أبيض. ومن هناك، نتخذ الطريق بين تل أبيض والرقة، وهو طريق تتردد عليه السيارات كثيراً.

عندئذ، لن يكن هناك أي احتمال للخطأ.

”لكنه أطول بكثير. إنها دورة كبيرة“.

”قد يتبين، في نهاية المطاف، أنه أقصر“.

نشكره على النصيحة، لكننا نصر على الالتزام بمخططنا الأصلي.

يقوم ميشيل ببعض المشتريات الضرورية ثم ننطلق من جديد متخذين الجسر الذي يقطع نهر الخابور.

ثم نصل إلى تقاطع طرق انتصبت فيه شاخصة أو اثنتان. فنقرر أن نتبع نصيحة الضابط الشاب. تشير إحدى الشاخصتين إلى الطريق إلى تل أبيض وتشير الثانية إلى الطريق إلى الرقة، وبين الطريقين يوجد طريق لا تدل عليه أية شاخصة. لا بد أنه الطريق المعني.

ثم يتشعب الطريق، بعد مسافة ليست بالكبيرة، إلى ثلاثة طرق.

”إلى اليسار على ما أظن“، يقول ماكس. ”أم أنه كان يعني الطريق الذي في الوسط؟“

فتتخذ الطريق الأيسر. لكن، لم يمضِ إلا وقت قليل حتى يتفرع هذا الطريق بدوره إلى أربعة طرق.

الأرض هنا مغطاة بالحجارة والنباتات الشوكية، فيصبح السير على الطرق الممهدة الخيار الوحيد المتوفر.

ينعطف ماكس إلى اليسار من جديد، فيقول ميشيل: ”كان علينا أن نتخذ الطريق إلى أقصى اليمين“.

لكن أحداً لم يعره اهتماماً لكثرة ما قادنا، في السابق، في دروب خاطئة.

يهيمن على الساعات الخمس التالية صمت مطبق. لقد تهنا - نحن تائهون في جزء من العالم لا قرى فيه ولا زرع ولا بدو يرعون قطعانهم - لا شيء على الإطلاق.

تزداد الطرق وعورة حتى لا تكاد تتمايز عن الأرض حولها. يحاول ماكس، باستمرار، اتخاذ تلك التي تتجه إلى اليمين تقريباً، أو بكلمة أخرى، إلى الغرب قليلاً من اتجاه الجنوب الغربي، لكن الطرق تزداد مراوغة، فتتلوى وتستدير ثم تنعطف، من جديد، إلى الشمال بعناد.

نتوقف لبرهة من الوقت ونتناول طعام الغداء ونشرب الشاي الذي يعده ميشيل. الحر خائق، ورحلتنا تزداد صعوبة. وتصيني الرجرجة المستمرة والحر الشديد والسطوع المبهر بصداع مؤلم، ناهيك عن أننا، جميعنا، نشعر ببعض القلق.

”حسناً“، يقول ماكس. ”لدينا ما يكفي من الماء بكافة المعايير - ماذا يفعل هذا الأحمق اللعين؟“

فالتفت إلى حيث نجد منصور - المعتوه - يهدر، بجور، ماءنا الثمين ويسكبه على وجهه ويديه!

أتفوق، في هذه المرة، على بذاءة ماكس! فيبدو منصور مذهولاً ومحزوناً قليلاً ويتنهد كما لو كان يفكر في مدى صعوبة إرضاء هؤلاء الناس. إذ يمكن لأي عمل مهما بدا بسيطاً أن يزعجهم.

نستأنف السير من جديد وقد صارت الطرق تستدير وتتلوى بأسوأ من ذي قبل. بل إنها تتلاشى كلياً في بعض الأحيان.

يتجهم وجه ماكس بقلق ويغمغم قائلاً إننا نتجه شمالاً بأكثر مما ينبغي.

بل يبدو أن الطرق الآن أصبحت تتفرع إلى الشمال والشمال الشرقي. فهل علينا أن نعود أدراجنا؟

يقرب حلول المساء. وفجأة تحسن نوعية الأرض حولنا وتخفي النباتات الشوكية وتقل كثافة الحجارة.

”يبدو أننا على وشك الوصول إلى مكان ما“، يقول ماكس. ”أظن أننا نستطيع، الآن، المضي مباشرة عبر الأرض الزراعية“.

يسأله الكولونيل: ”إلى أين تتجه؟“

يقول ماكس إلى الغرب نحو نهر البليخ. إذ نستطيع، إن بلغناه، أن نعثر على الطريق الرئيسي بين تل أبيض والرقة.

ونمضي قدماً. وفجأة، تنقب إحدى عجلات ماري، فنضيق وقتاً ثميناً في استبدالها. الشمس الآن تميل إلى المغيب.

وفجأة، نلمح مشهداً مفرحاً - رجال يسرون على أقدامهم. فيشقه ماكس وينطلق إليهم ويحييهم ويطرح عليهم بعض الأسئلة.

البليخ؟ البليخ أمامنا مباشرة ويمكننا بلوغه في عشر دقائق باستخدام آلة كالتي في حوزتنا. الرقة؟ نحن أقرب إلى تل أبيض منا إلى الرقة.

وبعد خمس دقائق، نشاهد شريطاً أخضر - إنها النباتات المحاذية للنهر. ويظهر من بعيد تل فسيح.

يقول ماكس بطرب: ”نهر البليخ - انظروا إليه، التلال في كل مكان!“.

منظر التلال مهيب في الواقع. فهي واسعة، هائلة، وصلبة للغاية.

يقول ماكس: ”تلال هائلة عظيمة“.

فأجيبه بنبرة استياء، وقد بلغ الألم في رأسي وعيني حدًا لا يطاق:
”من زمان الرومان“.

”أنت محقة“، يقول ماكس. ”هذه هي المشكلة. هذه الكتلة الصماء تعني أسلوب بناء روماني. سلسلة من الحصون. لا تساورني أية شكوك في أن المادة المطلوبة موجودة تحتها، لكن الوصول إليها يتطلب الكثير من الوقت والمال“.

أشعر أنني لا أبالي بعلم الآثار على الإطلاق. فما أنشده الآن هو مكان أتمدد فيه وقدر كبير من أقراص الأسبيرين وكوب من الشاي.
نصل الآن إلى طريق عريض يتجه إلى الشمال وإلى الجنوب، فننعطف جنوباً نحو الرقة.

نحن الآن بعيدون كثيراً عن مقصدنا، ويستغرق الأمر منا ساعة ونصف الساعة قبل أن نرى المدينة منبسطة أمامنا. نصل إلى الضواحي وقد حل الظلام الآن. إنها مدينة محلية بكليتها - لا أثر للبنى الأوروبية فيها. نسأل عن الخدمات الخاصة. الضابط هناك لطيف بالفعل لكنه مرتبك بشأن راحتنا. فالمدينة غير مجهزة لاستقبال المسافرين. وماذا لو اتجهنا شمالاً إلى تل أبيض؟ يمكننا بلوغها في ساعتين إن قدنا بسرعة - حيث سنشعر هناك بالراحة حقاً.

لكن لا أحد، أو أنا، على أقل تقدير، مع كل التعب الذي أعاني منه، قادر على احتمال فكرة التعرض لساعتين إضافيتين من الدرجة والوثب. فيقول لنا الضابط اللطيف إنه توجد غرفتان - بسيطتان للغاية، وإن لم يكن فيهما ما هو أوروبي - وماذا لو كان بحوزتنا أسرتنا؟ وخدمنا؟

نصل إلى المنزل وسط الظلام الدامس. فيدخل منصور وعلي

بالمشاعل وينيران مصباح الكيروسين ويمدان البطانيات. أشتاق إلى صبري بسرعه وكفاءته. أما منصور، فأحرق وبطيء بشكل لا يصدق. علي في الخارج مشغول بانزال الأمتعة. ثم يدخل ميشيل وينتقد منصور على ما يفعله. فيتوقف منصور ويتجادل الاثنان، فأرشقهما بكل ما في حوزتي من ألفاظ عربية. فينظر منصور إلي برعب ويستأنف العمل.

يتم إحضار لفاقة من الملاءات والبطانيات، فأغرق فيها. وفجأة يظهر ماكس بجواري ويده كوب الشاي الذي طال انتظاره. يسألني بمرح إن كنت ما أزال أشعر أنني لست على ما يرام. أجيبه بنعم وأقبض على كوب الشاي وأبتلع أربعة أقراص من الأسبيرين. الشاي بطعم الرحيق. لم يسبق لي أبداً- أبداً- أبداً أن استمتعت بشيء بهذا المقدار! ثم أستلقي من جديد وأغمض عيني.

وأتمتم: "مدام جاكو".

"هاه؟"، ينظر ماكس بدهشة وينحني فوقي. "ماذا قلت؟"

أردد من جديد: "مدام جاكو".

الصلة المنطقية موجودة - أنا أعلم ما أقول - لكن الكلمات تخونني. ترسم على وجه ماكس تعبيرات ممرضة في مستشفى. لا تكذب المريض مهما يكن الثمن!

فيقول محاولاً تهدئة روعي: "مدام جاكو ليست هنا الآن".

فأرميه بنظرة سخط وأغلق عيني بهدوء. ما يزال هنالك الكثير من الجلبة والطعام قيد الإعداد. لكن من يبالي؟ سأغرق في النوم - النوم... وفي اللحظة التي أوشك فيها على الإغفاء - أتذكر تلك الجملة.
بالطبع!

وأردد بكثير من الرضا: "Complètement knock out!"

يقول ماكس: "ماذا؟"

أقول: "مدام جاكو" وأعط في نوم عميق.

أجمل ما في الذهاب إلى النوم من شدة الإرهاق والألم هو تلك المفاجأة الرائعة التي تنتظرك لدى استيقاظك في صباح اليوم التالي حين تجد نفسك وقد استعدت كامل عافيتك وطاقتك.

أشعر أنني مفعمة بالنشاط وأني أتضور جوعاً كذلك.

يقول ماكس: "أتعلمين يا أغاثا؟ أظن أنك كنت في الليلة الماضية محمومة. لقد كنت تهذين وبقيت تتحدثين دون انقطاع عن مدام جاكو."

فأرمقه بازدراء ثم أتكلم حالماً أستطيع وفمي مملوء بالبيض المسلوق.

وأخيراً أقول: "هذا هراء. فقط لو أنك تجشمت عناء الإصغاء، لعرفت بالضبط ماذا كنت أقصد! لكنني أفترض أن عقلك كان مملوءاً بتلال البليخ".

فيقاطعني ماكس وقد استعاد حماسه: "كم سيكون مثيراً، لو تعلمين، أن بحري حفراً تجريبياً في واحد أو اثنين من تلك التلال..."

يدخل منصور وقد أشرق وجهه الغيبي والنزيه سائلاً خاتون عن حالها هذا الصباح.

أقول إنني بخير. لكن منصور حزين، على ما يبدو، لأنني استغرقت في النوم قبل الانتهاء من تجهيز العشاء ولم يشأ أحد إيقافني.

فهل أريد تناول بيضة أخرى الآن؟

أقول: "نعم" وقد التهمت أربع بيضات حتى الآن. لكن هذه المرة،
يكفي لسلقها خمس دقائق!

ننطلق نحو نهر الفرات في الحادية عشرة. النهر عريض للغاية
هنا، والأرض شاحبة، منبسطة ومشرقة والجو سديمي. كل شيء أشبه
بسيمفونية "برتقالية محمرة" على حد قول ماكس لو أنه كان يصف آنية
خزفية.

يتم عبور نهر الفرات في مدينة الرقة باستخدام عبارة بدائية للغاية.
ننضم إلى عدد آخر من السيارات ونجلس ساعة أو اثنتين في انتظار قدوم
العبارة وقد ملأت البهجة قلوبنا.

تصل بعض النساء من أجل تعبئة بعض صفايح الكيروسين بالماء،
وهنالك أخريات يغسلن الملابس. يبدو المشهد برمته أشبه بلوحة جدارية
من أشكال بشرية ذات طول فارع تلبس الأسود وتخفي النصف الأسفل
من وجوهها ورؤوسها شاحخة، وتحمل صفايح معدنية يقطر الماء منها.
يتحركن إلى ضفة النهر هبوطاً ثم يصعدن بتمهل ومن غير استعجال.

أفكر، بإحساس بالحسد، في كم هو جميل أن تحجب وجهك. لا
بد أن الأمر يشعرك بخصوصية بالغة، وبسرية مطلقة. وحدهما عيناك
تطلان على العالم - فتراه من غير أن يراك ...

أخرج المرأة من حقيبة يدي وأفتح علبة مساحقي. "نعم"، أفكر.
"كم هو جميل أن تحجب وجهك!"

اقتراب عودتي إلى المدينة يحرك مشاعري. فأبدأ بالتفكير في بعض
الأشياء... شامبو، مجفف شعر مترف. طلاء أظافر... مغطس مصنوع
من الخزف مزود بالصنابير. أملاح استحمام. إنارة كهربائية... المزيد
من الأحذية!

يقول ماكس: ”ماذا أصابك؟ لقد سألتك مرتين إن كنت قد لاحظت ذلك التل الثاني الذي مررنا بالقرب منه على الطريق من تل أبيض في الليلة الماضية“.

”لم ألاحظه“.

”لم تلاحظيه؟“

”لا. لم أكن ألاحظ أي شيء في الليلة الماضية“.

”لم يكن أصم كالتلال الأخرى. هنالك آثار تعرية من الجهة الشرقية. أتساءل ربما..“.

فأقول بوضوح وحزم: ”لقد تعبت من التلال!“.

”ماذا؟“ ينظر ماكس إلي بالرعب الذي ينتاب عضو محكمة تفتيش من القرون الوسطى لدى سماعه هرطقة جليلة. يقول: ”غير ممكن!“.

”أفكر في أمور أخرى“ وأستعرض لائحة منها، بدءاً بالنور الكهربائي، فيمرر ماكس يده على مؤخرة رأسه ويقول إنه لا يمانع، في النهاية، في أن يحصل على قصة شعر محترمة.

وتنفق، نحن الاثنين، على بوئس أن لا يكون بمقدور المرء الذهاب، على نحو مباشر، من شاغر... فلنقل إلى سافوي مثلاً! فتضيع، والحال كذلك، لذة التباين. إذ نعيش مرحلة من الوجبات العادية والرفاهية المنقوصة تفقد معها متعة إدارة مفتاح نور كهربائي أو فتح صنوبر ماء بريقها.

تصل العبارة الآن، فنصعد بماري على متنها بحذر وفي إثرنا بيلو.

نحن الآن في وسط نهر الفرات الواسع ومدينة الرقة تبتعد شيئاً
فشيئاً وتبدو جميلة ببيوتها الطينية وأشكالها الشرقية.

فأقول بنعومة: ”برتقالية محمرة“.

”أتعنين ذلك القدر المقلّم؟“

فأقول: ”لا. بل الرقة...“

وأردد الاسم بنعومة كتحية وداع قبل العودة إلى العالم الذي
تسري عليه قوانين مفتاح النور الكهربائي.

الرقة...

الفصل الحادي عشر

الوداع يا تل براك

وجوه جديدة وأخرى قديمة!

إنه موسمنا الأخير في سورية. نحن الآن ننقب في تل براك وقد أسدلنا الستار، أخيراً، على شاغر بازار.

فقد قمنا بتسليم بيتنا - بيت ماك - إلى الشيخ (باحفال كبير). كان الشيخ قد اقترض المال ثلاث مرات باسم ذلك البيت، لكنه يبدي اعتزازاً أصيلاً بملكيته على الرغم من كل شيء. فامتلاكه المنزل سيكون، كما يبدو لنا، موأياً لـ «سمعته».

«على الرغم من أنه سيدق عنقه على الأرجح»، يقول ماكس بتأمل، وقد شرح للشيخ كل شيء على نحو مطول، وبالتفصيل، مشدداً على ضرورة معاينة السقف كل عام وإجراء ما يلزمه من ترميم. «بالطبع، بالطبع»، يقول الشيخ. «لن يحدث أي خطأ إن شاء الله!».

فيعلق ماكس قائلاً: «في كلامه الكثير من إن شاء الله. الكثير من إن شاء الله ثم لا ترميم! هذا ما سوف يحصل».

نال الشيخ، بالإضافة إلى المنزل، ساعة ذهبية منمقة وحصاناً -
 كهدايا لا تشمل الإيجار المستحق والتعويض عن المحاصيل.
 أما عن كون الشيخ يشعر بالرضا أو بالاستياء، فأمر يصعب
 الجزم بشأنه. فالابتسامة وعلامات التأثير المفرط تملأ محياه بالتأكيد،
 على الرغم من محاولاته الجاهدة انتزاع تعويض إضافي عن «الحديقة
 التالفة».

فيسأله الضابط الفرنسي على سبيل الممازحة: «وما هي هذه
 الحديقة إذن؟»

ماذا؟ ثم يطلب منه تقديم أي دليل يثبت امتلاكه حديقة من قبل
 - أو أي دليل يؤكد معرفته بماهية الحديقة - فيرتد الشيخ على أعقابهِ
 ويقول بتجهم: «لقد كنت أنوي إنشاء حديقة. لكن أعمال التنقيب
 أحبطت مساعي!».

تتحول «حديقة الشيخ»، لبعض الوقت، إلى مادة للتندر بيننا.
 يرافقنا، هذا العام، إلى تل براك ميشيل الذي لا غنى عنه، وصبري
 الجذل مع هايو، ومجموعة من أربعة جراء مخيفة وديمتري الذي يرمق
 الجراء بحنو، بالإضافة إلى علي. أما منصور، الرقم واحد، كبير الخدم،
 الخادم الخبير بشؤون الخدمة الأوروبية، فقد انضم، ولله الحمد،
 إلى سلك الشرطة! يزورنا، في أحد الأيام، متألّقاً بزيه الرسمي وقد
 ارتسمت على وجهه تكشيرة عريضة من الأذن إلى الأذن.

كان غيلفورد قد انضم إلينا في الربيع المنصرم كمعماري، وها هو
 ذا الآن برفقتنا من جديد. وقد نال احترامي بقدرته على تقليد أظلاف
 الحصان.

يتمتع غيلفورد بوجه حسن طويل يمتاز بالجدية. وقد عرف،

في موسمه الأول، بتعقيمه المتقن للجروح والإصابات الموضعية وتضميدها. ثم لاحظ غيلفورد ما يحدث للضمادات عند عودة الرجال إلى منازلهم، ثم شاهد رجلاً اسمه يوسف عبد الله يزيل عصابة متقنة ويتمدد في أقدار أركان الحفرية فيختلط جرحه بالتراب، فصار يستخدم كميات مضاعفة من محلول البرمنغنات (الذي لقي الكثير من التقدير بسبب غنى لونه!) ويكتفي بالتركيز على ما يمكن كشفه إلى الخارج وما يمكن شربه بأمان.

يزور غيلفورد لتلقي العلاج ابن شيخ محلي يقود سيارة كمن يتخيل أنه على متن حصان فتي، فانقلبت السيارة به في أحد الأودية فجاء إليه بفتحة كبيرة في رأسه. يصاب غيلفورد بالهلع ويملاً الفتحة باليود، فيترنح الشاب من فرط الألم.

ثم يتأوه بإعجاب وقد استعاد قدرته على النطق أخيراً: «آه. تلك هي النار! كم هو رائع. سوف آتي إليك باستمرار في المستقبل - لن أذهب إلى طيب بعد الآن. نعم، نار، نار حقيقية».

يحث غيلفورد ماكس على الطلب منه أن يذهب إلى الطبيب لأن الجرح خطير بحق.

فيتساءل ابن الشيخ بازدرء: «ماذا؟ هذا؟ إنه مجرد صداع». ثم يضيف بعد تفكير: «لكنه مثير. فإن سددت أنفي ونفخت - بقوة - فسيخرج من الجرح الكثير من البصاق!».

فيستحيل وجه غيلفورد أخضر ويذهب ابن الشيخ وهو يضحك. ثم يعود بعد أربعة أيام من أجل المزيد من العلاج. جرحه يشفى بسرعة لا تصدق. لكنه حزين للغاية لأنه لن يحصل على المزيد من اليود، بل سيكتفي بمحلول مطهر.

ويقول باستياء: «إنه لا يحرق على الإطلاق».

تزور غيلفورد امرأة حامل بطنها منتفخ كالقدر. فتسر للغاية بنتائج العلاج اللطيف الذي قدمه، بغض النظر عن مشكلتها الحقيقية، وتعود كي تشكر غيلفورد على «إنقاذ حياة ابني» وتضيف إنه سيحصل على كبرى بناتها حالما تصبح كبيرة. بما يكفي، فيحمر وجه غيلفورد ويمضي المرأة وهي تضحك من كل قلبها بعد أن تفوهت بملاحظة ختامية بذيئة. لا حاجة بي إلى القول إنها كردية لا عربية!

نفذ، الآن، تنقياً خريفاً نختتم به عملنا. فقد انتهينا في هذا الربيع من شاغر بازار وانتقل التركيز إلى تل براك الذي عثرنا فيه على الكثير من القطع المثيرة للاهتمام. أما الآن، فنستكمل أعمالنا في براك قبل أن نختم الموسم بشهر أو ستة أسابيع من التنقيب في تل جيدل، وهو أكمة تقع على نهر البليخ! (هذا هو قسط الترفيه بمفهوم ماكس!).

يدعونا شيخ محلي ينتشر مخيمه بالقرب من جفجغ إلى وليمة احتفالية، فنقبل دعوته. وعند حلول يوم الولاية، يظهر صبري بأبهة ببذلته الأرجوانية وحذائه الصقيل وقبعة هومبورغ. كان، بدوره، قد تلقى الدعوة بوصفه تابعنا فيتصرف كالوسيط ناقلاً لنا آخر أبناء تقدم إعداد الولاية واللحظة المحددة التي يجب أن نصل فيها.

يستقبلنا الشيخ بالكثير من التبجيل في خيمته الكبيرة التي يجتمع تحت سقفها حشد كبير من الأصدقاء والأقارب والطفيليين.

وبعد الترحيب الدمث يجلس علياً القوم (أي نحن ورئيسا العمال، علاوي ويحيى، والشيخ وكبار أصدقائه) في حلقة ويتقدم رجل مهيب حسن الهندام بمصعب قهوة وثلاثة فناجين ويصب قطرة من القهوة الكثيفة السوداء في كل فنجان مقدماً الأول لي - في دليل

على معرفة الشيخ بالتقليد الغربي (غريب الأطوار!) الذي يقوم على خدمة النساء أولاً. ويقدم الفنجانين الآخرين لماكس والشيخ. فنحتسي قهوتنا. تصب القهوة في الفنجانين، من جديد، فنحتسيها كذلك. ثم تستعاد الفنجانين ويعاد ملؤها من أجل غيلفورد ورئيسي العمال. ويستمر الأمر على هذا المنوال على طول الحلقة. وعلى مسافة بعيدة عنا بعض الشيء، يجلس حشد من أولئك الذين ينتمون إلى المرتبة الثانية. تتناهى إلى مسامعي، من القسم الخلفي من الخيمة أصوات خفيف وضحكات مكتومة. إنهن نسوة الشيخ اللواتي يختلسن النظر ويسترقن السمع إلى ما يحدث.

ثم يعطي الشيخ أمراً، فيخرج أحد أتباعه ويعود بسارية عليها صقر وسيم يوضع في وسط الخيمة. فيهنئ ماكس الشيخ على هذا الطير الرائع.

ثم يظهر ثلاثة رجال يحملون طبقاً نحاسياً كبيراً يضعونه في وسط الحلقة. الطبق مليء بالرز وسطحه مغطى بقطع من لحم الحملان وينبعث منه البخار وعطر التوابل ويبدو شهياً للغاية. يدعونا الشيخ إلى الطعام بلباقة وتوزع علينا أرغفة من الخبز العربي نستخدمها في تناول الطعام من الطبق مباشرة بمعونة أصابعنا.

ننال، في اللحظة المحددة (ودعوني أخبركم أن ذلك لم يحدث بعد مرور بعض الوقت فحسب)، كفايتنا من الطعام والكياسة، فيرفع الطبق الكبير، الذي خلا، الآن، من أشهى مكوناته على الرغم من أنه لما يزل نصف ممتلئ، ويوضع في قلب حلقة أخرى تبعد عنا قليلاً (تضم صبري).

أما نحن، فتقدم لنا الحلوى ثم المزيد من القهوة.

وبعد انتهاء أفراد الحلقة الثانية من تناول الطعام، يرفع الطبق من جديد ويوضع في مكان ثالث وقد أصبحت محتوياته تقتصر على الرز وبعض العظام. فيجلس حوله الأفراد الأدنى مرتبة وأولئك المعوزون الذين «يعيشون في ظل الشيخ» وينكبون على الطعام فيه. ولا يرفع الطبق من أمامهم إلا وقد فرغ تقريباً.

يجلس لبعض الوقت ثم النهض ونشكر الشيخ على حسن وفادته ونرحل. وينفخ ماكس خادم القهوة مكافأة مجزية، كما يشير رئيسا العمال إلى بعض الأفراد الغامضين الذين، بدورهم يستحقون المكافأة على ما يبدو.

نسير إلى البيت وقد أصبح الجو حاراً ونشعر بالتخمة من الرز والخراف. يبدو صبري راضياً تماماً عن التسلية التي أصابها ويعتبر أن كل شيء جرى بما تقتضيه اللياقة.

نستقبل اليوم، بعد مضي أسبوع، ضيفاً ليس سوى شيخ عشيرة شمر- وهو رجل عظيم الشأن في الواقع. كان الشيوخ المحليون في انتظاره عند وصوله بسيارة رمادية جميلة. رجل وسيم ومتكلف ذو وجه طويل داكن ويدين جميلتين.

كانت وجبتنا الأوروبية هي أفضل ما صنعناه حتى الآن وكان مقدار الحماسة التي انتابت عمالنا بسبب هوية ضيفنا عظيماً! أحسننا، مع مغادرته أخيراً، وكان العائلة المالكة كانت في ضيافتنا.

كان اليوم يوماً للكارثة.

يغادر ماكس إلى القامشلي، وبرفته صبري، للتسوق وإجراء

بعض المعاملات المصرفية تاركاً غيلفورد في التل يرفع مخططات المباني ورئيسي العمال يشرفان على سير العمل.

يعود غيلفورد إلى البيت للغداء. كنا قد انتهينا للتو من تناول الطعام وغيلفورد على وشك الركوب في بيلو والعودة إلى العمل، عندما نشاهد رئيسي العمال يجريان إلى البيت بأسرع ما في وسعهما وقد بدا عليهما الاضطراب والضيق.

ثم يندفعان عبر الفناء ويتدفق منهما سيل من الكلمات باللغة العربية لا يفهم غيلفورد منه شيئاً في حين ألتقط كلمة واحدة من كل سبع كلمات.

أقول لغيلفورد: «لقد مات أحدهم».

يكرر علاوي قصته ببطء. ثم أفهم أن أربعة أشخاص قد ماتوا. أخال، للوهلة الأولى، أن الأمر يتعلق بشجار ما وأن الرجال قتلوا بعضهم، فيهب يحيى رأسه بشدة رداً على أسئلتى الركيكة.

ألعن نفسي لأنني لم أتعلم هذه اللغة! فعربيتي تقتصر على جمل من قبيل «هذا ليس نظيفاً. اصنع هذا على هذا النحو. لا تستخدم قطعة القماش تلك. أحضر الشاي» وما شابه من الأوامر المنزلية. أما هذه السردية العنيفة، فهي أكبر من قدراتي. يخرج ديمتري والصبي وسركيس وينصتون للقصة ويفهمون ما حدث. لكن ذلك لم يجلب معه أي تحسن بالنسبة إلي وإلى غيلفورد، لأنهم لا يجيدون أية لغة أوروبية.

يقول غيلفورد: «يحسن بي أن أذهب وأرى بنفسي»، ويذهب إلى بيلو.

لكن علاوي يمسكه من كفه ويكلمه بحماسة محاولاً منعه من الذهاب على ما يبدو. ويشير بطريقة مسرحية باتجاه التل إلى حيث يتدفق، من مسافة ميل تقريباً، حشد من الأشخاص بملابس ملونة وبيضاء وقد بدا عليهم الشر والتصميم. أما رئيسا العمال فيدوان لي مصابين بالذعر.

يقول غيلفورد مقطباً: «هذان الشخصان هاربان. أود لو أفهم ما المشكلة».

هل قتل علاوي (ذو المزاج المتهب) أو يحيى أحد العمال بفأس؟ يبدو الأمر غير مرجح - ناهيك عن أنهما لم يكونا ليقدران على قتل أربعة.

أسألهما من جديد، بلغة ركيكة وبالاستعانة ببعض الحركات البلهاء، إن كان ثمة من شجار. لكنهما ينفيان الأمر بشدة. يشير يحيى بيديه إلى شيء ينزل من الأعلى فوق رأسه.

فأنظر إلى السماء. هل أصيب الضحايا بصاعقة؟

يفتح غيلفورد باب بيلو. «أنا ذاهب كي أرى - وعلى هذين الاثنين أن يأتيا معي».

ويومئ إليهما بطريقة أمرية. لكنهما يرفضان على الفور وبحزم. لن يأتيا.

فيقول غيلفورد بلكنة أسترالية عدوانية: «عليهما أن يأتيا!».

فيهز ديمتري رأسه الكبير واللطيف.

ويقول: «لا، لا. الأمر سيء».

«ما هو السيء؟»

فيقول غيلفورد: «توجد مشكلة ما هناك»، ويقفز إلى السيارة. ثم يلتفت إلى بحدة، وقد رأى الحشد يقترب بسرعة، ويحدق في برعب وأرى في عينيه ما يمكن وصفه بـ «النساء والأطفال أولاً».

ثم ينزل من السيارة ويحرص على أن يتحرك بكسل ويقول بنبرة متراخية: «ما رأيك في نزهة بالسيارة كي نلاقي ماكس على الطريق؟ لم لا طالما أنه لا يوجد عمل للقيام به. خذي قبعتك أو أي شيء تريدينه».

غيلفورد العزيز، إنه يؤدي دوره بطريقة رائعة! وبحرص كبير على أن لا يخيفني.

أقول لم لا وأسأل إن كان يجب أن آخذ النقود. حيث أننا نحتفظ بأموال الحملة في صندوق تحت سرير ماكس. فإن كنا أمام حشد غاضب قادم لمهاجمة المنزل، فسيكون مما يدعو إلى الأسف أن يجدوا المال ويسرقوه.

فيتصرف غيلفورد، الذي ما يزال يحاول أن لا يقوم بما يخيفني، كما لو أن الموقف طبيعي تماماً.
ويقول: «هلا أسرعت قليلاً؟»

فأدخل إلى غرفة النوم وألتقط قبعتي وصندوق المال وأجره إلى السيارة وأصعد إليها مع غيلفورد ونشير إلى ديمتري وسركيس والصبي أن يركبوا في الخلف.

ويقول غيلفورد: «سنأخذهم معنا، أما رئيسا العمال، فلا» وهو لما يزل يلومهما على «فرارهما».

أشعر بالأسف لغيلفورد الذي كان راغباً في الذهاب ومواجهة

الحشد وأصبح مضطراً إلى الاهتمام بسلامتي. لكنني سعيدة للغاية كذلك لأنه لن يذهب إليهم، فسلطته عليهم ضعيفة وهو، فضلاً عن ذلك، لن يفهم كلمة مما يقولونه وقد يقوم بما يزيد الطين بلة. فالأمر الصائب الآن هو إحضار ماكس كي يعرف ما حدث بالضبط.

لكن علاوي ويحيى يفسدان خطة غيلفورد في إنقاذ ديمتري وسركيس وتركهما لتحمل مسؤولياتهما، فيدفعان ديمتري جانباً ويقفزان إلى السيارة. فيجن جنون غيلفورد ويحاول إخراجهما منها لكنهما يرفضان أن يتزحزحا.

فيهز ديمتري رأسه برباطة جأش ويشير إلى المطبخ ويعود أدراجة ويذهب سركيس معه وقد بدا مستاء بعض الشيء مما حدث.

ثم يعود غيلفورد من جديد: «لا أفهم لماذا هذان الشخصان...». فأقاطعته قائلة: «لا نستطيع أن نقل أكثر من أربعة أشخاص بهذه السيارة - ويبدو أن علاوي ويحيى هما من يسعى في إثرهما الرجال، إن كانوا يسعون إلى قتل أحد. ولذلك أظن أن من الأفضل أن نأخذهما. لا أظن أن للرجال أي مأخذ على ديمتري وسركيس».

يلتفت غيلفورد ويرى أن الرجال أصبحوا أقرب من أن يكون الاستمرار في الجدل ممكناً. فيرمق يحيى وعلاوي بعبوس وينطلق بالسيارة عبر بوابة الفناء ويخترق القرية نحو الطريق الذي يقضي إلى القامشلي.

لا بد أن يكون ماكس قد بدأ رحلة العودة الآن لأنه كان ينوي العودة إلى العمل في وقت باكر من بعد الظهر. وبذلك فإننا قد نلتقي به عما قريب.

وأخيراً يتنفس غيلفورد الصعداء وأخبره أنه أحسن صنيعاً.

«ماذا تعنين؟»

«أعني دعوتك العفوية لي إلى رحلة ممتعة كي نلاقي ماكس والطريقة التي حاولت بها أن لا تثير قلقي».

«آه»، يقول غيلفورد. «لقد أدركت، إذن، أنني كنت أريد أخذك بعيداً».

فأرمقه بنظرة إشفاق.

تسير السيارة بالسرعة القصوى وملتقي، بعد ربع ساعة تقريباً، بماكس وصبري العائدين على متن ماري. يبهت ماكس برويتنا ويقفز علاوي ويحيى من بيلو ويسارعان نحوه ويمتلئ الجو بكلمات عربية مفعمة بالانفعالات تقاطعها أسئلة ماكس الحادة.

نفهم الآن، أخيراً، ما يدور الأمر حوله!

كنا قد اكتشفنا، في الأيام القليلة الماضية، عدداً كبيراً من التمايم الحيوانية الصغيرة المنحوتة من العاج والحجر في موقع محدد من الحفرية. وكان الرجال يحصلون على بقشيش كبير مقابل كل قطعة. فانصب تركيزهم، من أجل العثور على المزيد منها، على تلك البقعة المحددة لأن التمايم مدفونة على عمق أكبر.

لكن الأمر أخذ يزداد خطورة، فمنعهم ماكس، في الأمس، من الاستمرار في الحفر آمراً إياهم بالعودة إلى السطح والبدء بالحفر من جديد، فتذمر الرجال لأن ذلك كان يعني أنهم قد يمضون يوماً أو يومين في الحفر قبل الوصول، من جديد، إلى العمق التي توجد عنده التمايم.

كلف رئيسا العمال بمراقبة التزامهم بالأوامر، ففعل العمال ما أمروا به، وإن على مضض، وأخذوا يحفرون من الأعلى بطريقة محسومة.

ذلك ما كان عليه الوضع عندما توقف العمل من أجل استراحة الغداء. ثم نصل الآن إلى حكاية الخيانة والجشع. كان الرجال منتشرين على سفح التل بالقرب من جرار الماء، حين تسللت زمرة كانت تعمل في الجهة الأخرى من التل إلى البقعة الغنية بالمكتشفات وأخذ أعضاؤها يحفرون بهياج في النقطة التي أوقف العمل بها وفي نيتهم السطو على البقعة المخصصة للرجال الآخرين والزعم أنهم استخرجوا القطع المسروقة من المنطقة المخصصة لهم.

في تلك اللحظة، بالذات، حطت عليهم نمسيس - إلهة الانتقام - بعد أن مضوا في الحفر أعمق مما ينبغي، فانهارت الطبقات العليا عليهم!

هرع جميع العمال إلى المكان عند سماعهم صراخ الرجل الناجي الوحيد وأدركوا في الحال، كما أدرك رئيسا العمال، ما جرى وبدأ ثلاثة عمال بالحفر بسرعة لانتشال زملائهم الذين نجوا واحد منهم ومات الأربعة الآخرون.

وعم الهرج والمرج المكان في الحال فأخذ العمال يصرخون ويناجون السماء وقد سيطرت عليهم الرغبة في الإلقاء باللائمة على أحد ما. يصعب الجزم إن كان رئيسا العمال قد فقد، في تلك اللحظة، رباطة جأشهما وقررا أن يوليا الإدبار أم أنهما تعرضا للهجوم بالفعل. لكن النتيجة، في الحالتين، كانت أن الرجال تدفقوا في إثرهما وقد اجتاحتهم نوبة مفاجئة من الغضب.

يميل ماكس إلى وجهة النظر القائلة إن رئيسي العمال فقدوا أعصابهما

ما جعل الرجال يفكرون في مهاجمتهما، لكنه لا يضيع أي وقت في توزيع الاتهامات. فنعود إلى السيارتين ونطلق بالسرعة القصوى إلى القامشلي حيث يشرح ماكس المسألة للضابط المكلف بحفظ الأمن في نقطة الخدمات الخاصة.

يستوعب الملازم القضية بسرعة ويتصرف في الحال. إذ يجمع أربعة جنود وينطلق بسيارته إلى براك ونحن في إثره. الرجال مجتمعون في الأكمة الآن وهم يروحون ويجيئون في حالة من الهياج وكأنهم سرب من النحل. لكن وصول السلطة يجعلهم يهدؤون، فنصعد إلى التل في موكب ويرسل الملازم سيارته مع واحد من الجنود ويذهب بنفسه إلى موقع المأساة.

وهناك، يحقق الملازم في الواقعة، فيشرح الرجال الذين كانوا في موقع استطاعوا معه مشاهدة ما حدث أنهم لم يكونوا هم، بل زمرة منافسة كانت تحاول سرقة منطقتهم. ثم يتم استجواب الناجي، فيؤكد هذه الرواية. هل هؤلاء الرجال هم كل أعضاء المجموعة؟ رجل لم يصب بسوء وآخر مصاب وأربعة قتلى؟ هل يوجد أي احتمال أن يكون هناك آخرون ما يزالون مدفونين تحت التراب؟ لا.

في تلك اللحظة، تعود سيارة الملازم مع شيخ العشيرة التي ينتمي إليها العمال القتلى فيتولى مهمة الاستجواب مع الملازم.

وأخيراً، يرفع الشيخ صوته مخاطباً الحشد، ميرثاً الحملة من أي ذنب. فقد كان الرجال يحفرون خارج أوقات العمل والوقت المخصص لهم ناهيك عن نيتهم سرقة رفاقهم. وذلك كان جزاء عصيانهم وجشعهم. فليعد الجميع إلى بيوتهم الآن.

كانت الشمس قد غابت، في هذه اللحظة، وبدأ يحل الظلام.

يعود الشيخ والملازم وماكس بالسيارة إلى البيت حيث نسعد بمراى ديمتري وهو يعد العشاء بهدوء وسركيس مكشراً بابتسامة عريضة.

تستأنف المشاورات على مدى ساعة. إنه حادث مؤسف بالتأكيد. لكن الملازم يقول إن لهؤلاء الرجال أسراً يعيلونها. وسيكون تبرعنا بمبلغ من المال موضع تقدير بلا شك، على الرغم من أنه ليس ملزماً. ويقول الشيخ إن هذا السخاء علامة على طبيعة نبيلة وأنه سيساهم كثيراً في تحسين سمعتنا في هذه الأرجاء.

يقول ماكس إنه يرغب بشدة في التبرع لهذه الأسر - على أن يفهم بوضوح أن الأمر يتعلق بهدية ولا يمثل أي نوع من التعويض. فينخر الشيخ موافقاً ويشير على الضابط الفرنسي أن يدون الاتفاق كتابة. وفضلاً عن ذلك، فإنه سيعلن الأمر بنفسه. ثم يأتي النقاش على مقدار المبلغ. وبعد الاتفاق على كل شيء، تقدم الأطعمة الخفيفة ثم يغادر الشيخ والملازم الذي يترك اثنين من الجنود في موقع الحادث.

يقول ماكس، ونحن في طريقنا إلى النوم وقد نال منا التعب: «أفكر في تكليف أحد بمراقبة الحفرية في الغد في ساعة الغداء كي لا يتكرر الأمر من جديد».

لكن غيلفورد يبدو متشككاً.

«لن يحدث ذلك بعد أن أدركوا مقدار الخطر وشاهدوا ما حدث!».

فيقول ماكس بتجهم: «انتظر وشوف ترى!».

وفي اليوم التالي، يكمن ماكس خلف جدار من الطين. وكما هو متوقع، يتسلل ثلاثة رجال حول سفح التل، في ساعة الغداء،

ويشرعون في الحفر بضراوة في مكان مجاور لا يبعد أكثر من قدمين عن الموقع الذي قتل فيه رفاقهم!

فيخرج ماكس من مكمنه ويواجههم بخطبة رنانة. ألا يدركون أن ما يفعلونه سيقتلهم؟

فيتمتم أحد الرجال: «إن شاء الله!».

ثم يفصلون من العمل رسمياً بتهمة محاولة سرقة زملائهم.

ومنذ تلك اللحظة، يخضع الموقع للحراسة بعد انتهاء العمل، ويستمر الأمر على هذا النحو حتى الانتهاء من حفر الطبقات العليا في بعد ظهيرة اليوم التالي.

يقول غيلفورد مرتاعاً:

«يبدو أن هؤلاء الناس لا يبالون بأرواحهم على الإطلاق. قلوبهم قاسية للغاية. لقد كانوا يضحكون من موت رفاقهم وقد قدموا، في هذا الصباح، استعراضاً إيمائياً للحدث!».

يقول ماكس إنه ليس للموت من أهمية كبيرة هنا.

يطلق رئيسا العمال الصافرة إيداناً بانتهاء العمل ويمر الرجال أماناً أثناء نزولهم من التل وهم ينشدون: «كان يوسف داوود معنا في الأمس - وهو ميت اليوم! ولن يملأ بطنه الكبير بعد اليوم. ها، ها، ها، ها!».

فتكون صدمة غيلفورد عميقة.

الفصل الثاني عشر

عين العروس

ينتقل مقر إقامتنا من تل براك إلى البليخ.

نقوم بنزهة سيراً على الأقدام على طول نهر جفجغ في مساء اليوم الأخير الذي نمضيه هناك ونشعر بشيء من الانقباض. فقد أصبحت أحمل الكثير من الحب لجفجغ، ذلك النهر الضيق بمائه الطيني ذي اللون البني.

ويبقى، على الرغم من ذلك، أن قرية براك لم تحتل في قلبي المكان الذي احتله شاغر. قرية براك سوداوية نصف مهجورة وخربة والأرمن بملابسهم الأوروبية الرثة يبدوون خارجين عن سياق المحيط. وأصواتهم غاضبة باستمرار ولا أثر في المكان لفرح الحياة العربية أو الكردية وغناها. أفتقد للنساء الكرديات اللواتي يتجولن في الريف، تلك الأزهار المرححة العظيمة، بأسنانهن الناصعة ووجوههن الضاحكة وحملهن الفخور.

استأجرنا عربة نقل متداعية لنقل الأثاث الذي سوف نحتاج إليه. إنها من ذلك النوع من عربات النقل الذي يجب أن تربط كل ما تنقله فيها بحبل! يتبادر إلى ذهني أننا لن نجد على متنها أي شيء عند وصولنا إلى رأس العين.

يتم تحميل كل شيء أخيراً وننطلق، ماكس وأنا في ماري الزرقاء وميشيل والخدم في بيلو برفقة هايو.

نتوقف، في منتصف المسافة إلى رأس العين، من أجل غداء في الهواء الطلق ونشاهد صبري وديمتري يزجران ضاحكين. يقولان إن «هايو أمضت الطريق وهي مريضة وأن صبري كان يحتضن رأسها!». وفي الداخل دليل حي على صحة روايتهما! ثم أفكر في كم أنهما محظوظان لأنهما يعتبران الأمر مضحكاً.

تبدو هايو، للمرة الأولى منذ أن عرفتها، مهزومة وكأنها تقول: «أستطيع أن أواجه عالماً عدائياً تجاه الكلاب، أستطيع مواجهة عداوة المسلمين والموت غرقاً والتضور جوعاً والضرب والركل والرجم ولا أخشى شيئاً. أنا لطيفة تجاه الجميع لكنني لا أحب أحداً. لكن أي مرض هو هذا الذي يجردني من احترامي لذاتي؟». عيناها الكهرمانيتان تنتقلان بيننا بحزن وإيمانها بقدرتها على مواجهة أسوأ ما في العالم يتداعى.

لكن هايو، لبالغ سعادتنا، تستعيد ذاتها بعد خمس دقائق وتلتهم كميات كبيرة من غداء صبري وديمتري. أسأل إن كان الأمر حكيماً - مشيرة إلى أن الرحلة في السيارة ستستأنف قريباً.

فيصبح صبري: «هاه. وستمرض هايو من جديد عندها!».

لا بأس، إن كان الأمر يسليهما...

نصل إلى بيتنا في وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم. إنه منزل يقع في أحد شوارع رأس العين الرئيسية - التي يقول التقليد إن إسحق التقى فيها برفقة عند البئر. الدار حضرية تقريباً، أو بحسب ما يقول مدير المصرف «*construction en pierre*». الأشجار مزروعة على

طول الشارع وأوراقها تتلألأ الآن بألوان الخريف. لكن المنزل طافح بالرطوبة، لبالغ الأسف بسبب وقوعه تحت منسوب الشارع في مدينة كرأس العين تنتشر فيها المجاري المائية في كل مكان. فيجد المرء ملاءته العلوية مبللة تماماً في الصباح وكل ما يلمسه رطباً وندياً ويتصلب جسدي إلى درجة أكاد معها أن أعجز عن الحركة.

توجد خلف المنزل حديقة صغيرة جميلة وأكثر ذوقاً من أية حديقة أخرى عرفناها، منذ أمد بعيد.

فقدنا أثناء رحلتنا إلى رأس العين ثلاثة مقاعد وطاولة وكرسي المغسلة الخاص بي! على الرغم من أن خسارتنا كانت أقل بكثير مما توقعته!

يقع تل جيدل إلى جانب بحيرة كبيرة من الماء اللازوردي الأزرق الذي يغذي نهر البليخ. والبحيرة محاطة بالأشجار والبقعة محبة للغاية وهي بالغة الاختلاف عن المكان الذي كنا فيه من قبل وفيها سحر جميل وإن يكن سوداوياً قليلاً - لكنها لا تحمل شيئاً من عدوثة شاغر البكر والريف الممتد حوله.

هنالك الكثير من الرخاء هنا والأرمن وسواهم من الناس حسنو الهندام يسرون في الشوارع، وفي المدينة منازل وحدات.

لم يكن قد مضى علينا في هذا المكان أكثر من أسبوع واحد عندما تلحق هايو بنا العار. إذ تقاطر كافة كلاب رأس العين كي تخطب ودها، ولأن أياً من الأبواب لا يغلق بإحكام، فإن أمر إبقاء تلك الكلاب في الخارج أو جعل هايو تخرس يصبح مستحيلًا! هنالك الكثير من العواء والنباح والشجار. وتقوم هايو، ذات العينين الكهرمانيتين الحالمتين بكل ما في وسعها لإبقاء ذلك الهرج مستمرًا!

يتحول المشهد إلى مسرحية إيمائية على الطراز القديم، إذ تنبثق الشياطين من النوافذ وتصفق الأبواب. تفتح النوافذ، ونحن جالسون لتناول الطعام، ويقفز كلب ضخم إلى الداخل - يليه كلب آخر - ويقع الاصطدام! ثم يفتح باب غرفة النوم بعنف ويظهر كلب ثالث ويركض الثلاثة بجنون حول الطاولة ويصطدمون بباب غرفة غيلفورد فيفتحونه ويختفون - كي يعودوا إلى الظهور من جديد كالسحر من باب المطبخ وفي إثرهم مقلاة رماه بها صبري.

يمضي غيلفورد ليلة لا يغمض له فيها جفن والكلاب تتدفق من الباب وتقفز فوق سريره كي تخرج من النافذة، فينهض غيلفورد، بين الفينة والأخرى، كي يرميها بكل ما تطاله يده.

نباح وعويل وفوضى معمة!

أما هايو نفسها، فنكتشف أنها كلبة متعجرفة. إذ تختار كلباً من رأس العين يضع طوقاً وكأنها تقول: «هذه هي الأبهة!». وهو، في الواقع، كلب أسود ذو أنف مرفوع وذيل كبير يشبه معه حصاناً جنائزياً.

يطلب صبري أخيراً، بعد أن حرمه ألم في الأسنان من النوم بضع ليال، إجازة كي يذهب بالقطار إلى حلب ويزور طبيب الأسنان. ثم يعود بعد يومين وقد أشرق وجهه.

أما روايته لأحداث اليومين الماضيين فهي كالتالي:

«ذهبت إلى طبيب الأسنان وجلست على الكرسي لديه وأرأته سني. فقال نعم لا بد من قلعه. قلت له كم تبلغ الكلفة؟ فقال عشرين فرنكاً. فقلت له هذا هراء وذهبت إلى البيت. ثم عدت إليه بعد الظهر. كم تبلغ الكلفة؟ ثمانية عشر فرنكاً. فقلت من جديد هذا هراء. كان

الألم يزداد باستمرار، لكن المرء لا يمكن أن يسمح لأحد بسرقة. عدت في صباح اليوم التالي. كم تبلغ الكلفة؟ ثمانية عشر فرنكاً. وعدت مرة أخرى عند الظهر. ثمانية عشر فرنكاً. إنه يظن أن الألم قد يهزمني لكنني أستمر في مساومته! وكان الفوز من نصيبي في النهاية يا خواجة».

«هل خفض السعر؟»

فيهز صبري رأسه بالنفي.

«لا، لم يكن ليخفض السعر، لكنني عقدت صفقة ممتازة. فقد قلت حسناً. ثمانية عشر فرنكاً لكن عليك أن تقلع أربعة أسنان، لا سناً واحدة!».

«لكن هل تؤلمك الأسنان الأخرى؟»

«لا، بالطبع لا. لكنها ستبدأ في إيلامي ذات يوم. أما الآن، فهي لن تستطيع ذلك. لقد تم قلعها، وبسعر قلع سن واحدة».

فيهز ميشيل، الذي كان واقفاً عند الباب يستمع للقصّة، رأسه موافقاً ويقول: «*Beaucoup economie*».

كما عاد صبري معه بعقد من حبات حمراء يعقده حول عنق هايو قائلاً: «هذا ما تضعه الفتيات كي يظهرن أنهن متزوجات. لقد تزوجت هايو مؤخراً».

لقد تزوجت بالتأكيد! وعلي أن أقول، من كل كلاب رأس العين! أعمل صباح اليوم، وهو يوم أحد يصادف كونه يوم عطلتنا، على تسمية اللقي وماكس منكب على سجل الأجور حين يرافق علي امرأة إلى الداخل. إنها امرأة ذات مظهر محترم ترتدي ثوباً أسود أنيقاً ويتدلى

على صدرها صليب ذهبي كبير وشفاتها منقبضتان بشدة ويبدو عليها الغضب الشديد.

يرحب ماكس بها بكياسة، فتندفق من فمها في الحال قصة طويلة - قصة حزينة بالتأكيد يتردد اسم صبري فيها بين الفينة والأخرى. يتجهم وجه ماكس وترسم الجدية على محياه. تستمر القصة وتزداد اتقاداً.

ينبئني حدسي أن الأمر يتعلق بالحكاية القديمة والمعروفة حول الخيانة التي تتعرض لها عذراء القرية. فتكون هذه المرأة هي الأم وصديقنا الجدل صبري هو الفتى المخاتل.

يرتفع صوت المرأة بنبرة سخط محق. ثم تقبض بيدها على الصليب المتدلي على صدرها وتمسك به ويبدو أنها تخلف عليه بأمر ما.

يستدعي ماكس صبري وأفكر أنه من الأكثر كياسة أن أنسحب. وكنت على وشك المغادرة بهدوء عندما يأمرني ماكس بالبقاء حيث أنا. فأعود إلى الجلوس وأتظاهر بفهم ما يقال طالما أنه يفترض بي أن أعطي الانطباع بكوني شاهد عيان.

تلتزم المرأة الصمت وتكتسي ملامحها بالرزانة والوقار حتى اللحظة التي يظهر فيها صبري. فتهاز يدها بعنف في إشارة شجب وتكرر اتهاماتها ضده بداهة.

لا يبدي صبري أية حماسة في دفع التهمة عن نفسه، بل يهز كتفيه ويرفع يديه ويبدو كمن يقر بصحة الاتهام.

وتستمر الدراما بين دفوع واتهامات ويتبنى ماكس بالتدريج دور القاضي. ثم يهزم صبري ويبدو وكأنه يقول حسناً، افعل ما بدا لك!

وفجأة يستل ماكس ورقة ويكتب. ويضع الكلمات المكتوبة أمام المرأة، فتضع على الورقة علامة صليب وتمسك الصليب الذهبي من جديد وتقسم اليمين برزانة. ثم يوقع ماكس ويضع صبري علامته كذلك ويحلف يميناََ خاصاً به على ما يبدو. ثم يعد ماكس بعض المال ويعطي المرأة إياه، فتأخذه المرأة وتحنى رأسها بوقار شكراً لماكس وتغادر. ثم يوجه ماكس بعض عبارات اللوم اللاذعة لصبري الذي يذهب وقد بدا عليه الإحباط.

ثم يسند ماكس ظهره على كرسيه ويمسح وجهه بمنديل ويقول:
«أوف ا!».

فأطلق في الكلام:

«عم كان يدور الأمر؟ عن فتاة؟ هل كانت ابنة هذه المرأة؟»

«ليس بالضبط. تلك كانت مديرة الماخور المحلي».

«ماذا؟»

ثم يسرد ماكس القصة مستخدماً كلمات المرأة قدر الإمكان. تقول إنها جاءت إليه كي يتم إنصافها من خطأ جسيم ارتكبه بحقها خادمه صبري.

«ماذا فعل صبري؟»، يسأل ماكس.

«أنا امرأة شريفة ولدي مكائتي وأحظي بالاحترام في هذا الحي! والناس يتكلمون عني بالخير. وأدير بيتي بمخافة الله. ثم يأتي هذا الشخص، هذا الصبري، فيجد في منزلي فتاة كان يعرفها من القامشلي. فهل يجدد صلته بها بأسلوب لطيف ولائق؟ لا، بل يتصرف بعنف وبما يخالف القانون - وبطريقة تجلب العار علي! إذ يقذف بسيد

تركي، سيد تركي ثري، هو واحد من أفضل زبائني، من أعلى الدرج ثم إلى خارج البيت. ويقوم بكل ذلك بعنف وبأسلوب غير لائق! والأدهى من ذلك أنه يقنع الفتاة، التي تدين لي بالمال والتي أعاملها بركة، بمغادرة البيت ويشترى لها تذكرة ويرسلها بالقطار. فضلاً عن ذلك، فإنها تأخذ معها مائة وعشرة فرنكات من مالي وهذه هي السرقة بعينها! والآن يا خواجة. ليس من قبيل العدل أن تساء معاملتي بهذا الشكل. لقد كنت على الدوام امرأة فاضلة ومستقيمة، أرملة تخشى الله ولا يمكن لأحد أن يتناولها بالسوء. لقد ناضلت طويلاً ضد الفقر وارتقيت في هذا العالم بشرف. فلا يمكن لك أن تنحاز إلى العنف والخطأ. أنا أطلب بالعدالة وأقسم لك (كانت تلك هي اللحظة التي انخرط فيها الصليب في اللعبة) أن كل ما قلته صحيح وسأرده في وجه خادمك صبري. يمكنك سؤال القاضي والكاهن وضباط الحامية الفرنسية - وسوف يخبرونك أنني امرأة شريفة ومحترمة!».

لا ينفي صبري، بالإجمال، أية كلمة. نعم، لقد عرف الفتاة في القامشلي. كانت صديقتة. وقد أزعجه الرجل التركي فدفعه من أعلى الدرج. ثم اقترح على الفتاة أن تعود إلى القامشلي، وقد كانت تفضل القامشلي على رأس العين. فاقترضت الفتاة بعض المال كي تأخذه معها، لكن المال سيرد بالتأكيد في يوم من الأيام.

ثم ترك الأمر لما كس من أجل النطق بالحكم.

يهمهم ماكس ساخراً: «غريبة هي الأشياء التي على المرء القيام بها في هذه البلاد. يستحيل عليك توقع ما هو آت.».

أسأله عن طبيعة الحكم.

فيتنحجج ماكس.

«يفاجئني ويحزنني أن يكون أحد الخدم العاملين لدي قد دخل إلى منزلك، لأن ذلك لا يتفق مع شرفنا - شرف الحملة، وأؤكد لك أن أياً من خدمي لن يدخل إلى منزلك في المستقبل. فليكن ذلك مفهوماً تماماً!«.

فيقول صبري بحزن إن الأمر مفهوم.

«في ما يتعلق بالفتاة التي غادرت بيتك، فإنني لن أتخذ أي إجراء بهذا الصدد لأن الأمر لا يعنيني. أما المال الذي أخذته منك فأعتبره مالياً يجب أن يرد وسأقوم بسداده الآن من أجل شرف خدام الحملة. وسوف يقطع المبلغ من أجر صبري. سأكتب ورقة سأتلوها عليك أقر فيها بسداد المبلغ وأحرر نفسي من أية ادعاءات أخرى من قبلك. وسوف تضعين بصمتك على هذه الورقة وستقسمين أن الأمر ينتهي عند هذا الحد».

فأتذكر الوقار والحمية الإنجيلية اللتين أمسكت المرأة بموجيهما الصليب.

«هل قالت شيئاً آخر؟»

«أشكرك يا خواجه. لقد انتصرت العدالة والحق كما هي الحال على الدوام - ولم يسمح للشر بالظفر».

أقول: «حسناً، حسناً...».

أسمع وقع خطي خفيفة تمر بجوار النافذة.

إنها زائرتنا الأخيرة تحمل كتاباً مقدساً أو كتاب صلاة وهي في طريقها إلى الكنيسة. وجهها رزين ووقور وصلبيها الكبير يقفز على صدرها صعوداً ونزولاً.

فأنهض وألتقط نسخة من الكتاب المقدس من الرف وأفتح قصة البغي راحب وأشعر أنني أعلم، وإن قليلاً، عما كانت البغي راحب عليه. وأستطيع أن أرى كيف تؤدي هذه المرأة ذلك الدور بحماسة وبتعصب وشجاعة، دور راحب - المتدينة بعمق على الرغم من كونها بغيًا.

شهر كانون الأول يقترب منا وحلت نهاية الموسم. كانت هناك في الأجواء لمسة من الحزن، ربما بسبب الخريف وكوننا معتادين على الربيع، أو ربما بسبب الشائعات المتداولة والتحذيرات من اضطرابات أوروبية. هنالك إحساس، هذه المرة، بأننا قد لا نعود...

ومع ذلك، فبيت براك ما يزال قيد الإيجار - سوف يتم تخزين أثاثنا فيه وما يزال هناك الكثير مما يمكن العثور عليه في الأكمة. عقد إيجارنا ممتد على سنتين إضافيتين. سوف نعود بالتأكيد...

تتخذ ماري وبيلو الطريق الذي يمر من جرابلس إلى حلب. ومن حلب، تتجه إلى رأس شمرا ونمضي عيد الميلاد لدى صديقينا البروفسور شافر وزوجته وأطفالهما الذين يبعثون على البهجة. لا يوجد في العالم مكان يتمتع بدفء رأس شمرا، وهو خليج جميل مياهه زرقاء عميقة يحده الرمل الأبيض وصخور بيضاء واطئة. نمضي برفقتهم عيد ميلاد رائع وتحدث عن السنة القادمة، عن سنة قادمة ما - لكن الإحساس بعدم اليقين يزداد وقعاً. ثم نودعهم ونقول: «سنلتقي، من جديد، في باريس».

باريس - للأسف!

نغادر بيروت بالسفينة هذه المرة.

أقف عند حاجز السفينة وأنظر. كم هو جميل هذا الساحل مع

جبل لبنان الذي ينتصب من بعيد شاحباً وأزرق يناطح السماء! دون أن يفسد شيء رومانسية المشهد الذي يحس المرء أنه شاعري- بل يكاد يكون عاطفياً.

وفجأة يندلع صخب مألوف - صرخات هائجة من سفينة شحن تمر بالقرب منها. لقد أسقطت الرافعة حمولة في البحر وانفتح صندوقها الخشبي...

يمتلئ سطح الماء بمقاعد المغاسل...

يصل ماكس ويسأل عن سبب الضجيج؟ فأشير إلى الماء وأقول له إن مزاج الوداع الرومانسي لسورية قد فسد الآن!

يقول ماكس إنه لم تكن لديه فكرة أننا نصدرها بهذه الكميات! ولم يكن له أن يظن أنه يوجد في البلاد ما يكفي من الأتابيب لوصولها! أغرق في الصمت، فيسألني بماذا أفكر.

أتذكر الآن كيف وضع نجار عاموداً مقعد المغسلة باعتزاز عند الباب الأمامي عندما جاءت الراهبات الفرنسيات والضابط الفرنسي لاحتساء الشاي. وأتذكر علاقة المناشف بـ «قدمها الجميلة!» والهر المحترف! وماك، بوجهه السعيد والقصي، يصعد إلى السطح وينزل منه عند الغروب.

أتذكر، الآن، نسوة شاغر الكرديات اللواتي يشبهن زهور التوليب. أتذكر الكولونيل يجثو بحقيقته السوداء الصغيرة أمام قبر أزيح الغطاء عنه فيهمهم العمال قائلين: «لقد جاء الدكتور للكشف على الحالة» فيصبح اسم «M. le docteur» لقباً للكولونيل منذ تلك اللحظة. أتذكر بامبس وقبعته الحرون وميشيل يصرخ «فرقع» وهو

يحكم وثاق حزامها. أتذكر تلاً صغيراً مغطى بقطيفة خضراء وأغلق
عيني وأشم عبير الأزهار والسهب الخصب في كل مكان حولي...
«أفكر»، أقول لماكس، «كم إنه أسلوب جميل للحياة...»

الخاتمة

بدأت هذه اليوميات غير المتسلسلة قبل الحرب، وقد شرعت في كتابتها للأسباب التي ذكرتها.

ثم وضعتها جانباً. أما الآن، بعد أربع سنوات من الحرب، فقد وجدت أفكارى تحملني شيئاً فشيئاً إلى تلك الأيام التي أمضيتها في سورية وأحسست نفسي، في النهاية، مدفوعة إلى استخراج ملاحظاتي ويومياتي غير المصقولة كي أكمل ما بدأتها ثم نحيته جانباً. إذ يبدو لي حسناً أن أتذكر أنه كانت هناك أيام كهذه وأماكن كهذه وأنه، في هذه اللحظة بالذات، يزهر تل القطيفة الصغير ذاك ويسير رجال مسنون بلحاهم البيضاء خلف حميرهم دون أن يدروا، ربما، بوجود حرب. «لم تصل إلينا...».

لأنني أعلم، بعد أربع سنين من الحرب عشتها في لندن، كم كانت جميلة تلك الحياة وكم إنني أتوق إلى أن أعيش فرح تلك الأيام من جديد... فلا يعود تدوين هذا السجل البسيط مجرد مهمة، بل فعل حب، لا هروباً إلى شيء كان، بل تطعيماً للمشقة والحزن اللذين يكتنفان هذه الأيام بشيء خالد لم يكن في يوم مضى بل ما يزال كائناً! ولأنني أعشق تلك البلاد الجميلة والخضبة وأناسها البسطاء الذين يعرفون كيف يضحكون وكيف يستمتعون بالحياة وكيف يكونون كسالى ومرحين، والذين يتمتعون بالكرامة والطباع الحسنة وبالكثير من روح المرح والذين لا يمثل الموت بالنسبة إليهم حدثاً جليلاً...

سأعود إلى هناك، إن شاء الله، ولن تكون الأشياء التي أحببت قد
رحلت عن هذه الأرض....

ربيع عام ١٩٤٤

١

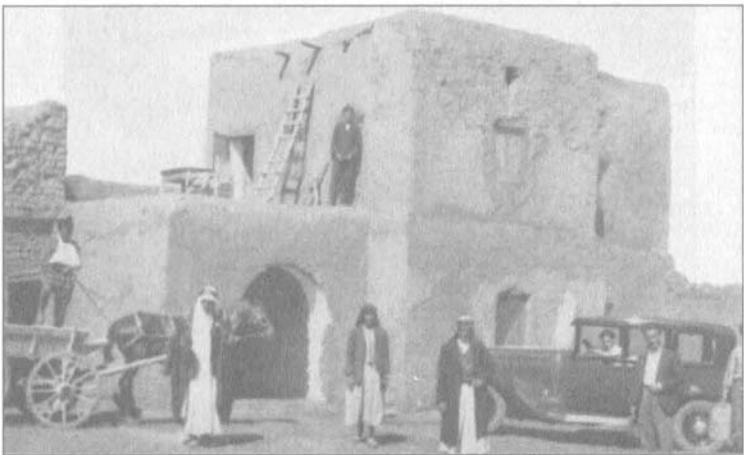
١



أغاثا كريستي في النمرود الموصل.



أغاثا كريستي في موقع تل شاعر بازار (١٩٣٥-١٩٣٧).



البيت في تل براك أثناء زيارة كريستي.



أغاثا كريستي مالوان، ملكة جمال باركر، إيرين هاينز، كارل هاينز، ماكس مالوان،
دون ماك كوان، محمد علي، تل حلف.



سيارة كوين ماري على الفرات خلال رحلة كريستي السورية.



أغانا كريستي في تل شاغر بازار، سوريا بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧.



ماكس وأغانا في تل حلف.



أغاثا كريستي تتناول الإفطار على الشرفة في منزل ببغداد.



أغاثا كريستي مع زوجها ماكس مالوان (يسار) وعالم الآثار البارز ليونارد وولي في أور.



أغاثا كريستي، ماكس مالوان (وسط) وبقيّة أعضاء الفريق الأثري في سورية.



أغاثا كريستي مع حفيدةها ماثيو بريتشارد في مطار لندن في ديسمبر كانون الأول عام ١٩٥٦.

الفهرست

٧	تمهيد
٩	جلسة على تل
١٥	الفصل الأول
١٥	ذاهبون إلى سورية
٣٥	الفصل الثاني
٣٥	رحلة استطلاع
٦٩	الفصل الثالث
٦٩	الخابور وجفجغ
١٠١	الفصل الرابع
١٠١	الموسم الأول في شاعر بازار
١٣٥	الفصل الخامس
١٣٥	نهاية الموسم
١٥٣	الفصل السادس
١٥٣	نهاية الرحلة
١٦٧	الفصل السابع
١٦٧	الحياة في شاعر بازار
١٩٣	الفصل الثامن

١٩٣	شاغر وبراك
٢٢٥	الفصل التاسع
٢٢٥	وصول ماك
٢٤٥	الفصل العاشر
٢٤٥	الرحيل إلى الرقة
٢٥٩	الفصل الحادي عشر
٢٥٩	الوداع يا تل براك
٢٧٥	الفصل الثاني عشر
٢٧٥	عين العروس
٢٨٧	الخاتمة

تركت أغاثا كريستي (1890 - 1976) إرثاً غنياً من الروايات والمسرحيات البوليسية الأكثر انتشاراً في الأدب العالمي الحديث، وكانت حياتها عاصفة لاتهدأ، فمع شغفها المتواصل بالكتابة اليومية كانت تطوف حول العالم بكل أنواع وسائل النقل، لتعرف كل وجوه الحياة في العالم، وتكتشف كل ماهو غريب أو جميل أو عجيب أو مخيف، في الطبيعة والمدن والشواطئ والجزر وسكانها وتقاليدهم وطباعهم، وقادها بحثها عن الماضي إلى معاينة المكتشفات الأثرية في الشرق، في مصر والعراق وسوريا، والتقت عام 1930، بين أطلال مدينة اور، بخبير الآثار ماكس مالوان فتزوجا، وعملا معاً في الحفريات الأثرية في نينوى وأور ونمرود والأرجبية، وفي عامي 1937 و 1938 قاد مالوان وأغاثا ورشة تنقيب في حوض نهر الخابور، في تل شاعر بازار قرب عامودا، وتل براك في منتصف الطريق بين الحسكة والقامشلي، وكانت أغاثا ترصد كل المتاعب والأحداث والشخصيات والمفاجآت التي مرت بها من بريطانيا إلى بيروت وحمص ودمشق وتدمر وحلب ودير الزور، وذهلت من كثرة التلال المتناثرة في الجزيرة السورية، وهي أكثر مئة تل، ولكن عشقتها انصب على تل براك، بعد أن كشف عن أسراره المخبأة منذ ستة قرون، بما فيها القصر و"معبد العين" برموزه الساحرة، التي تليق بعاصمة متحضرة في زمنها البعيد، وفي وقفة حاملة أمام التل طرحت عليه السؤال: تعال قل لي كيف تعيش؟ ثم كتبت جوابه في قصيدة .

كانت أغاثا تعرف كل العمال في الورشة وترصد طباعهم وتعالج نساءهم وأولادهم، وحينما نشب خلاف بين أحد الأيزيديين وعامل آخر أنصفت العامل الأيزيدي وكتبت أنها عرفت الأيزيديين عن قرب، حينما كانت تعمل في شمال العراق، حيث تبادلست الزيارة مع المير، رئيس الأيزيديين، فكتبت عن مقام الشيخ عدي: "أعتقد أنه لا يوجد في العالم مكان بجماله وسكينته... والطبيعة البشرية هناك على درجة من النقاء يمكن معها للنساء المسيحيات أن يسبحن عاريات في الجداول"، كما قامت بزيارة شيخ جبل سنجار حمو شيرو الذي أنقذ مئات المهاجرين الأرم من الموت.

في عام 1950 بدأت أغاثا كتابة سيرتها الذاتية في منزل هادئ في موقع النمرود، وفيها سرد عاطفي لذكراياتها في العراق "كيف أحببت كثيراً هذا الجزء من العالم.."، كما كتبت روايتين استوحتهما من تلك الذكريات وهما "جريمة بين النهرين" و"الذين وصلوا بغداد".

مدن قديمة متحضرة أحبها أغاثا كريستي، وعاشت بين أطلالها، دمرها وأحرقها غزاة همجيون وبرابرة، منذ عدة قرون، وما يزال أحفادهم يعيشون معنا يزورون المسوت، ويدمرون المدن الجديدة وآثار المدن القديمة، ويرفعون رايات النصر.

بندر عبد الحميد

ISBN 978-284309000-4



9 782843 090004